بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأنفال: الآيات ٣٨ ـ ٤٠].

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنفال: الآية ٣٨].

لمّا بين الله (جل وعلا) أن الكفار يُحشرون إلىٰ جهنم، وأنهم يضم بعضهم إلى بعض فيُركم بعضهم فوق بعض فيجعلون في نار جهنم، أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: إنهم إن انتهوا عما هم عليه من الكفر، ورجعوا إلىٰ ما يرضي ربهم فآمنوا به وصدقوا رسوله، يغفر لهم جميع ما سلف منهم من الكفر، ولا يكون عليهم ذنب من جميع ما مضىٰ. ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ يا نبي الله قل لهم ﴿ إِن يَنتَهُواْ ﴾ لم يقل له: خاطبهم، حتىٰ يقول: إن تنتهوا يغفر لكم ما قد سلف. كأنه أمره بتبليغهم: إن ينتهوا عما هم عليه من الكفر يُغفر لهم. وحذف الفاعل لأن من المعلوم أنه لا يغفر ما سلف إلا الله وحده، فليس هنالك غيره، يحتمل أن يكون هو الفاعل؛ ولذا حذف الفاعل للعلم به وعدم الحاجة إلى ذكره؛ لأنه معروف ﴿ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾. وقوله: ﴿ مَا قَدۡ سَلَفَۚ ﴾ أي: ما مضىٰ قبل انتهائهم من جميع ما ارتكبوه من أنواع الكفر والمعاصي، وهذا معنىٰ قوله: ﴿ إِن يَنتَهُواْ

﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾: اختلف العلماء في المراد بالعَود هنا[١]، فقال بعض العلماء: هذه الآيات من سورة الأنفال نزلت بعد وقعة بدر، والمعنىٰ ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾ للقتال كما فعلوا يوم بدر ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: طريقة الله فيما مضىٰ بين رسله وأتباعهم وبين الكفرة[٢].

قال بعض العلماء: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني الذين هلكوا منكم فقتلوا وأُسروا يوم بدر، مضت سنة الله فيهم، فأظهر عليهم نبيه، ونصره عليهم، فإن عدتم إلىٰ القتال أجرىٰ عليكم تلك السنة؛ لأنه لا تجد لسنة الله تبديلاً. وقال بعض العلماء: المراد بالأولين الأمم الماضية ممن قبلنا؛ لأن كل أمة كذبت رسولها وتمردت علىٰ ربها أهكلها الله (جل وعلا)، يعني: وإن تعودوا إلى ذلك الكفر والطغيان أهلككم كما فعل بجميع الأمم قبلكم ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۖ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٤٤] وهذان الوجهان في قوله ﴿سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سنة الله فيهم، وأصل السنة: الطريقة والشريعة، والشريعة في اللغة: الطريق، والشرائع: الطرق، وكون السنة هي الطريق الذي يُمشىٰ عليه، أمر معروف في كلام العرب، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلقته[٣]:

من معشر سنَّتْ لهم آباؤهم ولكلِّ قومٍ سنَّةٌ وإِمَامُها

أي: طريقة متبعة، وطريقة الله مع الكفرة أنهم إن كذبوا رسله

(١) انظر: ابن جرير (١٣/ ٥٣٦)، القرطبي (٧/ ٤٠٣).

(٢) المصدران السابقان.

(٣) شرح القصائد المشهورات (١/ ١٧٤).

وتمردوا عليه أهلكهم، كما نطقت به الآيات القرآنية بكثرة وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

وقال بعض العلماء: المراد بالعَوْد هنا: الاستمرار، أي: وإن يستمروا على ما هم عليه من الكفر فقد مضت سنة الأولين. وربما أطلقت العرب ابتداء الفعل على دوامه، مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: الآية ١] أي: استمر ودم على تقواه. هذان الوجهان في قوله: ﴿وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٨].

وأمر الله النبي ﷺ وأصحابه قال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: الآية ٣٩] (لا تكون) مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد (حتىٰ)، و (لا) النافية لا تمنع من ذلك النصب ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال أكثر العلماء[1]: المراد بالفتنة هنا: الشرك. أي: حتىٰ لا يبقىٰ شرك على وجه الأرض. ويدل لهذا المعنىٰ قوله بعده ــ يليه ــ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ لأن الدين لا يكون كله لله إلا إذا لم يبق على وجه الأرض شرك، فعندئذٍ يكون الدين كله لله. ويؤيد هذا المعنىٰ وهذا التفسير الذي دلت عليه القرينة القرآنية قوله ﷺ: «**أُمرت أن أُقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**»[2]. هذا هو الأظهر.

وجاء في صحيح البخاري في تفسير هذه الآية عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) ما يدل على أن المراد بالفتنة: فتنة الرجل عن دينه، كالمستضعف الذي إذا آمن حبسوه وأوثقوه، أو قتلوه حتىٰ يترك

(١) انظر: ابن جرير (١٣/ ٥٣٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

دينه[١]، يعني: قاتلوهم حتىٰ ينتشر الإسلام، وتنكسر شوكة الكفر، بحيث لا يقدرون على رد إنسان عن دينه، ولا قتل إنسان ولا ضربه ولا إيثاقه بسبب الإسلام؛ لأنهم كانوا في أول الإسلام يفتنون الضعفاء عن دينهم، فكان أمية بن خلف ــ قبحه الله ــ يعذب بلالاً فيضجعه في نهار الصيف في رمضاء مكة، فيضع الحجارة على صدره ويعذبه ليكفر بمحمد ﷺ، وهو يقول: أحد أحد. وكذلك أوذوا كثيراً، فقُتل في ذلك أبو عمار بن ياسر وأمه، وأما هو فلما أرادوا أن يفعلوا به ذلك وخاف القتل قال كل ما يريدون منه، فسب رسول الله ﷺ، وسيأتي ــ إن شاء الله ــ إيضاح قصته في الآية النازلة به في سورة النحل في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ الآية [النحل: الآية ١٠٦]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: الآية ٣٩] والقول الأول يدخل فيه هذا؛ لأنه إذا انتفىٰ الشرك لا يكون هناك كافر يفتن المسلمين عن دينهم، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ عن كفرهم وأسلموا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ فهو بصير بعملهم يجازيهم عليه، ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ [الأنفال: الآية ٤٠] أعرضوا ولم يرجعوا عن كفرهم ﴿فَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم عليهم، لا يحزنكم توليهم وإعراضهم وإصرارهم على الكفر، فالله مولاكم ناصركم

(١) البخاري في التفسير، باب ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾، حديث رقم: (٤٦٥٠)، (٨/ ٣٠٩)، وانظر: الحديث بعده رقم: (٤٦٥١).

عليهم، و (المولى) وزنه في الميزان الصرفي (مَفْعَل) من الولاية، والمولى في لغة العرب[١]: هو كل من ينعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويواليك؛ ولذا كثر إطلاق المولىٰ على ابن العم؛ لأن عصبية العمومة تجعله ينتصر لك وتنتصر له. وقد أطلق الموالي على العصبة في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: الآية ٣٣] العصبة الوارثون. ومنه قول الفضل بن العباس من ذرية أبي لهب[٢]:

مَهْلاً بني عَمِّنَا مَهْلاً مَوَالينا لا تظهروا لنا ما كان مَدْفُونَا

ومن هذا المعنى قول طرفة بن العبد[٣]:

وأَعْلَمُ عِلْماً لَيْسَ بالظنِّ أَنَّهُ إِذَا ذَلَّ مَوْلَى المرءِ فهو ذَلِيلُ

ولكون المولىٰ في لغة العرب يطلق على كل من بينك وبينه سبب موالاة يواليك بها وتواليه بها، وكثرت معانيه فأُطلق على بني العم، وعلىٰ العصبة، وعلى المعتَقِيْن، والمُعْتِقِين بالفتح والكسر، وعلى الناصر، وعلى الصاحب؛ لأن كلاًّ ينعقد بينك وبينه سبب، فلما انعقد بين الكفار وبين النار سبب يجعلهم يدخلونها، ويخلدون فيها، وهي تؤذيهم بحرها قال تعالىٰ: ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الحديد: الآية ١٥] فجعل النار مولاهم لانعقاد السبب بينهم وبينها بكفرهم،

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) البيت في الكامل للمبرد (٣/ ١٤١٠)، القرطبي (١١/ ٧٨)، الدر المصون (٧/ ٥٦٧)، وقائله هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب، من شعراء بني أُمية، وصدر الشطر الثاني: «لا تنبشوا بيننا».

(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.

وكونها دار الله التي يُعذب بها أعداءه، فهذا معنىٰ قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٠] وهذه ولاية نصر.

وقد أُطلقت الولاية في القرآن بالنسبة إلىٰ الله (جل وعلا) إطلاقين: أُطلق المولىٰ بمعنىٰ الولاية الخاصة، وهي: النصر والتمكين والتوفيق، كقوله هنا: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ [التحريم: الآية ٤] وهذا كثير في القرآن؛ ولذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد: الآية ١١] أي: لا مولى لهم ولاية نصر وتمكين. وأطلق المولىٰ صادقاً بالكفار؛ لأنها ولاية خلق وقدرة وربوبية وملك، وهو في قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ﴾ [الأنعام: الآية ٦٢] وهي في الكفار؛ لأنه مولى الكفار ولاية ملك وتصرف ونفوذ قدرة، ومولى المؤمنين ولاية نصر وتمكين وثواب. فهذا معنىٰ قوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾.

﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ (نعم) فعل جامد لإنشاء [المدح][(١)]. والتحقيق أنه فعل ماض جامد[(٢)]؛ لأن تاء التأنيث تدخل عليه:

نِعْمتْ جَزَاءُ المتقين الجنَّة دارُ الأَمَاني والمُنَى والمنَّة[(٣)]

خلافاً لمن زعم أن (نِعْم) اسم. قالوا: لأن أعرابياً قيل له: ولدت امرأتك بنتاً. فقال: ما هي بنعم الولد[(٤)]، فأدخل عليها حرف

---

(١) في الأصل: «الذم»، وهو سبق لسان.

(٢) انظر: شرح شذور الذهب ص ٢١، ضياء السالك (١/ ٤٠)، (٣/ ٩١).

(٣) البيت في شرح شذور الذهب ص ٢١.

(٤) انظر: ضياء السالك (١/ ٤٠)، (٣/ ٩١).

الجر الذي هو الباء، ودخول حرف الجر من علامات الاسم. والمحققون من علماء العربية: أن (نِعْم وبئس) فعلان ماضيان جامدان لإنشاء [المدح أو][1] الذم. قالوا: وقول الأعرابي: ما هي بِنِعْم الولد. وقول الآخر: نِعْمَ السَّير على بِئْسَ العَيْر[2]. محكي قول محذوف، أي: ما هي بولد مقول في جنسه نِعْم، نِعْمَ الولد.

وقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ (المولىٰ) فسرناه الآن، و (النصير): (فَعِيْلٌ) بمعنىٰ (فَاعِل)، بمعنىٰ الناصر، وأصل النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم، وتخليصه بالإعانة من الظلم، فالله (جل وعلا)، كأنه في هذه الآية بيَّن الثناء على نفسه، الثناء الكامل الذي يستحقه في ولايته لأوليائه، ونصره لهم.

قال بعض العلماء: بين (المولى) و (النصير) عموم وخصوص من وجه، يجتمع (المولىٰ) و (النصير) في بني عمك وعصبتك إذا كانت لهم قدرة على نصرك، وإعانتك على عدوك، فإذا جاء دونك بنو عمك وعصبتك ومنعوك من أعدائك، اجتمع فيهم أن كل واحد منهم مولى، وأنه نصير، وينفرد (المولى) عن (النصير) في قرابتك وعصبتك إذا كانوا ضعفاء، لا يقدرون علىٰ نصرتك، فالواحد منهم مولى وليس بنصير، إذ لا طاقة له على النصر، وينفرد (النصير) عن (المولىٰ) في الأجنبي الذي ليس بينك وبينه سبب ولاية إذا نصرك وأعانك ومنعك من عدوك، فهو نصير وليس بمولىٰ. وهذا واضح.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ

(١) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.
(٢) المصدر السابق.

وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ٤١، ٤٢].

يقول الله جل وعلا: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤١].

(اعلموا) معناه: تيقنوا؛ لأن العلم إذا أُطلق في القرآن معناه اليقين في جميع القرآن، وقد جاء في حرف في سورة الممتحنة إطلاق العلم مراداً به الظن الغالب، وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠] ﴿عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠] أي: غلب على ظنكم، ظناً قوياً مزاحماً لليقين، ولا يكاد العلم في غير هذا الموضع يُطلق في القرآن إلا مراداً به اليقين الجازم، الذي لا يخالجه ظن ولا وَهْمٌ ولا شك.

﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ (ما) موصولة، و (أن) مصدرية، أن الذي غنمتم من شيء، وصيغ الموصول قد تقرر في علم الأصول أنها من صيغ العموم[1]؛ لأن الموصول يعم كل ما تشمله صلته،

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

و ﴿مِن شَيْءٍ﴾ بيان للموصول، من شيء كائناً ما كان، إلا ما سنذكره مما أخرجه دليل مُخصِّص.

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ قراءة جماهير القراء، منهم السبعة: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ وفي بعض الروايات الضعيفة عن بعض السبعة: ﴿فإن لله خمسه﴾ وقد رواه الجعفي عن أبي عمرو[1]، أما الرواية التي عليها جمهور القراء، وهي رواية السبعة الصحيحة عنهم: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ وهنا محذوف دل عليه المقام: فحقه أن لله خمسه، أو: فواجب حتم أن لله خمسه. والخُمس معروف.

﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهذه الآية الكريمة من سورة الأنفال قد تضمنت أحكاماً كثيرة من أحكام الجهاد، ومن أحكام الغنائم[2]، وقد يحتاج لها المسلمون؛ لأنا نرجو الله (جل وعلا) أن يرفع علم الجهاد، ويقوي كلمة لا إله إلا الله، وأن تخفق رايات المسلمين في أقطار الدنيا، فيحتاجون إلى تعلم ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أحكام الجهاد، ولما كان القرآن العظيم هو مصدر جميع العلوم؛ لأنه الكتاب الذي حوىٰ جميع العلوم، وكانت أصول جميع الأشياء كلها فيه، أردنا هنا أن نبين جُملاً من الأحكام التي أشارت إليها هذه الآية الكريمة، ﴿۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ معناه: الذي غنمتم، وهي الغنائم التي يحوزها المسلمون من أموال الكفار إذا انتصروا عليهم فقهروهم، وأموال الكفار علىٰ قسمين[3]:

قسم: ينتزعه المسلمون منهم بالقوة والغلبة.

---

(١) انظر: البحر (٤/ ٤٩٩).

(٢) انظر: هذه التفاصيل في الأضواء (٢/ ٣٥١).

(٣) السابق (٢/ ٣٥٢).

وقسم: يصل إلى المسلمين من غير انتزاع بالقوة من أهله الكفار.

والاصطلاح المشهور عند الفقهاء أن بينهما فرقاً، أن الغنيمة هي ما ينتزعه المسلمون بالقوة من الكفار، أما ما ييسرُهُ الله للمسلمين بلا قتال فهو المُسمىٰ بـ(الفيء) وحكمهما مختلف علىٰ التحقيق الذي عليه جماهير العلماء ودل عليه القرآن؛ لأن الفيء هو المال الذي يناله المسلمون من الكفرة من غير أن ينتزعوه بالقوة، ولا أن يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب، كأموال بني النضير، فإنهم نزلوا على حكم النبي ﷺ، ومكنه الله من أموالهم من غير أن تنتزع منهم بالقوة، وقد سمح لهم النبيّ ﷺ أن يحملوا علىٰ الإبل ما قدروا أن يحملوه، واستثنىٰ السلاح كما ستأتي تفاصيله في سورة الحشر؛ لأنها كلها نزلت في قصة بني النضير، هذا هو الفيء، وهو المذكور في سورة الحشر، وقد نص الله في سورة الحشر علىٰ أن مصارفه هي مصارف خُمس الغنيمة؛ لأنه قال هنا: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وقال هناك: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ فبيّن بقوله: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: الآية ٦] الفرق بين الفيء والغنيمة؛ لأنه مال لم تنتزعوه بالقوة والسلاح من أهله، ولم تسرعوا في انتزاعه علىٰ الخيل والركاب التي هي الإبل. ثم قال مبيناً مصارفه وأنها هي مصارف الخُمس: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: الآية ٧] مثل ما ذكر هنا في مصارف الخُمس سواء بسواء، وشذ بعض العلماء فقال: إن الفيء والغنيمة سواء. وهذا القول

مشهور عن قتادة وطائفة من العلماء، وهو قول وإن كانت تساعده اللغة فالشرع والحقيقة الشرعية لا تساعده؛ لأن العرب تُطلق في لغتها الفيء علىٰ جميع ما يُغنم، وهو معنىٰ معروف في كلامها، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي أخي كليب[1]:

فلا وأبي جليلة ما أفأنا ... من النعم المؤبل من بعير
ولكنا نهكنا القوم ضرباً ... على الأثباج منهم والنحور

يعني: لم نشتغل بالغنائم، وإنما اشتغلنا بقتل الرجال.

وربما أُطلق الفيء في القرآن مراداً به كل غنيمة، كقول قتادة، وذلك في قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٠] لأن المسبيات حكمها في هذا سواء، سواء كانت فيئاً أو غنيمة، إلا أن الاصطلاح المعروف هو التفرقة بين ما أُوجف عليه بالخيل والركاب، وبين ما أُخذ عفواً من غير انتزاع بالقوة، كما قال هنا: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ فبيّن أنهم غنموه وانتزعوه منهم قهراً، وقال في الآخر الذي هو الفيء: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: الآية ٦] فكيف تستحقونه ولم تنتزعوه بالقوة، ولم توجفوا عليه بالخيل ولا الإبل؟!

والإيجاف: الإسراع كما هو معروف.

---

(١) البيتان من قصيدة يرثي فيها أخاه كليباً، ونص البيتين كما في ديوانه ص ٤١، وفي «شعراء النصرانية قبل الإسلام» ص ١٧٠ هكذا:

فلا وأبي أُميمة ما أبوها ... من النعم المؤثل والجزور
ولكنا طعنا القوم طعنا ... على الأثباج منهم والنحور

والبيتان ذكرهما الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٢/ ٣٥٣) كما هنا.

وهذه الآية الكريمة دلت علىٰ أن أربعة أخماس الغنيمة [أنه][(١)] للمجاهدين الغانمين الذين غنموها؛ لأن قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية يدل علىٰ أن المعنىٰ: وأما الأخماس الأربعة فهي للغانمين المجاهدين، ويدل علىٰ ذلك إسناده غنيمته إليهم في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ وهذا هو التحقيق، وعليه جماهير العلماء، أن أربع أخماس الغنيمة للمسلمين المجاهدين الذين غنموها، تُقسم بينهم بالسواء، وأن خُمس الغنيمة هو يُصرف في هذه المصارف المذكورة وسنوضحها ــ إن شاء الله ــ واحداً واحداً. هذا هو المذهب الحق وعليه جماهير العلماء، وخالف في هذا قوم من العلماء ــ منهم طائفة من علماء المالكية وغيرهم[(٢)] ــ قالوا: إن الغنائم كلها والفيء شيء واحد، وأن التصرف فيه كله لرسول الله ﷺ يعطي الغانمين ما شاء ويمنعهم ما شاء. وهذا القول وإن قال به جماعة من المالكية وغيرهم من العلماء فهو خلاف التحقيق.

والذين قالوا هذا القول استدلوا بأدلة كلها مردودة مجاب عنها، قالوا: من أدلته أن الغنائم هي الأنفال، وقد تقدم في أول السورة قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: الآية ١] فصرح بأنها لله وللرسول ﷺ ولم يجعل للغانمين فيها حقاً مستقلاً إذا لم يشأ الرسول ﷺ أن يعطيهم. قالوا: ويتأيد هذا بأمور، منها: أن النبي ﷺ لم يقسم مكة حين افتتحها عنوة، وأنه (صلوات الله وسلامه عليه) في غزوة حنين لما أخذ غنائم هوازن أعطىٰ صفوان بن أمية ما ملأ بين جبلين من الغنم، وأعطى عيينة بن حصن مائة من

(١) في الأصل: «أنهم».

(٢) انظر: المغني (٩/ ٣٠٤)، القرطبي (٨/ ٢)، الأضواء (٢/ ٣٥٤).

الإبل، والأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطىٰ عطايا كثيرة، ولم يعط الأنصار منها شيئاً، حتى غضب الأنصار وقالوا: يعطي الغنائم عنا لقريش وسيوفنا تقطر من دمائهم!! فعلم النبي ﷺ بما قالوا فأرسل مَنْ جمعهم وقال: «**ألم أجدكم متعادين فألف الله بين قلوبكم بي؟!**» قالوا: بلىٰ. قال: «**ألم أجدكم علىٰ شفا حفرة من النار فأنقذكم الله منها بي؟**» قالوا: بلىٰ يا رسول الله ـ ﷺ ـ . فلما عدّد عليهم بعض النعم التي أنعم الله عليهم بسبب رسول ﷺ اعترفوا بذلك كله وسكتوا، قال لهم: «**ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟!**» قالوا: وكيف نجيب رسول الله ﷺ؟؟! قال: «**قولوا: ألم يكذبك الناس فصدقناك؟ ألم يُعادك الناس فآويناك ونصرناك؟!**» ثم قال: «**يا معشر الأنصار ألا ترضون بأن يرجع الناس إلى بيوتهم بالشاة والبعير، وترجعون إلى بيوتكم برسول الله ﷺ؟**» قالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمة. وطابت نفوسهم[1]. قال قائل هذا القول من المالكية وغيرهم من العلماء كقتادة: لو كانت الغنيمة مستحقة للغانمين ولم يكن للإمام أن يفعل فيها كيف يشاء، كيف يفضّل النبي ﷺ المؤلفة قلوبهم كالأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وصفوان بن أمية ويمنع الأنصار، والأنصار أحق؟! وكيف يفضّل الأقرع بن حابس التميمي،

---

(١) أصل هذا الخبر في البخاري، (من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه) كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، حديث رقم: (٤٣٣٠)، (٨/ ٤٧)، وأخرج بعضه برقم: (٧٢٤٥)، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام. . .، حديث رقم: (١٠٦١)، (٢/ ٧٣٨)، ومن حديث أنس عند مسلم في نفس الكتاب والباب، حديث رقم: (١٠٥٩)، (٢/ ٧٣٣ ـ ٧٣٧)، وأخرجه أحمد (٣/ ٧٦) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وعيينة بن حصن الفزاري علىٰ العباس بن مرداس السلمي وهو حسن الإسلام جداً؟! وقد غار منهم العباس بن مرداس حتىٰ قال شعره المشهور، قاله أمام النبي ﷺ لما أعطىٰ عُيينة مئة، والأقرع مئة، وأعطىٰ العباس بن مرداس قليلاً، قال: مخاطباً لرسول الله ﷺ[1]:

أتجعل نهبي ونهب العُبيدِ ... بين عُيينةَ والأقْرعِ
وما كان حصن ولا حابس ... يفوقَانِ مرداسَ في مجمعِ
وما كنت دون امرىء منهما ... ومن تضعِ اليومَ لا يُرفعِ
وقد كنت في الحرب ذا تُدْرَإٍ ... فلم أُعطَ شيئاً ولم أُمنعِ
وإلا أباعيرَ أُعطيتُها ... عديدَ قوائمه الأربعِ
وكانت نِهَاباً تلافيتُها ... بكَرِّي على المُهْرِ في الأجْرَعِ
وإيقاظيَ القومَ أن يرقُدُوا ... إذا هَجَعَ الناسُ لم أهجَعِ

إلى آخر شعره. قالوا: لو كانت الغنيمة للغانمين لما فضل الأقرع وعيينة على العباس بن مرداس وهو أحسن منهما إسلاماً، ولما

---

(١) جاءت هذه الأبيات في روايات متعددة على تفاوت بينها في بعض الألفاظ مع زيادة في بعض الأبيات، ففي صحيح مسلم (١٠٦٠) وغيره الاقتصار على الأبيات الثلاثة الأولى، وبعضهم يزيد رابعاً، وأكثر ما وقفت عليه سبعة أبيات وهي عند ابن هشام في السيرة، وفي سُبل الهدى والرشاد (٥/ ٣٩٩) هكذا:

كَانَتْ نِهَاباً تَلاَفَيْتُهَا ... بِكَرِّي عَلَى الْمُهْرِ فِي الأَجْرَعِ
وَإِيْقَاظِيَ الْقَوْمَ أَنْ يَرْقُدُوا ... إِذا أَهْجَعَ النَّاسُ لَمْ أَهْجَعِ
فَأَصْبَحَ نَهْبِي وَنَهْبُ الْعُبَيْـ ... ـدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ
وَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَرْبِ ذَا تُدْرَإٍ ... فَلَمْ أُعْطَ شَيْئاً وَلَمْ أُمْنَعِ
وَإِلاَّ أَفَائِلَ أَعْطَيْتُهَا ... عَدِيدَ قَوَائِمِهَا الأَرْبَعِ
وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلاَ حَابِسٌ ... يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي الْمَجْمَعِ
وَمَا كُنْتُ دُونَ امْرِىءٍ مِنْهُمَا ... وَمَنْ تَضَعِ اليَوْمَ لاَ يُرْفَعِ

فضل المؤلفة قلوبهم على الأنصار وهم أحسن منهم إسلاماً. قالوا: فعطايا النبي هذه ــ ﷺ ــ كما أعطى من مئات الإبل، وأعطىٰ من الورق والرقيق، وأعطىٰ صفوان بن أمية ما ملأ بين جبلين من الغنم، قالوا: هذا يدل على أن الغنيمة ليست استحقاقاً محضاً للغانمين، وإنما يفعل الإمام فيها ما يشاء، قالوا: وكذلك لما فتح مكة لم يغنم أموال أهل مكة، ولم يقسم دورها ولا أرضها [فلو كان قَسْمُ الأخماس الأربعة على الجيش واجباً لفعله ﷺ لما فتح مكة. قالوا: وكذلك غنائم هوازن في غزوة حنين، أعطى منها عطايا عظيمة جداً للمؤلفة قلوبهم. وأجاب الجمهور عن كونه ﷺ][1] / أعطى المؤلفة [٤/ب] قلوبهم، وأعطىٰ عيينة مئة، والأقرع مئة، وصفوان ما ملأ بين جبلين غنماً ونحو ذلك من العطايا، أنه فعل ذلك بعدما استطاب نفوس الغانمين عنه، وأن الغانمين طابت له نفوسهم بذلك للمصلحة العامة، وهي تأليف قلوب الرجال الذين لهم شوكة عظيمة وأتباع كثيرون ليقوىٰ بهم الإسلام، وقد فعل ذلك برضا الغانمين وطيب أنفسهم عن ذلك له ﷺ، أما عدا كونه لم يقسم دور مكة ورباعها فقد أجاب عنه الشافعي (رحمه الله) جواباً لكنه غير ناهض بالحقيقة والإنصاف[2]؛ لأن الشافعي (رحمه الله) مع جلالته وعلمه يرى أن مكة المكرمة ــ حرسها الله ــ أنها فتحت صلحاً لا عنوة، ويظن أن قوله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن ألقىٰ السلاح فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وتم استيفاء النقص من كلام الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٢/ ٣٥٥) وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) انظر: الأضواء (٢/ ٣٥٦).

آمن»[١]. يظن أنها نوع صلح أو شبه صلح، والتحقيق الذي لا شك فيه: أن مكة ــ حرسها الله ــ إنما فُتحت عنوة وقهراً بالسيف لا صلحاً، وتأمين النبي ﷺ لبعض الناس لا يقتضي الصلح؛ لأن الصلح أمر عام. والدليل على أنها فتحت عنوة أمور كثيرة وأدلة واضحة لا لبس فيها[٢]، منها: ما ثبت في صحيح مسلم وغيره من وقوع القتال فيها يوم فتح مكة؛ لأن النبي ﷺ جعل خالد بن الوليد يوم فتح مكة على المُجَنِّبَة اليمنىٰ، وجعل الزبير بن العوام على المُجَنِّبَة اليسرىٰ، وجعل أبا عبيدة على الحُسَّر[٣] وأخذوا بطن الوادي، ولم يتلقهم أحد إلا أناموه، فقتلوا من قريش قوماً كما هو معروف. وهذا ثابت في الصحيح وغيره، ورجز حماس بن قيس المشهور يدل على ذلك؛ لأن حِمَاس بن قيس هذا رجل حليف لقريش، وكان يقول لزوجته: إنه يجعل لها أزواج رسول الله ﷺ خدماً، وكان يقول لها: إذا جئتك فارّاً فأغلقي الباب دوني، وكان يرتجز ويقول[٤]:

إنْ يُقْبِلُوا اليَومَ فما لي عِلَّهْ هَذَا سِلَاحٌ كَامِلٌ وأَلَّهْ
وذُو غِرَارَينِ سَرِيعُ السَّلَّهْ

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب فتح مكة، حديث رقم: (١٧٨٠)، (٣/ ١٤٠٥) من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، وأخرجه أبو داود في الخراج والإمارة، باب ما جاء في خبر مكة، حديث رقم: (٣٠٠٥، ٣٠٠٦)، (٨/ ٢٥٦، ٢٥٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٥)، زاد المعاد (٣/ ٤٢٩)، الأضواء (٢/ ٣٥٦، ٣٧٣).

(٣) وهم الذين لا دروع لهم.

(٤) الأبيات في ابن هشام ص ١٢٤٩، الأضواء (٢/ ٣٧٥).

وكان يوم فتح مكة اجتمع مع الجماعة الذين جاءهم خالد بن الوليد، فرأىٰ القتل وجاءها منهزماً، فقالت له: أين الذي كنت تقوله أنك تُخدمني نساءهم، وأني أغلق الباب دونك؟! فقال لها رجزه المشهور، وهو معروف عند علماء التاريخ وأصحاب المغازي[1]:

إنَّكِ لو شَهِدتِ يومَ الخَنْدَمَهْ إذ فرَّ صفوانُ وفرَّ عِكْرِمَهْ
واسْتَقْبَلَتْنا بالسيوفِ المسلمه لهم نَهِيتٌ خَلفنَا وهَمْهَمَه
يَقْطَعْنَ كلَّ سَاعِدٍ وجُمجُمه ضرباً فلا تسمع إلا غمغمه
لم تنطقي باللَّومِ أدنى كَلِمَه

وهذه الأدلة وغيرها تدل على أن مكة فُتحت عنوة لا صلحاً. ومن الأدلة على ذلك: ما ثبت في الصحيح أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) أمر بقتل مقيس بن صبابة، وابن خَطَل، وجاريتين معهما، ولو وُجدوا متعلقين بأستار الكعبة. ولو كانت مكة صلحاً لما أمر بقتل مقيس بن صبابة، وابن خَطَل، والجاريتين المذكورتين معهما[2]، كما هو ثابت معروف، ومما يدل على أنها فتحت عنوة ما

---

(١) تقدمت هذه الأبيات، ونصها في ابن هشام ص ١٢٥٠:

إنك لو شهدت يوم الخندمه إذ فر صفوان وفر عكرمه
وأبو يزيد قائم كالمؤتمه واستقبلتهم بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمه ضرباً فلا يُسمع إلا غمغمه
لهم نَهِيْتٌ خلفنا وهمهمه لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه

(٢) البيهقي في الدلائل (٥/٥٩)، وابن سعد في الطبقات (٢/١/٩٨)، وذكره ابن هشام في السيرة ص ١٢٥١، وابن القيم في الزاد (٣/٤١١)، وابن كثير في تاريخه (٤/٢٩٧ ـ ٢٩٩) وأخرج الشيخان من حديث أنس (رضي الله عنه): =

ثبت في الصحيح عن أم هانىء أنها أجارت رجلاً من أحمائها بني مخزوم؛ لأن زوجها هبيرة بن أبـي وهب المخزومي، أجارته وجعلت له الأمان، فجاءه علي ابن أبـي طالب (رضي الله عنه) ليقتله، فشكته إلـى النبـي ﷺ، فقـال ﷺ: «**أجرنـا مـن أجـرت يـا أم هـانـىء**»[1] فلو كانت مكة مفتوحة صلحاً لما أخذ علي السيف ليقتل المخزوميين الذين أجارتهما أخته أم هانىء (رضي الله عنها)، إلى غير ذلك من الأدلة.

ولكن التحقيق أن الأرض المغنومة لها حكم خاص سنبينه الآن؛ لأن الغنيمة أقسام[2]، منها: ما هو كالذهب والفضة والحيوان، وهذا لا خلاف عند من يُعْتَدُّ به من العلماء أنه يُقسم ويُخمَّس، أما أرض العدو التي فتحها المسلمون فللعلماء فيها أقوال[3]: فبعض العلماء يقول: عندما يستولي عليها المؤمنون تصير وقفاً عاماً للمسلمين. وهذا مذهب مالك (رحمه الله) وجماعة من العلماء.

= «أن رسول الله ﷺ دخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه جاء رجل فقال: إن ابن خَطَل متعلق بأستار الكعبة، فقال: «اقتلوه». البخاري في جزاء الصيد، باب دخول مكة بغير إحرام، حديث رقم: (١٨٤٦)، (٤/ ٥٩) وأطرافه: (٣٠٤٤، ٤٢٨٦، ٥٨٠٨)، ومسلم في الحج، باب جواز دخول مكة بغير إحرام، حديث رقم: (١٣٥٧)، (٢/ ٩٨٩).

(١) البخاري في الصلاة، باب الصلاة في الثوب الواحد ملتحفاً به، حديث رقم: (٣٥٧)، (١/ ٤٦٩)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى. . .، حديث رقم: (٣٣٦)، (١/ ٤٩٨).

(٢) انظر: القرطبي (٨/ ٤)، الأضواء (٢/ ٣٦٧).

(٣) القرطبي (١٨/ ٢٢ ـ ٢٣)، الأضواء (٢/ ٣٦٧).

obeikandi.com

وبعض العلماء يقول: يجب قسم الأرض المغنومة كما قسم النبي ﷺ أرض خيبر وأرض بني قريظة.

وجماعة من العلماء قالوا: الإمام مخير في ذلك، إن رأىٰ المصلحة في قَسْمِها قَسَمَها، وإن رأىٰ المصلحة في إبقائها وقفاً للمسلمين تركها وقفاً للمسلمين، فإذا اقتضىٰ نظر الإمام أن يقسمها قسمها وكانت مملوكة للغانمين، وكانت أرض عشورٍ لا أرض خراج، وإن رأىٰ الإمام أن يتركها لعامة المسلمين خزانة لهم ــ كما هو رأي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ــ تركها وقفاً للمسلمين، وكانت أرض خراج لا أرض عشور، يؤخذ الخراج ممن هو يستغلها ويكون لعموم المسلمين. وهذا المذهب بالتخيير هو الحق ــ إن شاء الله ــ والنبي ﷺ اختار أن يقسم أرض قريظة وأرض خيبر، واختار أن يترك قسمة دور مكة. وقد فهم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من فعل النبي ﷺ أن الأرض التي غنمها المسلمون واحتلوا بلادها بالقوة أن الإمام مخير فيها، فَهِمَ ذلك من فعل النبي ﷺ؛ ولذا ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «لولا آخر المسلمين لما فُتحت علي قرية إلا قسمتها على الغانمين كما قسم رسول الله ﷺ أرض خيبر»[1]. وعمر لم يفعل هذا الصنيع متهجماً على كتاب الله في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ الآية [الأنفال: الآية ٤١]. وإنما فهم من فعل رسول الله ﷺ التخيير في ذلك، وكلامه صريح في أنه يعتقد أنه مخير؛ لأنه قال: «لولا آخر المسلمين لما فُتحت علي قرية إلا قسمتها كما قسم النبي ﷺ أرض خيبر» وهذا فيه مصلحة عظمىٰ؛

(١) البخاري في فرض الخمس، باب الغنيمة لمن شهد الوقعة، حديث رقم: (٣١٢٥)، (٦/ ٢٢٤).

لأن الغانمين لو قسموا الأرض عندما غنموها فإن آخر المسلمين يكونون لا غلة لهم، ويكون الإسلام وجيوش الإسلام والأموال التي يحتاج بها لحماية بيضة الإسلام وقمع الكفار وإقامة الجهاد يكون ذلك لا يوجد له شيء، فوجود تلك الأرضين الكثيرة لها خراج كثير عظيم يستعين به المسلمون على شراء السلاح، وتهيئة الجيوش، وتعبئة الرجال للقتال في سبيل الله (جل وعلا)، أن هذا هو المصلحة؛ ولأجل تخيير الإمام لم يقسم النبي ﷺ مكة، وقد ثبت أن النبي ﷺ قسم بعض خيبر ولم يقسم بعضها، قال بعض العلماء: البعض من خيبر الذي لم يقسمه رسول الله ﷺ إنما ترك قسمه لهذا الاختيار؛ لأنه مخير في القسم والإبقاء. والصحيح أن الذي لم يقسمه من أرض خيبر كان فيئاً؛ لأن بعض البساتين وبعض الأطراف من خيبر كانوا لم يُفتحوا ولم يؤخذوا عنوة ولم يُوجف عليهم بالخيل والركاب، فلما أُخذت قريظة نزلوا على حكم النبي ﷺ من غير أن يُؤخذوا بالقهر فكان فيئاً، وسمع بهم أهل فدك ففعلوا كذلك، فكانت فدك فيئاً للنبي ﷺ، هي وذلك البعض من قريظة. ومعلوم أن فدك وبعض قريظة كانا من الفيء الخالص لرسول الله ﷺ، وقد طلبته فاطمة (رضي الله عنها) أن يقطعها فدك فأبىٰ، وأقطعها أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) لمروان بن الحكم ظناً منه (رضي الله عنه وأرضاه) أن ما كان للنبي ﷺ ينتقل الحق فيه لولي أمر المسلمين بعده، وأن ذلك انتقل إليه، وأنه غني عنه بأمواله فوصل به بعض قُرَبَائه، وهو ابن عمه مروان بن الحكم رضي الله عن عثمان وأرضاه وعن جميع أصحاب النبي ﷺ[1].

(١) انظر: الأضواء (٢/ ٤١٢).

وحاصل هذا أن التحقيق الذي لا شك فيه ــ إن شاء الله ــ أن الأموال المغنومة التي انتزعها المسلمون من الكفار أنها نوعان: الأرض، وغير الأرض. أما الأرض فلا يتعين قسمها بينهم، والإمام مخير فيها، فإن رأىٰ مصلحة المسلمين في قَسْمِها قَسَمَها، وإن رأىٰ مصلحة المسلمين في إبقائها وقفاً عليهم أبقاها وقفاً ينتفع بها آخر المسلمين. قال بعض العلماء: والقرآن يشير لهذا؛ لأنه لو لم يكن يبقىٰ لآخر المسلمين شيئاً لما قال الله في المستحقين: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ [الحشر: الآية ١٠] لأنه قال أولاً: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾ [الحشر: الآيات ٨ ــ ١٠] وقال بعض العلماء: لا دليل للغنيمة في آية الحشر هذه؛ لأنها في الفيء، وقد أفتىٰ مالك بن أنس (رحمه الله) أن الذين يسبون أصحاب رسول الله ﷺ أنهم لا حق لهم في فيء المسلمين، ولما نُوقش في ذلك قال: «هؤلاء الذين سَبُّوا أصحاب رسول الله ﷺ لا حق لهم في فيء المسلمين؛ لأن الله لما ذكر الذين يعطون فيء المسلمين من الأصناف قال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أهؤلاء من الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم؟» قالوا: لا. قال: «أهم من الذين قيل فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾» قالوا: لا. قال: «وأنا أشهد أنهم ليسوا من الصنف الثالث الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بل هؤلاء جاؤوا يسبونهم ويعيبونهم فليسوا منهم قطعاً، فتبين

أنهم لا حق لهم»[١].

وعلى كل حال فجميع المال المغنوم يقسم بين الغانمين، والأرض فيها للعلماء ثلاثة مذاهب معروفة كل واحد منها لصاحبه عليه أدلة[٢]:

أحدها: أنها تكون غنيمة وتقسم، وهو مذهب الإمام الشافعي، واستدل بعموم قوله: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: الآية ٤١].

وكان مالك بن أنس (رحمه الله) يرىٰ أن أرض الكفار عندما يفتتحها المسلمون تصير بمجرد استيلاء المسلمين عليها وقفاً للمسلمين آخرهم يستوون فيها جميعاً لمصلحة الإسلام العامة، وللإعانة على تعبئة الجيوش، والرد عن بيضة الإسلام، والدفاع عن المؤمنين في المستقبل.

وقوم قالوا: يخير الإمام إن رأى قَسْمها مصلحة قَسمها. وهذا مذهب الإمام أحمد، ويُروى عن أبي حنيفة نحوه والله تعالىٰ أعلم. وهذا القول بالتخيير هو أقواها دليلاً؛ لأنه تنتظم به الأقوال، وتجتمع به النصوص، والجمع واجب إذا أمكن. أما الأخماس الأربعة من

---

(١) استنباط مالك (رحمه الله) ذكره القرطبي في التفسير (١٨/ ٣٢) ونصه: «من كان يُبغض أحداً من أصحاب محمد ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غل فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ...﴾»، وهو في ابن كثير (٤/ ٣٣٩). أما المحاورة التي أوردها الشيخ (رحمه الله) فقد أورد نحوها السيوطي في الدر (٦/ ١٩٨) عن ابن عمر (وليس في موضوع الفيء)، وأورد القرطبي (١٨/ ٣٢) نحوها عن علي بن الحسين كذلك (وليس في موضوع الفيء).

(٢) انظر: الأضواء (٢/ ٣٦٧).

الأرض المقسومة إذا اقتضى نظر الإمام أن يقسمها أو من غير الأرض كالذهب والفضة والخيل والإبل ونحو ذلك، أما هذه الأخماس الأربعة فهي للغانمين تقسم بينهم.

واختلف العلماء: هل يجوز للإمام أن ينفل من هذه الأخماس الأربعة شيئاً؟[١] فكان مالك بن أنس رحمه الله ــ إمام دار الهجرة ــ يرىٰ أن الإمام لا يجوز له أن ينفل شيئاً من هذه الأخماس الأربعة، وإنما ينفل من الخمس الذي قال الله فيه أنه لله وللرسول ولذي القربىٰ إلى آخر مصارفه.

وذهبت جماعة من العلماء إلى أن للإمام التنفيل منه. وكون الإمام له التنفيل منه هو الحق ــ إن شاء الله ــ الذي قامت عليه النصوص الذي لا تكاد تدفع.

وتنفيل الإمام من الأخماس الأربعة التي هي للمجاهدين يكون على أنواع، منها: أن ينفل السرايا ويقول للسرية: اخرجي إلى أرض الكفار فما غنمت فقد نفلتك منه كذا، وقد جاء حديث ثابت عن النبي ﷺ أنه نفل السرايا في البدء الربع، وفي العودة الثلث. هذا حديث ثابت رواه مكحول[٢] عن حبيب بن مسلمة[٣]، وهو صحابي،

---

(١) السابق (٢/ ٣٥٧).

(٢) الحديث من رواية مكحول عن زياد بن جارية عن حبيب بن مسلمة.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٩، ١٦٠)، والدارمي (مع شيء من المغايرة في اللفظ والمعنى) (٢/ ١٤٧)، وأبو عبيد في الأموال ص ٢٨٩، والحميدي (٢/ ٣٨٤)، وأبو داود في الجهاد، باب فيمن قال: الخمس قبل النفل، حديث رقم: (٢٧٣٣)، (٢/ ٤٢٤)، وابن ماجه في الجهاد، باب النفل، حديث رقم: (٢٨٥٢)، (٢/ ٩٥١)، وابن حبان (الإحسان ٧/ ١٦١)، والحاكم (٢/ ١٣٣)، =

obeikandl.com

لا تابعي صغير[١]، ورواه بعضهم عن عبادة بن الصامت ــ رضي الله عنه[٢] ــ وهو ثابت، ومعنىٰ تنفيل الربع في البدءة وتنفيل الثلث في العودة: أن للإمام إذا كان المسلمون متوجهين إلى أرض الكفار أن يقول للسرية: اذهبوا إلى الكفار فما غنمتم منهم فقد نفلتكم ربعه. ولا ينفلهم أكثر من الربع، فيكون الربع خالصاً لهم، والباقي هم والمسلمون فيه سواء. وأما تنفيل الثلث في العودة: أن المسلمين إذا رجعوا من أرض الكفار ــ رجعوا من الغزو إلى بلادهم ــ فيجوز للإمام أن ينفل بعض السرايا في ذلك الوقت الثلث. والفرق بين البدءة والعودة: أن البدءة الكفار في غفلة، والمسلمون متوجهون لبلادهم فخبرهم أهون، وأما في الرجعة فالكفار في حذر ويقظة والمسلمون منصرفون عن بلادهم، فقضيتهم أصعب؛ ولذا نفل أكثر في الحالة الصعبة من الحالة التي هي أقل صعوبة[٣]. هذا ثابت ولا ينبغي أن يُختلف فيه، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله[٤].

= (٣/ ٣٤٧، ٤٣٢)، وابن الجارود (٣/ ٣٣٤)، وانظر: صحيح أبي داود (٢/ ٥٢٥)، صحيح ابن ماجه (٢/ ١٣٩).

(١) انظر: الإصابة (١/ ٣٠٩)، الأضواء (٢/ ٣٨٥).

(٢) أخرجه الدارمي (٢/ ١٤٧)، وأبو عبيد في الأموال ص ٢٩٠، والترمذي في السير، باب ما جاء في النفل، حديث رقم: (١٥٦١)، (٤/ ١٣٠)، وقال: «وفي الباب عن ابن عباس، وحبيب بن مسلمة، ومعن بن يزيد، وابن عمر، وسلمة بن الأكوع، وحديث عبادة حديث حسن». اهـ، وانظر: ضعيف الترمذي ص ١٨٤.

(٣) انظر: الأضواء (٢/ ٣٨٦).

(٤) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/ ١١١)، مسائل ابن هانىء (٢/ ١٠٥)، المغني (١٣/ ٥٣).

وهذا الذي ذكرنا يدل على أن الجيوش إذا خرجت للقتال في بلاد الكفر، وذهبت سرية وغنمت شيئاً، أن الجيش كله شركاء لهم في ذلك الذي غنموه، ولا يختص به دونهم، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء؛ لأن العلماء مجمعون على أن جميع الجيش معهم فيما غنموا إلا ما نفلهم الإمام من ربع في البدءة أو ثلث في العودة.

ومن أنواع التنفيل الجائزة للإمام الثابتة عن النبي ﷺ: أن يرسل الإمام سرية ثم ــ مثلاً ــ يعطيهم أنصباءهم من الغنيمة وينفلهم ما شاء، فقد ثبت في الصحيحين عن ابن عمر (رضي الله عنه) أنه أرسله النبي ﷺ مع سرية قبل نجد، فغنموا، وكانت سهمانهم اثني عشر بعيراً، اثني عشر بعيراً، ونُفِّلوا بعيراً بعيراً[1]، فنفلهم نصف السدس؛ لأن الواحد من الاثني عشر نصف نصف سدسها. وهذا ثابت عن النبي ﷺ.

ومن أنواع التنفيل التي تجوز للإمام: أن ينفل بعض الجيش المقاتلين، ويعطيه شيئاً خاصاً لقوته وشدته على المشركين[2]، وقد قدمنا حديث سعد بن أبي وقاص الدال على هذا في أول سورة الأنفال؛ لأن سعد بن أبي وقاص قُتل أخوه عمير بن أبي وقاص يوم بدر، قتله عمرو بن عبد ود العامري، ثم إن سعداً (رضي الله عنه)

---

(١) البخاري في فرض الخمس، باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين، حديث رقم: (٣١٣٤)، (٦/ ٢٣٧)، وأخرجه في موضع آخر برقم: (٤٣٣٨).

ومسلم في الجهاد والسير، باب الأنفال، حديث رقم: (١٧٤٩)، (٣/ ١٣٦٨).

(٢) انظر: الأضواء (٢/ ٣٨٦).

حمل [على][(١)] المشركين، وقتل العاص بن هشام[(٢)]، وأخذ سيفه، وكان من أجود السيوف، فطلب النبي ﷺ أن ينفله إياه وفي بعض روايات حدَيثه الثابتة أنه قال: ربما أعطاه النبي ﷺ لرجل لم يُبل بلائي. والنبي ﷺ منعه أولاً ثم أعطاه إياه آخراً، وقد ثبت في صحيح مسلم والبخاري أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يأكلون جالسين في بعض مغازيهم، حتىٰ جاءهم أعرابي على بعير، فقيد بعيره وجلس يأكل معهم، ونظر إليهم حتىٰ اطلع على غراتهم وعوراتهم، وهو جاسوس للعدو من المشركين، ثم ذهب يشتد، فجلس على بعيره وأثاره، فسار بعيره سيراً حثيثاً، فكاد أن يفوت الصحابة، فجرىٰ عليه رجل بناقة فلم تدركه، فجرىٰ عليه سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) وكان من السابقين على أرجلهم، وقد ضرب له النبي ﷺ سهمين في غزوة (ذي قرد) كما هو معروف، فذهب سلمة يشتد في أثره حتىٰ جاوز الناقة، ثم كان عند ورك البعير، ثم تقدم فأخذ بخطامه وأناخه، واخترط سيفه وضرب الأعرابي على الرأس فقتله، فقال النبي ﷺ: «**من قتل الرجل؟**» قالوا: سلمة بن الأكوع. قال: «**له سلبه أجمع**»[(٣)]. فنفله إياه لأنه أدركه وهو في غاية الخفّة والسرعة، أدركه على رجليه فنفله سلبه.

---

(١) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٢) مضى عند تفسير الآية الأولى من هذه السورة، وراجع التعليق عليه في الحاشية هناك.

(٣) مسلم في الجهاد، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، حديث رقم: (١٧٥٤)، (٣/ ١٣٧٤).

ومن أنواع التنفيل الجائزة[١]: قول النبي ﷺ: «**من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه**»[٢]. وهذا قاله النبي ﷺ فثبت عنه في الصحيح يوم حنين. وذكر بعض العلماء أنه قاله يوم بدر أيضاً.

وكان مالك بن أنس (رحمه الله) يقول: ليس للإمام أن يقول هذا إلا بعد أن تنتهي المعركة، أما قبل انتهاء المعركة فلا يجوز للإمام أن يقول هذا؛ لأنه إن قال هذا قبل انتهاء المعركة أفسد نيات المجاهدين؛ لأن المجاهد يكون يقاتل الرجل ليأخذ سلبه فيكون يقاتل للدنيا لا لإعلاء كلمة الله، أما بعد أن تنتهي المعركة ويزول هذا المحذور فلا بأس أن يقول الإمام: من قتل قتيلاً فله سلبه. لأنه في ذلك الوقت لا محذور فيه من إفساد النية[٣]. وجماهير العلماء على أنّه لا مانع من أن يقول ذلك ابتداءً؛ لأن المسلمين وإن كان لهم رغبة في الغنيمة فكل من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله كما قاله ﷺ. وقد قال النبي ﷺ يوم حنين: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**»[٤]. والذي قتل هذا القتيل يكون له سلبه.

واختلف العلماء: هل يكون له سلبه دون تنفيذ الإمام، أو لا يملك السلب إلا إذا نفذه له الإمام[٥]؟ قولان معروفان بين

---

(١) انظر: الأضواء (٢/ ٣٨٧).

(٢) البخاري في فرض الخمس، باب «من لم يخمس الأسلاب...»، حديث رقم: (٣١٤٢)، (٦/ ٢٤٧)، ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، حديث رقم: (١٧٥١)، (٣/ ١٣٧٠).

(٣) انظر: المدونة (٢/ ٣١)، الكافي لابن عبد البر ص ٢١٥.

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

(٥) انظر: القرطبي (٨/ ٥)، المغني (١٣/ ٧٠)، الأضواء (٢/ ٣٩٠).

العلماء، يستدل قائل كل من القولين عليه بأدلة كثيرة، وقد كان أبو قتادة (رضي الله عنه) يوم حنين رأى رجلاً من المشركين يريد أن يقتل رجلاً من المسلمين فجاءه من خلفه فضربه على حبل عاتقه بالسيف، قال: فرجع إلي فضمّني ضمّة شممت منها ريح الموت ثم أدركه الموت فأرسلني. ثم لما جلس النبي ﷺ بعد انتهاء المعركة وقال: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**». قلت: من يشهد لي ــ بعد مرات ــ فقال رجل: صدق يا رسول الله سلبه عندي، أرضه منه. وقال له أبو بكر (رضي الله عنه): لا هالله لا يعمد إلى أسد من أسود الله يقاتل عن الله ورسوله ويعطيك سلبه. فقال النبي ﷺ: «**صدق، أعطه سلبه**» قال أبو قتادة (رضي الله عنه): فاشتريت به مخرفاً ــ يعني حائطاً يُخْرف منه الثمار ــ وكان أول مال تأثلته في الإسلام[1]. هكذا قال أبو قتادة رضي الله عنه.

واعلموا أن بعض العلماء قال: إن النبي ﷺ إذا قال: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**». هل يملك القاتل سلب القتيل بمجرّد قتله، أو لا بد أن ينفله له الإمام؟ فقال بعض العلماء: يملكه؛ لأن ذلك هو مقتضى كلامه ﷺ.

وقال بعض العلماء: لا يملكه إلا بتنفيل الإمام. واستدلوا لهذا بأدلة منها: ما ثبت أن أبا جهل ــ لعنه الله ــ يوم بدر ابتدره معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء (رضي الله عنهما) فأطارا قدمه بنصف ساقه، ثم جاءا النبي ﷺ فقال: كل واحد منهما أنا قتلته.

---

(١) البخاري في فرض الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب، حديث رقم: (٣١٤٢)، (٦/ ٢٤٧)، ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، حديث رقم: (١٧٥١)، (٣/ ١٣٧٠).

فقال: «**هل مسحتما سيفكما؟**» قالا: لا. فنظر في السيفين وقال: «**كلاكما قتله**»[١]. وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح. قالوا: لو لم يتوقف هذا على تنفيل الإمام لكان معاذ بن عفراء شريكاً لمعاذ بن الجموح؛ لأن النبي ﷺ صرّح بأنهما قتلاه، في أدلة أُخرى غير هذا.

قال علماء الأصول: منشأ هذا الخلاف: خلاف العلماء في قول النبي ﷺ: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**» هل يملكه دون تنفيل الإمام أو لا بد من تنفيل الإمام؟ منشأ الخلاف: هل قوله ﷺ: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**» حكماً منه، أو فتوى[٢]؟ فعلى أنه حكم يختص بمن قيل له ولا يعم، وعلى أنه فتوى يعم. وذكروا عن أبي طلحة (رضي الله عنه) أنه في يوم حنين قتل عشرين رجلاً. وفي بعض الروايات: واحداً وعشرين رجلاً، وأخذ أسلابهم كلهم[٣]. وكان يقول في يوم حنين[٤]:

أنا أبو طلحة واسمي زيد وكل يوم في سلاحي صيد

---

(١) البخاري في فرض الخُمس، باب «من لم يخمس الأسلاب...»، حديث رقم: (١٣٤١)، (٦/ ٢٤٦)، وأخرجه في موضعين آخرين. انظر: الحديثين (٣٩٦٤، ٣٩٨٨)، ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، حديث رقم: (١٧٥٢)، (٣/ ١٣٧٠ ــ ١٣٧٢).

(٢) انظر: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للقرافي ص ١١٦ ــ ١١٩، الأضواء (٢/ ٣٩٣).

(٣) أحمد (٣/ ١١٤، ١٢٣، ١٩٠، ٢٧٩)، الدارمي (٢/ ١٤٧)، أبو داود، كتاب الجهاد، باب في السلب يُعطى القاتل، حديث رقم: (٢٧٠١)، (٧/ ٣٨٨).

(٤) البيت في الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ١١٣)، تاريخ دمشق (١٩/ ٣٩٧)، الإصابة (٤/ ١١٣). =

رضي الله عنه وأرضاه.

قال بعض العلماء: من قتل قتيلاً له سلبه مطلقاً.

وقال بعضهم: لا يكون له سلبه إلا بتنفيذ الإمام. وتوسط قوم فقالوا مذهباً ثالثاً، قالوا: إن كان السلب قليلاً استحقه دون تنفيذ الإمام، وإن كان كثيراً توقف على تنفيذ الإمام. واستدلوا لهذا بما جاء في رواية صحيحة في السنن وغيرها أن مدداً من حمير كان مع خالد بن الوليد يقاتل يوم مؤتة، وإذا رجل عظيم من الروم يقتل المسلمين، فجلس له المددي الحميري وراء صخرة حتى مضى عليه فعقر به فرسه وعلاه بالسيف فقتله وأخذ سلاحه. وكان سلاحه كله مذهّباً، وكان ثميناً جداً، فلما جاء خالد بن الوليد (رضي الله عنه) أرسل إليه وأخذه منه، وسمعها عوف بن مالك (رضي الله عنه) فقال لخالد: لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ ثم لما جاء قصّ الخبر على رسول الله ﷺ، فقال: «**مَا لَكَ لا تعطيه سلبه؟ أعطه سلبه**». ثم لما قال ذلك قال له عوف بن مالك: يا خالد أما قلت لك إني مُعَرِّفكَها عند رسول الله؟ فسمعها ﷺ فأغضبته وقال: «**لا تتركون لي أصحابي؟ لا تعطه يا خالد، لا تعطه يا خالد**»[1]. قالوا: هذا يدل على أنه إن كان كثيراً لا يعطي؛ لأنه لما سأل خالداً قال: «**لِمَ لا تعطيه؟**» قال: استكثرته يا رسول الله؛ لأنه مالٌ كثيرٌ جداً؛ لأن سلاح الرجل فيه ذهب كثير وسلاحه كله مذهّب.

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، حديث رقم: (١٧٥٣)، (٣/ ١٣٧٣).

واختلف العلماء في حقيقة السلب[١]، قال بعض العلماء: هو يقتصر على ما يأخذه لِلْأُمَةِ الحرب، كالسيف والدرع والرمح ونحو ذلك. والثياب تدخل فيه إجماعاً.

أما إذا وُجد في همیانه أي: في مِنْطَقَتِه التي يُشدّ بها وسطه إذا وجدت فيها دنانير، أو دراهم، أو جواهر، فإنها ليست من سلبه إجماعاً.

واختلفوا في فرسه الذي يقاتل عليه هل هو من سلبه أو لا؟ فقال جماعة: هو من سلبه يستحقه القاتل. وقال قوم: لا. كما هو خلاف معروف بينهم.

واعلموا أن التحقيق أن الرجل الذي يقاتل على فرس أن له في الغنيمة ثلاثة أسهم: سهمان لفرسه وسهم للرجل، هذا هو التحقيق الذي لا شك فيه ــ إن شاء الله ــ وعليه جماهير العلماء، منهم الأئمة الثلاثة[٢]، وهو ثابت في الصحيح ثبوتاً لا مطعن فيه. وخالف في هذا الجمهورَ الإمامُ أبو حنيفة (رحمه الله) وقال: إن له سهمين فقط: سهم للفرس، وسهم لصاحبه. والتحقيق أن له ثلاثة أسهم: سهمين للفرس، وسهم للراكب. وقد استدلّ الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) بظاهر حديث جاء في ذلك، إلا أن غيره أصح منه وأصرح دلالة في محل النزاع.

واختلف العلماء في البراذين والهجن هل يقسم لها كما يقسم للخيل العِرَاب، أو لا يقسم

(١) انظر: القرطبي (٨/ ٩)، المغني (١٣/ ٧٢)، الأضواء (٢/ ٣٩٧). وفي الأصل هنا: «السلاح»، وهو سبق لسان.

(٢) انظر: القرطبي (٨/ ١٤ ــ ١٥)، المغني (١٣/ ٨٥)، الأضواء (٢/ ٣٩٩).

لها[١]؟ فسئل عن هذا مالك بن أنس (رحمه الله) فقال: ما أرى أن الهجن والبراذين إلا هي من الخيل؛ لأن الله قال: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: الآية ٨] أترون أن الهجن من البغال؟ قالوا: لا. أترون أنها من الحمير؟ قالوا: لا. قال: هي من الخيل، فتتناولها النصوص الواردة في الخيل[٢].

وقال بعض العلماء في الهجين: والهجين: هو ما أحد أبويه من الخيل رديء من البراذين أبوه أو أمه، فإذا كانت أمّه من العِرَاب الحرائر وأبوه ليس كذلك فهو المعروف بالمُقْرِف[٣]، ومنه قول هند بنت النعمان بن بشير[٤]:

وما هندُ إلا مُهْرةٌ عربيةٌ سليلةُ أفراسٍ تجلَّلها بغْلُ
فإن ولَدتْ مُهْراً كريما فبالحَرَى وإن يكُ إقْرافٌ فما أنْجَبَ الفحلُ

فالمقرف: هو الذي أمه من الخيل العِرَاب الجياد وأبوه ليس كذلك، ومن هذا المعنى قول جرير[٥]:

---

(١) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/ ١٦٠ ــ ١٦٣)، القرطبي (٨/ ١٦)، المغني (١٣/ ٨٦)، الأضواء (٢/ ٤٠١).

(٢) المدونة (٢/ ٣٢)، الكافي لابن عبد البر ص ٢١٤.

(٣) انظر: المغني (١٣/ ٨٧)، الهُجْنَة تكون من قِبَل الأم، والإقراف من قِبَل الأب، كما في أدب الكاتب ص ٤١، المصباح المنير (مادة: هجن) ص ٢٤٣، فتح الباري (٦/ ٦٧).

(٤) البيتان في المغني (١٣/ ٨٧)، أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٤١، الاقتضاب شرح أدب الكتاب للبطليوسي (١/ ١٦٥)، (٢/ ٤٣٩)، الأضواء (٢/ ٤٠٣)، ولفظ البيت الثاني:

فَإنْ نُتِجَتْ مُهْراً كريماً فَبِالحَرَى وإنْ يكُ إقرافٌ فَمِنْ قِبَلِ الفحلِ

(٥) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

إِذَا آبَـاؤُنَـا وأَبُـوكَ عُـدُّوا أَبَـانَ المُقْـرِفَـات مـن العِـرَابِ

فالحاصل أن الهجن والبراذين قال بعض العلماء: يقسم لها كما يقسم للخيل الجياد العِرَاب. وقال بعض العلماء: يقسم لها سهم واحد، نصف ما يقسم للخيل العراب الجياد. وقال بعض العلماء: إن كان لها غَنَاء يقرب من غَنَاء الخيل الجياد قُسِمَ لها مثل قَسْمِها وإلا فنصف قَسْمِها. وشذّ بعض العلماء فقال: لا يُقْسَم لها شيء؛ لأنه حيوان لا يقوم مقام الخيل فأشبه الحمير والبغال. وقد كان رجل من حمير من بني وادعة من بطون حِمْيَر أميراً على جيش فسبق الخيل الجياد وتأخر البراذين والهجن فقيل له: اقسم للبراذين والهجن فلم يعطها إلا نصف ما أعطى للخيل الجياد وقال: لا يمكنني أبداً أن نجعل ما لم يدرك كالذي يدرك. فسمعها عمر بن الخطاب فاستحسنها جداً، وقال: هبلت الوادعي أمه، لقد ذكَّرنيها[1]. وكان الشاعر الحميري يفتخر بمقالة الوادعي الحميري هذه فيقول[2]:

ومنَّا الذي قد سنّ في الخيل سنّة وكانت سواء قبل ذاك سهامها

أما إذا كانت عنده خيول كثيرة[3] فبعض العلماء يقول: لا يأخذ إلا نصيب فرس واحد. وهذا به قال جماعة من العلماء؛ لأنه لا يركب إلا على واحد. وقال جماعة من العلماء: يعطى خمسة أسهم، نصيب فرسين فقط، أما الفرسان فلهما أربعة أسهم، والسهم

---

(١) سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٨٠)، والشافعي في الأم (٧/ ٣٣٧)، والبيهقي (٦/ ٣٢٨)، وذكره الحافظ في الفتح (٦/ ٦٧).

(٢) البيت في فتح الباري (٦/ ٦٧)، الأضواء (٢/ ٤٠٢).

(٣) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/ ١٥٧ ـ ١٥٩)، الأضواء (٢/ ٤٠٠).

الخامس له، ولا يزاد على ذلك[١]. ولا خلاف بين العلماء أنه لا يعطى أكثر من نصيب فرسين البتّة، ولو كان عنده خيل كثيرة. ومن قال: يعطى نصيب فرسين قال: لأنه قد يحتاج إلى فرسين ولا يحتاج إلى الثالث غالباً؛ لأن الفرس إذا طال ركوبه قد يضعفه ذلك عن الكرِ والفر، فيكون عنده فرس آخر جنيب فيه قوة ونشاط يزاول به في الميدان؛ ولذا قال بعض العلماء: يعطى نصيب فرسين ولا يزاد عليهما، ولم يقل أحد: إنه يعطى أكثر من نصيب فرسين.

فإن كان مقاتلاً على بعير[٢] فقال بعض العلماء: ليس للإبل نصيب البتّة[٣]. وعليه جماهير العلماء. وذهب بعض العلماء إلى أن البعير إذا لم يجد غيره كان له نصيب نصف نصيب سهم الفرس، وهذا رواية عن الإمام أحمد[٤]، ومن قال به قليل، واستدل قائل هذا القول بأن الله لما ذكر الموجب الذي استحقوا به الغنيمة ذكر منه الرِّكاب مع الخيل، والرِّكاب: هي الإبل، قال: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: الآية ٦] وله وجه من النظر، إلا أن جماهير العلماء أن الإبل لا يقسم لها، وقد كان عندهم يوم بدر سبعون بعيراً فلم يقسموا لها، ولم تخل غزواته من الإبل، ولم يقل أحد إنه ﷺ قسم لبعير شيئاً.

---

(١) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/ ١٥٧ ــ ١٥٩)، القرطبي (٨/ ١٥ ــ ١٦)، المغني (١٣/ ٨٩).

(٢) انظر: الأضواء (٢/ ٤٠٣).

(٣) وحكى عليه ابن المنذر الإجماع، كما في الأوسط (١١/ ١٦٢).

(٤) انظر: المغني (١٣/ ٨٩).

أما إذا كان يقاتل على الفيلة[١] كما كانت الأعاجم تقاتل فلم يختلف اثنان من العلماء أن الفيل لا يقسم له شيء إذا قاتل عليه صاحبه. قالوا: ليس كالبعير؛ لأن البعير حيوان يُسَابَقُ عليه ويجوز المسابقة عليه بالسبق، وهو إعطاء العوض لمن غلب، كما في حديث: «**لا سبق إلا في خفٍ أو نصلٍ أو حافرٍ**»[٢]. أما الفيل فلم يقل أحد من العلماء: إنه يستحق نصيباً إذا قوتل عليه، أما كونه يسابق عليه فقد قاله بعض العلماء، وهو مبني، على الخلاف في قاعدة أصولية معروفة، وهي: هل إذا جاءت عن الله (جل وعلا) أو عن رسوله ﷺ نصوص عامة هل تدخل فيها الصور النادرة أو لا تدخل[٣]؟ قال بعض العلماء: تدخل الصور النادرة. وقال بعض العلماء: لا تدخل الصور النادرة. وهذه القاعدة الأصولية تحتها فروع اختلف فيها العلماء، من هذه الفروع: من خرج منه المني بغير لذة، كالذي ينزل في ماء حار فينزل منه المني، أو تلدغه عقرب في ذكره فينزل منه المني، أو تهزه دابة فينزل منه المني، فنزول المني من غير لذة كبرى صورة نادرة، فعلى أن الصور النادرة تدخل في عمومات النصوص يدخل في عموم قوله: «**إنما الماء من**

---

(١) انظر: الأضواء (٢/ ٤٠٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٦، ٣٥٨، ٣٨٥، ٤٢٥، ٤٧٤)، وأبو داود في الجهاد، باب في السبق، حديث رقم: (٢٥٥٧)، (٧/ ٢٤١)، والترمذي في الجهاد، باب ما جاء في الرهان والسبق، حديث رقم: (١٧٠٠)، (٤/ ٢٠٥)، والنسائي في الكبرى، كتاب الخيل، باب السبق، حديث رقم: (٤٤٢٦)، (٣/ ٤١)، وابن ماجه في الجهاد، باب السبق والرهان، حديث رقم: (٢٨٧٨)، (٢/ ٩٦٠).

(٣) انظر: البحر المحيط للزركشي (٣/ ٥٥)، نثر الورود (١/ ٢٤٥).

الماء»[١] فيجب عليه الغُسل، وعلى أنها لا تدخل في النصوص فلا يجب عليه الغسل. قالوا: ومن فروع هذه القاعدة المسابقة بِسَبَقٍ على الفيل؛ لأن الفيل ذو خفٍ فَرِجْل الفيل كَرِجْل البعير، فهو من ذوات الخفاف. والفيل صورة نادرة قد لا تخطر في ذهن المتكلم، فعلى أن الصور النادرة تدخل في عمومات النصوص تجوز المسابقة على الفيل، وعلى هذا القول لا يبعد أن يكون فيه مثل القول الذي في الإبل، وعلى أن الصور النادرة لا تدخل في النصوص لا تجوز المسابقة على الفيل. هذا من حكم الغنائم.

وقد ذكرنا الآن أن الغنيمة إن كانت أرضاً فللإمام فيها ثلاثة أقوال[٢]، وإن كانت غير أرض فإنها تقسم على التحقيق بين المجاهدين، وأن التحقيق أن للإمام أن ينفّل منها في الصور التي ذكرنا[٣] كتنفيله الربع في البدأة، والثلث في العودة، وتنفيل بعض الرجال لشدة شكيمته وغَنَائه، وتنفيله من أَخَذَ السَّلَب كما قال: «**فمن قتل قتيلاً فله سلبه**»[٤]. واختلاف العلماء فيه هل هو فتوى فيعم، أو حكم فيخص؟. ولأجل هذا اختلفوا في قول النبي ﷺ لهند بنت عتبة بن ربيعة لما قالت له: أبو سفيان رجل يمسك ولا يعطيني ما يكفيني وولدي. فقال: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**»[٥].

---

(١) مسلم في الحيض، باب إنما الماء من الماء، حديث رقم: (٣٤٣)، (١/ ٢٦٩).

(٢) انظر: الأضواء (٢/ ٣٦٧).

(٣) انظر: الأضواء (٢/ ٣٨٥).

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

(٥) البخاري في البيوع، باب «من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع...»، حديث رقم: (٢٢١١)، (٤/ ٤٠٥)، وأخرجه في مواضع أُخرى. =

فعلى أنه فتوى فهو يعم جميع النساء[١]، فتكون كل امرأة بخل عليها زوجها بالإنفاق اللازم جاز لها أخذه بغير إذنه. أو هو حكم فيكون خاصاً كقضية: «من قتل قتيلاً فله سلبه».

واعلم أن من أحكام الغنيمة: حرمة الغلول[٢]، والغلول في الشرع[٣]: هو أن يسرق الإنسان من الغنيمة، فإذا سرق الإنسان من الغنيمة قبل أن تقسم، أو زنى ببعض المسبيات في الغنيمة قبل أن تقسم فجماهير العلماء ــ منهم الأئمة الثلاثة ــ أنه لا يجلد حد الزنى، وأنه لا تُقطع يده في السرقة[٤]؛ لأن له شبهة في الغنيمة؛ لأنه من المستحقين لها وهو مشارك فيها. ومذهب مالك بن أنس رحمه الله في هذه المسألة مشكل غاية الإشكال؛ لأن مالكاً (رحمه الله) يرى أنه إن سرق من الغنيمة قبل القسم، أو وطىء جارية من المغنم قبل القسم أنه يُحدُّ حدّ السرقة وحد الزنى[٥]، مع أنه يرى أنه لو مات في ذلك الوقت لورث عنه وارثه نصيبه من الغنيمة! كيف يكون فيه نصيب يُورث عنه ولا يكون شبهة تدرأ عنه الحد؟ ففي هذا المذهب إشكال، وإن قال به هذا الإمام العظيم الجليل المعروف.

= انظر الأحاديث: (٢٤٦٠، ٣٨٢٥، ٥٣٥٩، ٥٣٦٤، ٥٣٧٠، ٦٦٤١، ٧١٦١، ٧١٨٠)، ومسلم في الأقضية، باب قضية هند، حديث رقم: (١٧١٤)، (٣/ ١٣٣٨).

(١) انظر في هذه المسألة: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للقرافي ص ١١٢ ــ ١١٤.

(٢) انظر: القرطبي (٤/ ٢٥٨)، الأضواء (٢/ ٤٠٧).

(٣) انظر: القرطبي (٨/ ٢٥٦)، القاموس الفقهي ص ٢٧٧، الأضواء (٢/ ٤٠٤).

(٤) انظر: القرطبي (٤/ ٢٦١)، المغني (١٣/ ١٩٥، ١٩٦)، الأضواء (٢/ ٤٠٧).

(٥) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ٢١٢، الأضواء (٢/ ٤٠٧).

واعلموا أن الوقت الذي يستحق فيه الغانم نصيبه من المغنم اختلف فيه العلماء[١]: فقال بعض العلماء: إذا أخذوا في الدرب، والدروب هي: الطرق الموصلة إلى بلاد الكفار من العجم ونحوهم إذا أخذوا فيها فكل من مات منهم له نصيبه من الغنيمة، ولو مات قبل أن تُحاز الغنيمة. وهذا قائله قليل وليس بوجيه.

وقال بعض العلماء لا يورث عنه نصيبه ويستحقه حتى يحوز المسلمون الغنيمة، ويخرجون بها من ديار الحرب إلى بلاد الإسلام، فعند ذلك الوقت يستقر مُلْكُهم لها، ويورث عنه نصيبه، ويُروى نحو هذا عن أبـي حنيفة رحمه الله.

وأظهر الأقوال: أنه إن مات بعد أن حاز المسلمون الغنيمة وأخذوها من الكفار يورث نصيبه عنه، وإن مات قبل أن تُحاز لم يورث عنه شيء[٢]؛ لأنه مات قبل أن يحصل شيء يكون ملكاً له حتى يورث عنه، هذا هو الأظهر. هذه أحكام من أحكام الغنيمة.

واعلموا أن العلماء اختلفوا في الغال هل يُحرق رحله أو لا[٣]؟ فقد جاءت عن النبـي ﷺ أحاديث تدل على أن الغال ــ السارق من الغنيمة ــ يُحرق رحله ومتاعه، وهذا جاء عن النبـي ﷺ، والخلفاء وغيرهم ربما حرقوا متاع الغَالِّ وربما تركوا حرقه. وأظهر الأقوال في هذه المسألة أنها من التعزيرات المالية الموكولة إلى نظر الإمام إن رأى المصلحة في حرق متاعه حرقه وله ذلك، وإن رأى إبقاءه أبقاه،

---

(١) انظر: المغني (١٣/ ٩١)، الأضواء (٢/ ٤٠٨).

(٢) انظر: المغني (١٣/ ٩١).

(٣) انظر: القرطبـي (٤/ ٢٥٩ ــ ٢٦٠)، المغني (١٣/ ١٦٨ ــ ١٧٢)، الأضواء (٢/ ٤٠٤).

وإن كان فيه مصحف فإنه لا يحرقه، وقد غلّ رجل في بعض الغزوات فيها بعض المسلمين فحرقوا متاعه وجدوا فيه مصحفاً فباعوا المصحف وتصدقوا بثمنه[١] كذا قال بعضهم والله أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] قال بعض العلماء[٢]: الخمس ستة أنصباء: نصيب لله، ونصيب للرسول ﷺ، ونصيب لذي القرابة، ونصيب لليتامى، ونصيب للمساكين، ونصيب لابن السبيل. ومن قال: إنها ستة أنصباء، لم أعلم أحداً اشتهر عنه هذا القول إلا أبا العالية (رحمه الله) فإنه قال: الخمس يُجعل ستة أنصباء، قال: ونصيب الله هو أنه إذا جاء المال يأخذ الإمام ويملأ يده منه ويجعلها في رِتَاج[٣] الكعبة. فعنده: نصيب الله يُصرف في مصالح الكعبة. وهذا القول لا يخفى ضعفه؛ لأنه لا دليل عليه. والتحقيق ــ إن شاء الله ــ الذي عليه جماهير العلماء: أن نصيب الله ونصيب الرسول ﷺ واحد، وأن اسم الله ذُكر للاستفتاح والتعظيم لشأنه (جل وعلا)[٤]؛ لأن كل شيء له جل وعلا ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل: الآية ٩١] فنصيب الله هو نصيب الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٢/ ٢٦٩)، والدارمي (٢/ ١٤٩)، وأبو داود في الجهاد، باب في توبة الغال، حديث رقم: (٢٦٩٦)، (٧/ ٣٨١)، والترمذي في الحدود، باب ما جاء في الغال ما يصنع به، حديث رقم: (١٤٦١)، (٤/ ٦١).

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/ ٥٥٠)، القرطبي (٨/ ١٠)، الأضواء (٢/ ٣٥٧).

(٣) قال في المصباح المنير: «والرِّتاج: بالكسر الباب العظيم، والباب المغلق أيضاً، وجعل فلان ماله في رتاج الكعبة، أي: نذره هدياً، وليس المراد نفس الباب». اهـ. (المصباح المنير: مادة: رتج) ص ٨٣.

(٤) انظر: ابن جرير (١٣/ ٥٤٨)، الأضواء (٢/ ٣٥٨).

والتحقيق: أن نصيب رسول الله ﷺ من الخمس كان يردُّه على مصالح المسلمين لا يأخذ منه شيئاً؛ لأنه كان يأخذ خلته الضرورية من فيء بني النضير، وربما أخذ منه بعضاً من فيء قريظة، وأن نصيبه إنما يجعله في مصالح المسلمين، كما جاء عنه ﷺ في حديث ثابت رواه بعض أصحاب السنن والإمام أحمد وغيرهم أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «**ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخُمس، والخُمس مردود عليكم**»[(١)]. فصرّح بهذا الحديث بأن الخمس مردود عليهم.

واختلف العلماء في نصيب النبي ﷺ بعد موته[(٢)]: فجماهير العلماء على أن نصيبه ثابت بعد موته ولا يسقط بموته، وكذلك نصيب قرابته، وأن الإمام بعده يصرفه في مصالح المسلمين كما كان يصرفه رسول الله ﷺ فيها، وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر يصرفان نصيبه ﷺ في مصالح المسلمين العامة من الكراع والسلاح وغيره كما كان ﷺ يفعله. وخالف في هذا الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) فقال: بعد موته ﷺ يسقط نصيبه ونصيب قرابته، فما يبقى إلا ثلاثة أنصباء،

---

(١) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، منهم:
١ ــ عبد الله بن عمرو، عند أبي داود في الجهاد، باب في فداء الأسير بالمال، حديث رقم: (٢٦٧٧)، (٧/ ٣٥٩)، والنسائي في قسم الفيء، حديث رقم: (٤١٣٩)، (٧/ ١٣١).
٢ ــ عمرو بن عبسة، عند أبي داود في الجهاد، باب في الإمام يستأثر بشيء من الفيء لنفسه، حديث رقم: (٢٧٣٨)، (٧/ ٤٣٤).
٣ ــ عبادة بن الصامت، عند مالك في الموطأ، حديث رقم: (٩٨٥) ص ٣٠٤، والنسائي في قسم الفيء، حديث رقم: (٤١٣٨)، (٧/ ١٣١).
(٢) انظر: ابن جرير (١٣/ ٥٥٦)، القرطبي (٨/ ١١)، الأضواء (٢/ ٣٦٠).

وهي نصيب اليتامى والمساكين وابن السبيل. وجماهير العلماء على خلاف هذا.

وقوله: ﴿وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] اختلف العلماء في المراد بـ (ذي القربى)[1] فقال بعضهم: بنو هاشم. وقال بعضهم: قريش. والتحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه: أن المراد بـ (ذي القربى) بنو هاشم وبنو المطلب خاصة، وقد ثبت هذا في الصحيح عن النبي ﷺ فلا ينبغي العدول عنه. هذا هو المذهب الحق الذي لا شك فيه، وهو مذهب الإمام الشافعي وأحمد (رحمهما الله)، ويُروى عن أبي حنيفة. أما ما ذهب إليه مالك من أنهم خصوص بني هاشم. وما قاله بعض القرشيين من أنهم قريش كلهم فهو خلاف التحقيق. والدليل على هذا القول: هو ما ثبت في صحيح البخاري وغيره أن النبي ﷺ لما قسم أموال خيبر وأخرج خُمسها أعطى نصيب القرابة من خُمس خيبر لخصوص بني هاشم وبني المطلب، ولم يعط لأخوانهم الآخرين. أعني بني عبد شمس وبني نوفل، فجاء عثمان بن عفّان وهو من بني عبد شمس، وجبير بن مطعم وهو من بني نوفل، فقالوا: يا رسول الله ﷺ أعطيت إخواننا من بني المطلب ونحن وهم بالنسبة إليك سواء، فلِمَ تعطهم وتمنعنا؟ فأعطنا كما أعطيتهم. فقال ﷺ: «**إنّا وبنو المطلب شيء واحد**». وفي بعض رواياته: «**لم نفترق في جاهليةٍ ولا إسلام**»[2]. لأن هؤلاء الأربعة إخوة؛ لأن عبد

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/ ٥٥٣)، القرطبي (٨/ ١٢)، الأضواء (٢/ ٣٦١).

(٢) البخاري في فرض الخمس، باب من الدليل على أن الخمس للإمام، حديث رقم: (٣١٤٠)، (٦/ ٢٤٤)، وأخرجه في موضعين آخرين. انظر الحديثين: (٣٥٠٢، ٤٢٢٩).

مناف أولاده أربعة: وهم هاشم جدّ النبيﷺ، والمطلّب، وعبد شمس، ونوفل[١]. أما الثلاثة الأوّلون منهم أشقّاء، وأمهم عاتكة بنت مرة، إحدى عواتك النبي ﷺ؛ لأن بعض أصحاب المغازي والأخباريين ذكروا عنه ﷺ أنه قال في بعض مغازيه: «**أنا ابن العواتك من سليم**»[٢]. وعواتك سليم هذه التي انتسب إليها النبي ﷺ ثلاث عواتك معروفة[٣]: الكبرى منها عمّة الوسطى، والوسطىٰ عمّة الصغرى كما هو معروف. وسُليم بن منصور من قبائل قيس عيلان بن مضر، وسليم أخو هوازن. والعواتك هذه: صغراهن: عاتكة بنت الأوقص بن مرّة بن هلال، وعمتها: عاتكة بنت مرة، وعمّة هذه: عاتكة بنت هلال. أما الصغرى منهما ــ وهي عاتكة بنت الأوقص ــ فهي والدة وهب والد آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ، فهي جدّته من قبيل والد أُمّه، وأما عمتها وهي: عاتكة بنت مرة: فهي أم هاشم جده ﷺ وأخويه الشقيقين: المطلب وعبد شمس، أما أخوهما نوفل فهو ليس بشقيقهما، وأمه تُسمى واقدة بنت أبي عدي، واسم أبي عدي: نوفل. سمّت عليه ولدها نوفل هذا. والحاصل أن النبي ﷺ لما عاداه المشركون، وقاطعوا بني هاشم، واضطروهم إلى

---

(١) انظر: القرطبي (٨/ ١٢)، الأضواء (٢/ ٣٦٢).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٨٤٠، ٢٨٤١)، والطبراني في الكبير (٧/ ١٦٨ ــ ١٦٩)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ١٣٥، ١٣٦)، وابن عساكر (تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٢٨٩)، والعلائي في جامع التحصيل ص ٢٣٤، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢١٩) وقال: «رجاله رجال الصحيح». اهـ، وابن كثير في تاريخه (٤/ ٣٢٨)، وهو في الكنز (٣١٨٧٤، ٣٥٥٠٤)، والسلسلة الصحيحة (١٥٦٩).

(٣) انظر: تهذيب تاريخ دمشق (١/ ٢٨٩)، الأضواء (٢/ ٣٦٢).

أن يرحلوا إلى الشِّعْب كان بنو المطّلب معهم في كل بلية، ولم يفارقوهم في شيء، وكان إخوانهم الآخرين بني عبد شمس وبني نوفل كانوا معادين لهم مع قريش، ولم ينصروهم عليهم، وكان أبو طالب يقول لهم في لاميته المشهورة[١]:

جَزَى اللَّـهُ عَنَّا عبد شمس ونوفَلا ... عُقُوبةَ شرٍ عاجلاً غير آجلِ
بميزان قسطٍ لا يخيسُ شعيرةً ... له شاهدٌ من نفسه غيرُ عائلِ
لقد سفهتْ أحلامُ قومٍ تبدَّلوا ... بني خَلَفٍ قيضاً بنا والغياطلِ
ونحن الصَّميمُ من ذُؤَابةِ هاشم ... وآلِ قصي في الخطوبِ الأوائلِ

فعرف النبي ﷺ لبني المطلب انسجامهم معهم في كل البلايا وصبرهم عليهم في الشدائد فجعلهم من القرابة، وأعطاهم من خُمس خيبر سهم ذي القرابة، ولم يعط إخوانهم الآخرين، أعني بني عبد شمس وبني نوفل شيئاً. وهذا هو التحقيق في ذي القرابة.

واختلف العلماء في ذي القرابة هل يُفضل ذكرهم على أُنثاهم[٢]؟ فذهب الشافعي وأحمد أنهم يُعْطون للذكر مثل حظ الأنثيين، قالوا: نالوه بالنبي ﷺ، وهم عصبته، والمعروف أن المال المستحق للعصبة يكون فيه الذكر له حظ الأنثيين.

وقال بعض العلماء: ذكرهم وأنثاهم سواء. وهذا أقربها؛ لأن تفضيل الذكر على الأنثى يحتاج إلى دليل، ولم يرو أحد أنه فضّل ذكرهم على أُنثاهم. ولا يشترط فيهم على التحقيق الفقر[٣]، فيعطى بنو هاشم والمطلب غنيّهم وفقيرهم.

---

(١) القصيدة في البداية والنهاية (٣/ ٥٣ ـ ٥٧)، الأضواء (٢/ ٣٦٣).
(٢) انظر: القرطبي (٨/ ١٢).
(٣) انظر: السابق.

أما نصيب اليتامى والمساكين فلا يعطى إلا لفقرائهم، فلا يُعطي يتيمٌ غنيٌّ ولا مسكين غني.

واليتيم من بني آدم: هو من مات أبوه[١]. وغلط قوم فقالوا: اليتيم من الآدميين: من مات أبوه وأمه. قالوا: قال مجنون ليلى[٢]:

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم

فسمّاه يتيماً بفقد الوالدين. والصواب: فقد الأب وحده يكفي في يتمه.

وابن السبيل: هو المنقطع عن بلاده. والسبيل: الطريق. وإنما قال له: ابن السبيل كأنه يقول: ولد الطريق. وتسميته ولد الطريق فيه للعلماء وجهان:

أحدهما: أنه كثر سلوكه لها، والعرب إذا كثرت ملازمة الشيء للشيء قالوا ابنه. ومنه قول غيلان ذي الرمة[٣]:

وردتُ اعتِسَافاً والثُّريا كأنَّها على قمةِ الرأسِ ابن ماءٍ مُحَلِّقِ

فسمى طير الماء الملازم له: ابن الماء، فلما كان المسافر ملازماً للطريق قيل له: ابن الطريق.

وقال بعض العلماء: كأن الفلاة تمخّضت عنه كما تتمخّض النتوج عن ولدها فرمتنا به كما ترمي الحامل بما في بطنها. وهذا

---

(١) تقدم عند تفسير الآية (١٥٢) من سورة الأنعام.

(٢) البيت في ديوانه ص ١٨٨.

(٣) البيت في تاريخ دمشق (٢٤/ ٢٥٢).

المعنى أوضحه مسلم بن الوليد الأنصاري صريع الغواني إيضاحاً كاملاً ــ وإن كان الشعر هنا لا يصلح شاهداً لتأخر زمنه ولكن يصلح مثالاً للإيضاح ــ فإنه قال في رجل يزعم أن بيداء ــ وهو الفلاة الواسعة ــ ولدته وتمخّضت عنه وصار ابنها كما تتمخّض النتوج عن ولدها قال[1]:

تمخَّضتْ عنه تِمّاً بعد مَحْمله ... شهرينِ بَيْداءُ لم تُضرب ولم تَلدِ
ألقتْه كالنَّصْلِ معطوفاً على هِمَم ... يعمدن منتجعَاتٍ خيرَ مُعتمِدِ

وابن السبيل: هو المحتاج الآن، وهو منقطع عن بلده، ولو كان غنياً في بلده، فيعطى من الخمس ما يوصله إلى بلده حتى يرجع إلى محله. هذا معنى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١].

/ ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ [٥/أ] وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٤١ ــ ٤٤].

(١) البيت في ديوانه ص ٧١، وفي شرحه للدهان ص ٨٤.

يقول الله جل وعلا: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤١] تكلمنا بالأمس على جمل من الأحكام الداخلة تحت هذه الآية من أحكام المغانم، ومن جملة ما ذكرنا: أن العلماء اختلفوا في خُمس الغنيمة، فقال بعضهم: يُجعل ستة أقسام، قسم لله، وقسم للرسول ﷺ، وقسم لذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وكان أبو العالية (رحمه الله) يقول: إن قسم الله (جل وعلا) يُجعل للكعبة. وزعم أن النبي ﷺ كان يضرب بيده في الخمس فيأخذ منه ويجعله للكعبة، وأن هذا هو نصيب الله[1]. وأكثر العلماء على أن نصيب الله والرسول ﷺ واحد، وأن اسم الله إنما ذكر تعظيماً وإجلالاً واستفتاحاً للكلام بذكر اسمه؛ لأن كل شيء كائناً ما كان فهو له ــ جل وعلا ــ ونصيب الرسول ﷺ كان يصرفه في مصالح المسلمين كما دل عليه حديث: «**ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخُمس، والخُمس مردود عليكم**»[2].

وقد قدّمنا أن أصح الأقوال: في (ذي القربى) أنهم بنو هاشم وبنو المطلب، وأن النبي ﷺ بيّن أنهم هم المرادون بآية الأنفال هذه؛ لأنه لما خَمَّس خيبر أَعطى خُمس الخمس لبني هاشم وبني المطلب باسم أنه سهم ذي القربى. وهذا ثابت عن النبي ﷺ في صحيح البخاري وغيره؛ لأن البخاري (رحمه الله) أخرج الحديث هذا في صحيحه في مواضع متعددة: جاء عثمان بن عفان، وجبير بن

(١) مضى قريباً.

(٢) مضى قريباً.

مطعم إلى النبي ﷺ لما أعطى بني هاشم وبني المطلّب خمس ذي القربى من غنائم خيبر، قال العبشميون والنوفليون: نحن من رسول الله ﷺ قرابتنا مثل قرابة بني المطلب، فجاء عثمان وهو من بني عبد شمس؛ لأن أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) هو ابن عفّان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، وعبد شمس أخو المطلب. وهاشم، وجبير بن مطعم هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل، ونوفل هذا أخو هاشم والمطلب، فجاء جبير وعثمان يطلبون النبي ﷺ أن يسوي بني نوفل وبني عبد شمس ببني المطلب، فأبى النبي ﷺ وبيّن أن بني المطلب وبني هاشم هم المرادون بالقرابة، وأنهم هم المستحقون خُمس خُمس الغنيمة. وهذا ثابت في الصحيح عن النبي ﷺ[1] فلا ينبغي الخلاف فيه. وإن كانت جماعة من العلماء منهم مالك وأصحابه قالوا: أن ذي القربى أنهم الهاشميون. وجماعة قالوا: إنهم قريش كلهم. فأصح الأقوال وأثبتها دليلاً أن المراد بذي القربى: بنو هاشم وبنو المطلب ابني عبد مناف دون إخوتهم الآخرين من بني عبد شمس وبني نوفل، فهذا هو الصواب ــ إن شاء الله ــ ؛ لأنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه فعله مبيّناً به معنى هذه الآية الكريمة.

وقد ذكرنا أن العلماء اختلفوا في ذي القربى، فجمهور العلماء على أن نصيبهم باق، وأنه لم يسقط بموته ﷺ خلافاً لأبي حنيفة. وقد قدّمنا أن أكثر العلماء على أنه يعطى منه غنيّهم وفقيرهم ولا يختص بفقرائهم، وأن بعض العلماء قال: يُفضّل ذكرهم على أنثاهم كالميراث. وبعضهم قال: يُسوّى فيه الذكر والأنثى.

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

وأن المراد بنصيب اليتامى: قال بعض العلماء: يجعل خُمُس الخُمس لسد خلّات اليتامى الفقراء الذين لم يترك لهم آباؤهم مالاً.

والمساكين: جمع مسكين، والمسكين إذا أُطلق وحده ــ لم يذكر معه الفقير ــ تناول الفقير. وعلماء التفسير يقولون: المسكين والفقير إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. يعني: إن ذُكرا معاً مجتمعين افترق حكمها فكان أحدهما أشد فقراً من الآخر، وإن افترقا ــ بأن ذكر المساكين دون الفقراء، أو الفقراء دون المساكين ــ اجتمعا. أي: شمل المسكينَ حكمُ الفقير، والفقيرَ حكمُ المسكين[1]. ومعلوم اختلاف العلماء في الفقير والمسكين أيهما أحوج[2]، فذهب بعض العلماء، وهو رأي مالك بن أنس وطائفة من العلماء إلى أن المسكين أشد حاجة. واستدلوا بأن الله قال: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾ [البلد: الآيات ١٤ ــ ١٦] فوصف المسكين بأنه (ذو متربة) ومعنى (ذو متربة): لاصق بالتراب ليس له شيء غير التراب، وأنه (مِفْعِيل) من السكنى؛ لأن يده سكنت عن التصرف، وجوارحه عن النشاط من الجوع والفاقة.

وقال مالك: إن العرب تطلق الفقير على من عنده مال لا يكفيه. واستدل بقول راعي نمير وهو عربي فصيح[3]:

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/ ٣٠٥)، الفروق اللغوية ص ١٤٥، القرطبي (٨/ ١٦٨)، ابن كثير (٢/ ٣٦٤).

(٢) السابق.

(٣) البيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص ٩٠، القرطبي (٨/ ١٦٩)، وقوله: «سبد»، أي: وبر، وقيل: شعر، وذلك كناية عن الإبل أو الغنم.

أما الفقيرُ الذي كانتْ حَلُوبتُه وَفْقَ العِيَالِ فلم يُترك له سَبَدُ

فسمّاه فقيراً وعنده حلوبة قدر عياله.

وقال جماعة آخرون من العلماء: إن الفقير أشد حاجة، واستدلوا بأن الفقير كأن الفاقة قصمت فقارته لشدتها. قالوا: وقد سمى الله قوماً مساكين وعندهم سفينة عاملة في البحر في قوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: الآية ٧٩] فسماهم مساكين مع أن عندهم سفينة عاملة بالإيجار، هكذا قال بعض العلماء.

وابن السبيل معناه: ولد الطريق. يُعطى من خُمس الخُمس ما يبلغه أهله. وابن السبيل مصرف محتاج، ولو كان غنياً في محله؛ لأن ماله في محله الذي هو متغرّب عنه لا يدفع فقره في حالته الراهنة في حال كونه متقطعاً في سبيله.

وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال يعظّم الله فيها شأن الخُمس، كأنه جعل أداء الخمس من الإيمان. يعني: إن كنتم آمنتم بربكم (جل وعلا) وما أنزل على نبيّه فاعلموا وتيقّنوا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه، ونفِّذوا ذلك؛ ولذا ذكر البخاري (رحمه الله) في كتاب الإيمان أن أداء الخُمس من الإيمان[1]؛ لأن الله قال لما ذكر أداء الخمس قال: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وفي حديث وفد عبد القيس الثابت في الصحيح المشهور

(١) البخاري (مع الفتح) (١/ ١٢٩).

أن النبي ﷺ لما عدّ خصال الإيمان عدّ منها أداء الخُمس[١].
وذلك لأن الله قال بعد ذكره أداء الخُمس: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾.

واعلموا أن جماعة من العلماء منهم مالك وأصحابه[٢] قالوا: إن هذه المصارف الخمسة[٣] لا تعيّن كلها بل الأمر موكول إلى اجتهاد الإمام يضعه حيث يشاء، إلا أن الله أرشد إلى أن هذه الخمسة هي المصارف الذي لا ينبغي أن يتجاوزها به. وهذا رأي مالك ونصره غير واحد، والظاهر الذي هو الاحتياط: أن يجعله خمسة أنصباء[٤]، كما قال الله (جل وعلا)؛ لأن الله شدّد في ذلك في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ ﴿عَبْدِنَا﴾: هو محمد ﷺ. وصيغة الجمع في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ للتعظيم. وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ معطوف على اسم الجلالة، أي: إن كنتم آمنتم بالله وآمنتم بالذي أنزلنا على عبدنا محمد ﷺ من هذه الآيات القرآنية؛ لأن الله أنزلها عليكم، ونصركم عند نزولها، وأمركم فيها بأداء الخُمس إن كنتم مؤمنين، فإن كنتم مؤمنين بما أنزل الله على نبيه

---

(١) البخاري في الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان، حديث رقم: (٥٣).
وأخرجه في مواضع أُخرى. انظر الأحاديث: (٨٧، ٥٢٣، ١٣٩٨، ٣٠٩٥، ٣٥١٠، ٤٣٦٨، ٤٢٦٩، ٦١٧٦، ٧٢٦٦، ٧٥٥٦).
ومسلم في الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين، حديث رقم: (١٧، ١٨)، (١/ ٤٦).

(٢) انظر: القرطبي (٨/ ١١)، قوانين الأحكام الشرعية لابن جزي ص ١٦٩ ــ ١٧٠.

(٣) أي: للخُمُس.

(٤) انظر: الأضواء (٢/ ٣٦٥).

فاعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه؛ لأن ذلك من جملة ما أنزل الله في هذه الآيات النازلة يوم بدر.

وقال بعض العلماء: المراد بقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالذي أنزلنا على عبدنا قالوا هو قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: الآية ١] وقد أمر الرسول ﷺ أن يخرج خُمسها ويصرفه في هذه المصارف المذكورة ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم﴾ [الأنفال: الآية ٤١] بذلك المنزّل فاعلموا أنما غنمتم من شيء فخمسه لله. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ لأن العبد من أشرف الصفات؛ لأن أَشرف الصفات: العبودية له (جل وعلا)؛ ولذا إذا أراد الله أن يرفع من شأن نبيّه ويعظّم الموقف الذي هو فيه عبّر عنه بلفظ العبد؛ لأنها أعظم صفة وأكرمها كما قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: الآية ١] وقال هنا: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يوم الفرقان هو يوم بدر، لم يكد يُختلف في ذلك، وإنما قيل لبدر يوم الفرقان لأنه يوم فرق الله به بين الحق والباطل، أوضح حجة الإسلام أنه الحق، وأن الكفر باطل إيضاحاً يشاهده الجاهل والعالم والغبي؛ لأنه التقت فئتان: فئة كافرة تقاتل في سبيل الشيطان، وهي فئة قوية في عددها وعُددها، وفئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، هي ضعيفة في عددها وعُددها، فنصر الله [الضعيفة على القوية][1] وغلبتها وقتلت صناديدها وأشرافها وأسَرَتْهم، فتبيّن بهذا بياناً واضحاً شافياً يراه الناس بحواسهم أن

(١) في الأصل: «القوية على الضعيفة» وهو سبق لسان.

الإسلام دين الحق، وأن الله فرّق بين الحق والباطل بوقعة بدر، إذ ليس من المعقول أن تكون الفئة الضعيفة القليلة في عددها وعُددها هي الغالبة القاهرة إلا بتأييد من خالق السماوات والأرض (جل وعلا)، وهذا التأييد لا يكون منه إلا لأنها هي المحقّة؛ ولذا سمّى الله بدراً (فرقاناً) وسمّاه (بيّنة) وسمّاه (آية). سمّاه (فرقاناً) في قوله هنا: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وسماه (بيّنة) في قوله في هذه الآية ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] لأنه سيأتي تفسيره، أي: ليبقى على كفرِه من كفر على وضوح من أمره أن الكفر باطل، ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ بالإيمان ﴿مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ وضوح ظاهر لا شك فيه أن الإسلام حق لنصر الفئة القليلة الضعيفة على الفئة الكافرة القوية. وسمّاه (آية) في سورة آل عمران في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٣] آية: أي: علامة على أن دين الإسلام هو الحق الذي لا شك فيه.

وهذه الآية القرآنية تدل على أن من علامات دين الإسلام وأنه الدين الحق الذي لا يقبل الله غيره كما قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: الآية ٨٥] وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: الآية ١٩] وقال ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية ٣] تُبيّن أن من خصائص هذا الدين ومن علاماته: أن الفئة القليلة المتمسكة به تغلب الفئة القوية الكافرة التي لم تتمسك به، وقد جاءت لهذا أمثلة عديدة في القرآن سنذكر لكم بعضها ليتّضح معنى الآية[1]: من ذلك ما قصّه الله (جل وعلا) علينا في سورة

(١) انظر: الأضواء (٣/ ٤٥٣).

الأحزاب في غزوة الخندق لما جاء الكفار في عَددهم وعُددهم وحاصروا النبي ﷺ وأصحابه بالمدينة ـ هذه حرسها الله ـ وحاصروهم ذلك الحصار العسكري التاريخيّ العظيم الذي نوَّه الله بشأنه، وبيّن شدّته وعظمه في سورة الأحزاب في قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١] هذا الحصار العظيم جاء وعدد الكفار ضخم، وعُددهم قوة، وأصحاب النبي ﷺ في ضعف وقلةٍ من المال والسلاح، وفي جوع، حتى إن في غزوة الخندق وسيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه) كما يذكره المؤرخون والأخباريون وغيرهم يشد حزامه على الحجارة من شدة الجوع، وهم في ذلك الوقت الناس جميعاً مقاطعوهم سياسياً واقتصادياً، ليس بينهم وبين أحد من أهل الأرض علاقات اقتصادية، ولا علاقات سياسية، آخر قوم كانت بينهم وبينهم عهود: يهود بني قريظة، فلما نزل الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم وحاصروهم هذا الحصار العسكري التاريخي العظيم المنوَّه عنه في القرآن، في ذلك الوقت غدر بنو قريظة ونبذوا العهود، وصاروا مع الكفار، فلم يبق لهم تحت أديم السماء صديق ولا معين إلا الله (جل وعلا) وحده، ولما أرسل النبي ﷺ سعد بن عبادة وسعد بن معاذ (رضي الله عنهما) إلى بني قريظة يعرف خبرهما هل هما على عهودهما أو نقضوا العهود وصاروا مع المشركين؟ قال لهم (صلوات الله وسلامه عليه): «**إن وجدتم القوم نقضوا العهود فكنُّوا لي ولا تصرّحوا بإشارة نفهمها ولا يفهمها غيري**»؛ لأن النبي ﷺ يخاف أن يداخل الناس شدة الجبن والجزع؛

لأنهم ما كان لهم من الأصدقاء إلا القرظيون من اليهود، فإذا غدروا وصاروا مع الكفار في هذا الوقت الضنك وهذا الموقف الحرج كان الأمر أعظم واشتد على غير أقوياء القلوب من المسلمين، فجاء سعد وسعد إلى بني قريظة فوجدوا سيّدهم كعب بن أسد ــ قاتله الله ــ فَتَنَه اللعين حيي بن أخطب سيد بني النضير، ونقضوا العهود، وغدروا، وصاروا مع المشركين على رسول الله ﷺ. فجاؤوا إلى النبي ﷺ وقالوا: هم عضل. ليفهمها رسول الله ﷺ ولا يفهمها غيره. وعضل: يعني هم وبنو القارة من الذين غدروا ببعث الرجيع. فأشاروا له بأنهم في الغدر كبني عضل وبني القارة، ففهمها رسول الله ﷺ[1]، ففي هذا الموقف الضنك الحرج كان الذي واجه المسلمون به هذا الموقف الضنك العظيم والحصار العسكري العظيم [هو الإيمان والتسليم كما أخبر الله ــ تعالى ــ عنهم بقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾][2] ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٢٢] وكان من نتائج هذا الإيمان العظيم والتسليم الكبير ما قصّه الله علينا في محكم كتابه في سورة الأحزاب في قوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٢٥] يقول: إن كنتم أذلاّء ــ لستم بأعزّاء ولا أقوياء ــ فهو (جل وعلا) قويٌّ عزيز لا يُغْلب من استند إليه، فالفئة القليلة المستندة إليه يقويها بقوته ويعزّها بعزّته، فلن تُغْلب، إلى أن قال: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ

(١) سيأتي تخريجه عند تفسير الآية (٥٧) من هذه السورة.

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٧] يعني: إن كانت قدرتكم ناقصة وأنتم عاجزون فهو (جل وعلا) على كل شيء قدير، فالفئة المستندة عليه يجعل لها القدرة والتمكين بقدرته، ومن أمثلة هذا أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) لما صدَّه المشركون مع أصحابه في غزوة الحديبية وهم محرمون كما سيأتي في قوله: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ [الفتح: الآية ٢٥] وأرسل عُثمان بن عفان (رضي الله عنه) بالهدايا لينحرها في الحرم، وتلقّاه بنو عمه؛ لأنه أراد أولاً أن يرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له عمر: إن بني عدي لا يقدرون أن يحموني من قريش، ولكن أدلك على رجل أعزّ مني في قريش هو عثمان بن عفان رضي الله عنه: فأرسل عثمان رضي الله عنه بالهدايا وتلقّاه بنو عمه يقولون[1]:

أَقْبِلْ وأَدْبِرْ لا تَخَفْ أَحَدَا بنُو سعيدٍ أَعزَّةَ الحرمِ

فأُخبر النبي ﷺ بخبر كاذب أن الكفار قتلوه، فبايعه أصحابه تحت سمرة من شجر الحديبية بيعة الرضوان، وعندما بايعوه علم الله في ذلك الوقت من قلوبهم الإخلاص الكامل والإيمان كما ينبغي بالله (جل وعلا)، فكان من نتائج ذلك الإيمان الكامل والإخلاص الذي اطّلع الله عليه في قلوبهم أنه بيّن لهم أنه يجعلهم قادرين على من هم عاجزون عنه كما أوضح هذا في سورة الفتح في قوله: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة الأنعام.

[الفتح: الآية ١٨] أي: علم الله ما في قلوبهم من قوة الإيمان والإخلاص لله، فنوَّه عنه بالاسم المبهم الذي هو الموصول، فكان من نتائج هذا الإيمان والإخلاص كما ينبغي ما قصّ الله علينا في سورة الفتح حيث قال: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [الفتح: الآية ٢١] فصرّح بأن إمكانياتهم العددية والعُددية لا تُقدرُهم عليها، ثم قال: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: فأقدركم عليها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: الآية ٢١] إن كانت قدرتكم ناقصة فقدرته (جل وعلا) كاملة، والطائفة الضعيفة القليلة المستندة إليه يقويّها بقوته، ويعزّها بعزّته، ويُقدرها بقدرته. وهذه أمثلة تدل المسلم على أن دين الإسلام حق، وأنه هو هو، وأن صلته بالله هي هي، وأن المتمسّك به لا يُغلب ولا يُقهر[1]، ولكن المسلمين تنكروا لدينهم فتركوه ولم يعملوا به، فتركوا الآلة القاهرة التي يُقهر بها العدو، فبقوا لقمة سائغة يضطهدهم الكفرة في أقطار الدنيا، ويبتزون ثروات بلادهم؛ لأنهم تركوا السلاح الأعظم لقهر العدو وهو دين الإسلام كما بيّنا؛ ولذا قال هنا: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] يعني: جمع المسلمين وجمع المشركين يوم بدر.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤١]. جرت العادة بذكره قدرته عند نصره الضعاف من عباده المتمسّكين بدينه كما قال هنا: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ وقال في الأحزاب: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٢٧]. وقال في الحديبية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: الآية ٢١] كل هذه الآيات على وتيرةٍ واحدة، معناها: إن كنتم ضعافاً

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٦) من سورة الأنعام.

عاجزين فهو (جل وعلا) قادر قوي لا يعجز عن شيء، فإنه ينصر أولياءه ويقويّهم ويقدرهم على من هو أقوى منهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالله (جل وعلا) قادر على كل شيء، فهو قادر على ما شاءه، وقادر على ما لم يشأه، فهو قادر على هداية أبي بكر، وقد شاء هذا المقدور، وقادر على هداية أبي جهل كما قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: الآية ١٣] ولكنه لم يشأ هذا المقدور، فتبيّن أنه قادر على ما شاء، وقادر على ما لم يشأ.

وقوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] قال بعض العلماء[١]: هو بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] لأن يوم الفرقان يوم التقاء الجمعان هو الظرف المُعبَّر عنه بكينونتهم في العدوة الدنيا وأعداؤهم في العدوة القصوى، وهذا ظاهر.

وقرأ هذا الحرف من السبعة: ابن كثير وأبو عمرو: ﴿**إذ أنتم بالعِدوةِ الدنيا وهم بالعِدْوَةِ القصوى**﴾ بكسر العين في الموضعين. وقرأه باقي السبعة: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ بضم العين في الموضعين[٢].

والعِدوة والعُدوة معناهما واحد. وأصل العِدوة والعُدوة: شاطىء الوادي وجانبه، فكل ما صاحب شاطىء الوادي وجانبه من الفضاء تسميه العرب: عُدوة وعِدوة، وهو عدوة الوادي[٣].

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/ ٦٠٩).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢١.

(٣) انظر: ابن جرير (١٣/ ٥٦٣).

وقوله ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: عدوة وادي بدر ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ و (الدنيا) تأنيث الأدنى. أي: العدوة الدنيا التي هي أدنى للآتي من المدينة ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ و (القصوى) تأنيث الأقصى، و (الدنيا) تأنيث الأدنى. أي: لأن العدوة التي فيها الكفار هي التي هي أشد قُصُوّاً وبعداً من الآتي من المدينة، والتي فيها النبي ﷺ وأصحابه هي الأقرب للآتي من المدينة.

﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ المراد بالركب: الجماعة الذين هم في عِيْر أبي سفيان بإجماع المفسّرين. والمؤرخون يذكرون أنهم أربعون رجلاً في تلك العِيْر، سمّاهم ركباً. وأكثر علماء العربية يزعمون أن الركب اسم جمع، وأنه ليس بجمع؛ ولذا لم يجعل علماء العربية من جموع التكسير صيغة (فعْل) فأهملوها بالكلية. والذي يظهر من استقراء القرآن العظيم واللغة العربية أن (فَعْل) بفتح فسكون من صيغ جموع التكسير للكثرة في (فَاعِل) إذا كان وصفاً، وإنما قلنا: إن هذا هو الأظهر لكثرة وروده باستقراء اللغة العربية ــ في العربية وفي القرآن ــ فالركبُ هنا على أظهر القولين ــ وإن لم تكد ترى أحداً يقول به من علماء الصرف ــ أن الركب جمع راكب، والعرب تطلق الركب تريد به جمع راكب، فقولهم: إنه اسم جمع لا دليل عليه، والأظهر أنه جمع؛ ولذا فإن العرب يكثر في كلامها إطلاق اسم الركب مراداً به الركبان، جمع راكب، كما قال[1]:

بزينبَ أَلْمِم قبل أنْ يظعن الركبُ وقُلْ إن تَمَلِّيْنَا فما مَلَّك القَلبُ

ويُرجعون إليه ضمائر الجموع كما قال غيلان ذو الرمة[2]:

---

(١) البيت لنصيب بن رباح، وهو في تاريخ دمشق (٦٢/ ٦٠، ٦١، ٦٢).

(٢) البيت في ديوانه ص ٥٩.

استحدثَ الركب عن أشياعهم خبرا أَمْ راجع القلب من أَطْرابِهِ طَرَبُ

ومن إتيان (فَعْل) جمعاً لـ (فَاعِلْ) قولهم: «صَاحِبٌ وصَحْب». ومنه: «آلُه وصَحْبُه» ومنه قول امرىء القيس[١]:

وقُوفاً بها صَحْبي عَليَّ مَطِيَّهم يقُولون: لا تهلك أسى وتَجَمَّلِ

فالصحب جمع صاحب، ومن هذا المعنى: جمع (شَارِب) على (شَرْب) بفتح فسكون، ومنه قول نابغة ذبيان[٢]:

كأَنَّهُ خارجاً من جنبِ صَفْحَتِهِ سَفُّودُ شَرْبٍ نسوهُ عند مُفْتَأَدِ

فرد عليهم ضمير الجماعة في قوله: «سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عند مُفْتَأَدِ» ومنه السَّفْر جمع السَّافِرْ، وفي الحديث: «**أتموا فإنا قوم سفر**»[٣]، ومنه قول الشنفري[٤]:

---

(١) ديوانه ص ١١١.

(٢) ديوانه ص ١٢.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٤٠)، وابن أبي شيبة (٢/ ٤٥٠، ٤٥٣)، وأبو داود في الصلاة، باب متى يتم المسافر، حديث رقم: (١٢١٧)، (٤/ ٩٦)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في التقصير في السفر، حديث رقم: (٥٤٥)، (٢/ ٤٣٠)، والبيهقي (٣/ ١٣٥، ١٥٣)، والطيالسي ص ١١٥، والطحاوي في شرح المعاني (١/ ٤١٧) من حديث عمران بن حصين (رضي الله عنه) مرفوعاً.
وقد جاء نحوه موقوفاً على عمر (رضي الله عنه) عند مالك في الموطأ ص ١٠٥، وعبد الرزاق (٢/ ٥٤٠)، والطحاوي في شرح المعاني (١/ ٤١٩)، وراجع الكلام على هذا الحديث في نصب الراية (٢/ ١٨٧)، التلخيص (٢/ ٢٥٢)، إتحاف السادة المتقين (٤/ ٣٦٨).

(٤) البيت في ديوانه ص ٦١.

كـأَنَّ وغَـاهَـا حجـرتيـه وجَـالَـه أضَاميم من سفْرِ القبائل نُزَّلِ

ومنه: طائر وطير ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ﴾ [النحل: الآية ٧٩] فجعل (مسخّرات) جمعاً نظراً إلى الطير. وهذا يكثر في كلام العرب، والأظهر أن (الفَعْل) هنا جمع (الفَاعِلْ) وصفاً. وعامة علماء العربية ممن تكلموا في جموع التكسير لم يجعلوا (فَعْلا) من صيغ الجموع، ويزعمون أن هذه الذي ذكرنا أن الأظهر جموع أنها أسماء جموع. هكذا يقولون. والمراد بالركب هنا: الجماعة الذين هم في عِيْر أبـي سفيان.

وقوله: ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ ظرف والخبر واقع في هذا الظرف. وقراءة: ﴿أسفلُ منكم﴾[1] شاذة وقراءة الجمهور: ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ هو في مكان، وهذا المكان أسفل، ومعنى كونه أسفل: أن وادي بدر ذاهب إلى جهة البحر، فكل ما قَرُب من البحر منه فهو أسفل، وما بَعُد منه فهو أعلى.

قال بعض العلماء: في هذه الآية الكريمة سؤال، وهو أن يُقال: ما الفائدة في تعيين أن النبـي ﷺ وأصحابه في عُدوة وادي بدر الدنيا، وأن المشركين في عُدوة وادي بدر القصوى، وأن الركب أسفل من الجميع، ما الحكمة في هذا، وأي فائدة في معرفة مواضع القوم كلهم[2]؟

أجاب بعض العلماء عن هذا بأن فيه سراً لطيفاً، قالوا: المعنى نَصركم الله وفرق بين الحق والباطل بأن نصركم عليهم وظروفكم

(١) انظر: البحر (٤/ ٥٠٠).
(٢) السابق.

الراهنة تساعدهم على أن يغلبوكم؛ لأن العُدوة الدنيا كانت أرضها خباراً[١]، أرضاً رخوة تسوخ فيها الأقدام، ولا يتيسر فيها المشي، ولا ماء فيها، فمن فيها عطاش. والعُدوة القصوى كانت بخلاف ذلك يسهل المشي عليها، فهم في هذا كانوا أولى بأن يسبقوكم على الماء ويمنعوكم منه فيقتلوكم، وأنه في ذلك الوقت عيرهم نجت، وتمّت نعمتهم، وأموالهم متكاثرة، وهم في الموضع الذي هو أحسن من موضعكم، ومع هذا كله فقد نصركم الله عليهم؛ لأن الله لما أرسل المطر المتقدّم في قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: الآية ١١] كانت العدوة القصوى طيناً ووحلاً، وكانت العدوة الدنيا رملها متلبد تمشي عليه الأقدام بخفّة، فكان هذا أنسب؛ ولذا قال: ﴿أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] ثم قال في حكمته وقع هذا ونزل هذا الفرقان وأنتم على هذه الحالة تكادون أن تجتمعوا على غير ميعاد؛ لأنه لو تواعدتم وضرب بعضكم لبعض أجلاً وميعاداً لاختلفتم في الميعاد لو كنتم في هذا العدد من الضعف وكان بينكم وبينهم موعد سابق لجبنتم ولفشلتم عنهم، ولما تجرأتم على الإقدام عليهم، ولو كنتم مستعدّين وعندكم جمع قوي لفشلوا وجبنوا ولم يتجرؤا عليكم، فجمعكم الله بغير ميعاد لحكمته (جل وعلا)؛ لأن غزوة بدر شيء جعله الله (جل وعلا) بقدرته لم تَتَسَنَّ أسبابه، إلا أن الله (جل وعلا) سبّبها، ولذا قال: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أي: واعد بعضكم بعضاً في الموضع الذي تلتقون فيه والمكان الذي تلتقون فيه، ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي

(١) قال في القاموس: «والخَبَار كسحاب: ما لان من الأرض واسترخى». اهـ (مادة: الخبر) ص ٤٨٩.

﴿ٱلْمِيعَٰدِ﴾ أي: لخاف بعضكم من بعض، وجَبُن بعضكم عن بعض، ولما اتّفقتم ليحصل ما حصل، ولكن الله جمعكم على غير ميعاد بحكمته (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ ولكن الله جمعكم على غير ميعاد فخرجتم أيها المسلمون إلى عِيْر أبي سفيان، وخرج الكفار إلى إنقاذ عِيْرهم، وشاء الله أن تجتمعوا ويوقع الله ما أوقع. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا﴾ هو إعزاز دين الإسلام، وبيان برهانه ودليله، وفرق الحق من الباطل بإعزاز الدين، وإعلاء كلمة الله، وإذلال الكفر، وقتل رؤسائه وصناديده. كان هذا أمراً مفعولاً لا محالة، شاءه الله وقدَّره وهو واقع لا محالة إذا جاء وقته المحدّد له في مكانه المحدّد له في علمه جل وعلا. وهذا معنى قوله: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ٤٢، ٤٣].

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] قرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير في رواية البزّي، وعاصم في رواية شعبة أبي بكر: ﴿ويحيَىٰ من حَيِيَ عن بينةٍ﴾ بفك الإدغام في (حَيِيَ) وقرأه بقية السبعة: ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ بإدغام الياء في الياء[1]. وهذه الكلمة إنما كتبت في المصاحف العثمانية بحاءٍ

(١) انظر: السبعة ص ٣٠٦، الإتحاف (٢/ ٨٠).

وياءٍ واحدة، ولكنه عند الضبط الذين يقرؤون (حيي) بياءين بفك الإدغام يكتبون ياءً حمراء يبيّنون بها أنها لم تكن في رسم المصحف العثماني. فهما قراءتان سبعيتان، ولغتان فصيحتان ﴿ويحيى من حيِيَ عن بينة﴾ ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾.

وقوله: ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ إنما أوقع الله ما أوقع في بدر من الفرق بين الحق والباطل المبيّن في قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الفرقان: ٤١] هذه (لام كي) المضارع بعدها منصوب بـ (أن) مضمرة. والمعنى: فرق بين الحق والباطل بإيضاح أن دين الإسلام حق، وأن عبادة الأوثان باطل؛ لأجل أن يهلك من هلك؛ لأجل أن يهلك بكفره المتمادي على الكفر بعد وضوح بطلانه عن بينة، أي: عن دليل واضح وبرهان قاطع لا يُشك في الحق معه؛ لأن البراهين المحسوسة يدركها الغبي ولا تختص بالعالِم. ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ بدين الإسلام ﴿مَنْ حَيَّ﴾ به ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي: عن دليل واضح؛ لأن ذلك الفرقان جعله الله بوقعة بدر ليؤمن المؤمنون على برهان وبصيرة وبيان قاطع، ويكفر الكافرون على وضوح أيضاً وبيان وبرهان قاطع.

والبيّنة[1]: كل دليل لا يترك في الحق لبساً تسميه العرب (بيّنة) ومنه قيل للشهود الشَّاهِدين على الحق: (بيّنة)؛ لأنهم يبيّنون ويوضّحون من له الحق ومن عليه الحق. وهذا هو التحقيق في معنى قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ يسمع كل ما يقوله خلقه، ويعلم كل ما يفعله خلقه.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

وكونه (جل وعلا) سميعاً عليماً هذا هو البرهان الأكبر والزاجر الأعظم الذي لا تكاد تقلب ورقة واحدة من المصحف الكريم إلا وجدته فيه؛ لأن المصحف الكريم لا تكاد تنظر في موضع منه إلا وتجد فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٣١] ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٣] ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٤] ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: الآية ٥] لا تكاد تحصي هذا؛ لأن هذا أكبر واعظ وأعظم زاجر أنزله الله من السماء إلى الأرض، وأنه هو الذي يحصل به النجاح في محكّ الاختبار الإنساني بأسره.

وإيضاح هذا الكلام: أن الله (جل وعلا) بيّن في آيات من كتابه أن الحكمة التي خلق السماوات والأرض والخلائق من أجلها هي أن يبتلي خلقه في نقطة واحدة هي: إحسان العمل[1]، وليست بكثرة العمل، قال في أول سورة هود: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧] ولم يقل: أكثر عملاً، وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بيّن الحكمة فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: الآية ٧] ولم يقل: أكثر عملاً. وقال في أول سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ثم بيّن الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية ٢] ولم يقل: أكثر عملاً. فدلّت هذه الآيات على أن محكّ الاختبار هو إحسان العمل؛ ولذا كل الناس يقول: «ليتني أدركت ما أنجح به في هذا الاختبار، وعرفت الطريق الذي يُتوصّل بها إلى أن أكون أحسن

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

عملاً». وكان جبريل (عليه الصلاة والسلام) لاحظ شدة الحاجة إلى هذه النقطة الحسّاسة فأراد أن يبيّنها لأصحاب رسول الله ﷺ ليعلّمهم هذا العلم العظيم، فجاء في صورة أعرابي في حديثه الصحيح المشهور، وقال للنبي ﷺ في جملة ما سأله عنه: يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أخبرني عن الإحسان. يعني: وهو الذي خُلق الخلق للاختبار فيه، فبيّن له النبي ﷺ أن طريق الإحسان ووسيلته الوحيدة هي هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم الذي هو مراقبة خالق هذا الكون (جل وعلا). فقال له: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1]. ولأجل تأكد هذا العلم وإحضاره في ذهن كل مسلم كنت لا تقلب ورقة من المصحف الكريم إلا ووجدت فيها هذا الزاجر الأكبر والواعظ الأعظم: أن ربّك مطّلعٌ على كل ما تقول وكل ما تفعل. ولو علم أهل بلد أن أمير ذلك البلد يعلم كل ما يفعلونه بالليل من الخسائس لباتوا متأدّبين لا يفعلون إلا ما لا يجر لهم ضراً، وهذا خالق السماوات والأرض (جل وعلا) يعلم خطرات القلوب، ومع هذا لا يبالون بهذه الزواجر العظام والمواعظ الكبار.

وقد ضرب العلماء لهذا مثلاً[2] قالوا: ولو فرضنا ـ ولله المثل الأعلى ـ أن في هذا البراح من الأرض ملكاً عظيماً شديد البأس والبطش إذا انتُهكت حرماته، وحوله نساؤه وجواريه وبناته، وحوله جلوس، هل يخطر في ذهن أحد أن أحداً من أولئك الجلوس يهتم بريبة، أو غمزة عين، أو إشارة؟ لا وكلا، كلهم خاضع خاشع

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

الجوارح، أمنيته السلامة. والله (جل وعلا) ــ وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ــ أعظم بطشاً وأشد نكالاً، وأعظم اطلاعاً، وحِمَاه في أرضه محارمه، فالمسلمون إذا ذكروا هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم حاسبوا، ولم يفعلوا ما يخجلهم أمام ربهم (جل وعلا)؛ ولذا كثر في القرآن هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم بعد كل أوامر وكل نواهي، ومنه قوله هنا: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤٢].

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٣] قال بعض العلماء: (إذ) بدل من الظروف قبله. وقال بعضهم: منصوب بـ (اذكر) مقدراً[(١)].

ومعنى الآية الكريمة: أن النبي ﷺ رأى على التحقيق فيما يرى النائم ــ ومعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي لا شك فيها ــ أراه الله في نومه أن المشركين قليل جداً. وبعض العلماء أنكر معناها الواضح المتبادر للذهن؛ لأنه لم يفهم الحقيقة. قالوا: كيف يُريهم قليلاً في منامه ورؤيا الأنبياء حق، والنبي ﷺ يعلم أنهم حوالي ألف، كيف يعلم أنهم قريبون من الألف ويرى في المنام خلاف ما هو يعلم مع أن رؤيا الأنبياء حق[(٢)]؟ وغفل من قال هذا القول وإن قال به جماعة من أجلّاء العلماء؛ لأن رؤيا النبي ﷺ حق، وتأويلها حق، كما قال يوسف: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: الآية ١٠٠] لأن معنى رؤياه هو ما سيأتي في قوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٣]. لأن الله قلّل كلاً من الطائفتين في عين الأخرى في اليقظة

(١) انظر: الدر المصون (٥/ ٦١٥).

(٢) انظر: البحر (٤/ ٥٠١).

حتى إنهم لما تصوبوا من عقنقل بدر قال ابن مسعود (رضي الله عنه): قلت لصاحبي: أتراهم يبلغون السبعين؟ قال: أظنّهم يبلغون المئة[١]. من شدة تقليل الله لهم في عيون الصحابة، والله قلل الصحابة في عيون المشركين حتى قال أبو جهل: إنهم أَكَلَة جزور. يعني: الجزور قد يأكلها ناس قليلون. فقلّل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء، فبعد أن التحم القتال والتقى الصفّان أكثر الله المؤمنين في أعين الكافرين حتى صاروا يظنونهم ضعفيهم، كما تقدّم في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ﴾ إلى قوله ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: الآية ١٣] لأن الكفار بعيونهم يرون أن المسلمين أكثر منهم بالضِّعْف؛ لأن الله فعل كل ذلك لحكمة قبل أن يتلاقى هؤلاء وهؤلاء، جعل هؤلاء قليلاً في أعين هؤلاء، وهؤلاء قليلاً في أعين هؤلاء، ثم لما التحم القتال والتقى الصفان أَكْثَر المسلمين في أعين الكافرين فظنوا أنهم أكثر منهم مرتين؛ ولذا قال هنا: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٣] لأن النبي ﷺ أراه الله الكفار في النوم قليلاً وأخبر بها أصحابه ففرحوا بذلك وقويت قلوبهم وتهيؤوا للقتال، والله (جل وعلا) صدّق تلك الرؤيا بأن قلّلهم في أعينهم يوم بدر، كما يأتي الآن، ثم قال: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ لو أراك في النوم أنهم عدد ضخم كثير كالألف وأخبرتهم بذلك لخافوا وقالوا: لم نستعد لهؤلاء، وإنما خرجنا للعير!! كما تقدم في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: الآيتان ٥، ٦] وهذا معنى

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٣/٥٧٢)، وعزاه في الدر (٣/١٨٩) لابن أبي شيبة وابن جرير وأبي الشيخ وابن مردويه.

قوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ الفشل ضد النجاح، وهو الجبن والخور. أي: لأصابكم الخور والجبن وتنازعتم في هذا الأمر، هذا معنى قوله: ﴿لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ بأن قال قوم: نذهب إليهم وإن كانوا كثيراً. وقال آخرون: ما ذهبنا إلا للعير، وما ذهبنا مستعدين لنفير كثير. وحصل فيكم الفشل والتنازع في الأمر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿سَلَّمَ﴾ من هذا الفشل ومن هذا التنازع بأن أرى رسوله ﷺ في المنام أنهم قليلون لتتجرؤوا عليهم، وقللكم في أعينهم فعلاً يقظة رأي العين، وقللهم في أعينكم تصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ هذا معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ المراد بذات الصدور: ما يصاحب الصدور ويكمن فيها من الخواطر والهواجس، وقد علم أنه لو أراه إياهم كثيراً لتنازعتم في ذلك الأمر ولفشلتم، فهو يعلم بما يهجس في الصدور، وما يخطر فيها، وما توسوس به النفوس، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤٣].

ثم قال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٤] فهذا رأي في العين تصديقاً لرؤياه ﷺ واذكر حين يريكموهم الله في منامك قليلاً. الصحيح أن (قليلاً) هنا و (كثيراً) أنهما حالان، وأنها (رأى) البصرية عُديت بالهمزة فتعدت إلى مفعول آخر، وأن (قليلاً) ليس مفعولاً ثالثاً، خلافاً لمن قال من بعض العلماء: إنها عُديت هنا إلى المفعول الثالث. والأصوب: أن (قليلاً) هنا حال، وأنها ليست بمفعول ثالث؛

لأن (رأى) هذه بصرية لا علمية على التحقيق[١]. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ يعني ترونهم كأنهم شيء قليل لتتجرؤوا عليهم وتشجعوا وتقوى نفوسكم عليهم، وقد جاء عن ابن مسعود (رضي الله عنه) أنهم لما تصوبوا من كثيب بدر قال لرجل معه: أتظنّهم يبلغون سبعين ـ وهم ألف ـ فقال الرجل: أرى أنهم يبلغون المئة[٢]. هذا من شدة تقليلهم في أعينهم ليتجرؤوا عليهم، كذلك ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ لما رأوهم قالوا: هؤلاء أَكَلَةُ جزور ليسوا بشيء. وقال أبو جهل: لا تقتلوهم بل خذوهم واربطوهم لنذهب بهم حيث نشاء. من شدة استقلاله لهم، وظنه أنهم لا شيء!! وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ ليتجرأ هؤلاء على هؤلاء، وهؤلاء على هؤلاء؛ لأجل أن يقضي الله أمره، وينفذ إرادته ومشيئته بتهيئته أسباب ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ﴾ بذلك ﴿أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ في علمه، وأزله، منفذاً في وقته لا محالة؛ لأن الله (جل وعلا) يقضي ويقدّر، فيقدر كل ما شاء ثم يقضيه منجزاً في أوقاته في أماكنه على هيئته وصوره التي سبق بها علمه (جل وعلا) ولذا قال: ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ جل وعلا وحده ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ قرأ هذا

(١) انظر: الدر المصون (٥/ ٦١٥).

(٢) مضى قريباً.

الحرف ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو[١]: ﴿وإلى الله تَرْجِعُ الأمور﴾ ببناء الفعل للفاعل. وقرأه بقية السبعة: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ ببناء الفعل للمفعول. فـ(الأمور) على الأول فاعل (ترجع) وعلى القراءة الثانية: نائب فاعل (تُرجع)[٢]. و(الأمور) جمع أمر، ويعم كل الشؤون. والمعنى: مدار الأمور ومصيرها إليه (جل وعلا) كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: الآية ٥٣] وقد صار إليه هذا الأمر وآل إليه فنفذ فيه مشيئته وقدرته، وهيأ الأسباب حتى هزم الكفرة وقتل صناديدهم ورؤساءهم وكسر شوكتهم على أيدي أوليائه المسلمين، ونصر نبيه ﷺ وأصحابه وأيّدهم بنصره، وهذا قضاؤه وقدره (جل وعلا)، والله يهيؤ الأسباب، ولو شاء فعل بلا سبب، إلا أنه اقتضت حكمته أن يرتب المسبّبات على أسباب، ويسبب للأشياء (جل وعلا) سبحانه وتعالى.

[٥/ب] / ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ

---

(١) قرأه بالبناء للفاعل: ابن عامر وحمزة والكسائي.
وبالبناء للمفعول: ابن كثير وأبو عمرو ونافع وعاصم.
انظر: السبعة ص ١٨١، المبسوط لابن مهران ص ١٤٥، إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٨٠).

(٢) انظر: حجة القراءات ص ١٣٠ ــ ١٣١.

فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ [الأنفال: الآيات ٤٥ ــ ٤٨].

يقول الله جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال: الآية ٤٥].

هذه الآية الكريمة تضمنت تعليم الله لنبيه وأصحابه بعض الخطط العسكرية، قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ ناداهم باسم الإيمان ليكون ذلك مدعاة للقبول: ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ أي: طائفة. أي: جيشاً من جيوش الكفار يقاتلونكم إذا لقيتموهم في ميدان القتال والتحمتم أنتم وهم ﴿ فَٱثْبُتُوا۟ ﴾ يعني: لا تنهزموا، ولا تولوهم الأدبار، فاصمدوا أمامهم واثبتوا، ولا تتزعزعوا، ولا تنهزموا، ولا ترجعوا القهقرى. وهذا تعليم من خالق السماوات والأرض للمسلمين إذا التحم القتال أن يثبتوا ويصمدوا صمود الرجال، ولا ينهزموا ولا يرجعوا القهقرى.

ثم إنه علمهم التعليم الأكبر الذي هو سبب للنصر والظفر في جميع الميادين، قال: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (كثيراً): نعت لمصدر محذوف. أي: ذكراً كثيراً ﴿ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ أي: لأجل أن تفلحوا[1]. وهذا هو التعليم السماوي للخطط الميدانية التي يحصل بها انهزام الكفر وانكسار شوكته، كأنه يقول لهم: في هذا الوقت الضنك الحرج الذي التحمتم فيه مع جيوش الكفار في هذا الوقت قووّا صلتكم بمن خلقكم ــ جل وعلا ــ واذكروه ذكراً كثيراً. والمعنىٰ: أنكم عند هذه الشدائد، وعند التحام القتال والمفروض أن

(١) انظر: الأضواء (٢/ ٤١٣).

الرجال تنزل رؤسهم عن أعناقهم، في هذا الوقت الضنك الحرج وثُّقوا صلتكم بالله، واذكروا ربكم ذكراً كثيراً، فبذلك ينزل عليكم المدد من السماء، ويتسنىٰ لكم النصر، وتقهرون الكفار، وتنكسر شوكة الكفر. هذه عادة التعاليم السماوية، تجمع للناس بين ما تنتعش به أرواحهم، وبين ما تتقوىٰ به أجسامهم[1]، فالتعاليم السماوية تعطي الإنسان نصيب جزئيه، أعني: نصيب جسمه ونصيب روحه، وإذا أُهمل أحد النصيبين تحقق الفشل والخور والهزيمة؛ لأن هذا الإنسان هو حيوان مركب من عنصرين مختلفين اختلافاً أساسياً جوهرياً؛ أحدهما: يُسمىٰ الجسم، والثاني: يُسمىٰ الروح، فالإنسان جسم وروح، فأحد عنصريه اللذين هما أساساه: الروح، والثاني: الجسم. والروح والجسم مختلفان اختلافاً أساسياً جوهرياً، وبحسب اختلافهما الأساسي تختلف متطلباتهما في هذه الحياة، فللجسم متطلبات لا بد له منها، وللروح متطلبات لا بد له منها، ولا تغني متطلبات هذا عن متطلبات هذا. والقرآن العظيم يعطي كُلاًّ من العنصرين حقه كما ينبغي. يقول: أعطوا الأجسام حقها بالثبوت والصمود، وأعطوا الأرواح حقها بتغذيتها بصلتها بخالقها وتقويتها، وانتظار المدد من السماء.

ونظير هذه الآيات: إذا قرأتم آيتين من سورة النساء فهمتم هذا المعنىٰ كما ينبغي، وهما الآيتان اللتان أنزلهما الله في صلاة الخوف، فإنه يقول لنبيه: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ [النساء: الآية ١٠٢] هذا وقت التحام

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

الكفاح المسلح، فالمفروض أن الرجال تنزل رؤسهم عن أعناقهم في هذا الوقت الضنك الحرج، فالقرآن الذي هو تنزيل رب العالمين يوضح الخطة العسكرية كما ينبغي[1]، علىٰ الوجه الذي يردون فيه العدو، وليتسنىٰ لهم في ذلك الوقت الاتصال بخالق السماوات والأرض وأداء أدب من الآداب الروحية الذي هو الصلاة في الجماعة في ذلك الوقت، فالصلاة في الجماعة وقت التحام ذلك الكفاح المسلح هي من ذكر الله المأمور به هنا في سورة الأنفال في قوله: ﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ فالمؤمنون إن ساروا في ضوء هذه التعاليم السماوية، وكانوا في طاعة الله، وفي ذكر الله، وتقدموا صابرين في الميدان فإنهم لا يقوم أمامهم شيء، كما هو مشاهد في التاريخ لأن هؤلاء الرجال الذين عُلِّمُوا هذا التعليم في آية الأنفال هذه ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ وفي سورة النساء: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: الآية ١٠٢] ليصلّوا الجماعة في ذلك الوقت الحرج، ويقوّون صلتهم بالله، هؤلاء الذين أخذوا بهذه التعاليم هم الذين أخذوا كنوز قيصر وكسرىٰ، وحملوا نور الإسلام في مشارق الدنيا، ودان لهم جميع الأمم، ورفعوا رايات الإسلام في جميع أقطار الدنيا. أما هؤلاء الذين يبيتون يشربون الخمور، وتعزف عليهم القيان، وهم في المجالس الماجنة الخليعة، ثم بعد ذلك يصبحون في الميدان فهؤلاء ليسوا برجال ميدان، ولا يُرجىٰ منهم تحقق شيء، ولا رد مسلوب من بلاد، ولا من مجد، ولا من شيء!! فما دام الذين يتقدمون في خطوط النار الأمامية فجرة، شَرَبَة للخمور، أصحاب معازف وغواني وملاهي، فهؤلاء من يريد النصر

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٦) من سورة الأنعام.

ويُؤمّله من ورائهم فهو مغفل؛ لأن هؤلاء ليسوا برجال ميدان، فلا يمكن أن يردوا مسلوباً من مجد ولا من بلاد، ولا أن ينتصفوا من أحد كائناً ما كان؛ لأنهم تركوا التعاليم السماوية والخطط العسكرية التي هي كفيلة بقمع الكفار، وإيقافهم عند حدهم، وكسر شوكة الكفر، وإعلاء كلمة الله جل وعلا.

فالحاصل أن السلاح الأكبر في ميادين القتال هو ذكر الله ــ جل وعلا ــ وطاعته وامتثال أمره؛ لأنه هو الذي منه النصر والمدد. والله كذلك يأمر خلقه ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أما الذين إذا لقوا فئة فلا يذكرون الله، وليس في قلوبهم خشية من الله، ولا عمل بدينه، فهؤلاء لا يُؤمِّل من ورائهم فائدة إلا مغفل مثلهم لا يفهم شيئاً. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ذكراً كثيراً؛ لأن ذكركم لله كثيراً تتقوىٰ به أرواحكم، وتتصلون به بربكم، وينزل لكم بسببه المدد من خالق السماوات والأرض.

والصحابة (رضي الله عنهم) كذلك كانوا يفعلون، يذكرون الله ويخافونه في الميدان فيأتيهم النصر؛ ولذا قهروا الدنيا بأسرها، وأخذوا كنوز قيصر وكسرىٰ كما هو معلوم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ قال بعض العلماء[1]: (لعل) في القرآن كلها مشمة معنىٰ التعليل، فهي تفيد معنىٰ التعليل، إلا التي في الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: الآية ١٢٩]

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

قالوا: فهي بمعنىٰ: كأنكم. والتحقيق أن لفظة (لعل) تأتي في اللغة العربية مُراداً بها التعليل، وهو معنىٰ معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[١]:

فقُلتمُ لنا كُفُّوا الحُروبَ لعَلنَّا نكُفُّ ووثَّقْتمُ لنا كُلَّ مَوْثِقِ
فلما كفَفْنا الحربَ كانتْ عُهودُكمُ كشِبْهِ سَرَابٍ بالفلا مُتألِقِ

فقوله: «كفوا الحروب لعلنا نكف» أي: لأجل أن نكف عنكم.

وقوله: ﴿تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ هو مضارع (أَفْلح الرجل، يُفْلح، فهو مُفْلح). إذا نال الفلاح. والفلاح يُطلق في لغة العرب إطلاقين معروفين مشهورين[٢]:

أحدهما: تطلق العرب الفلاح بمعنىٰ الفوز بالمطلوب الأكبر، فكل من فاز بالمطلوب الذي كان يهتم به جداً، وهو من أكبر مطالبه، تقول العرب: أفلح هذا. أي: فاز بما كان يطلب، وهذا معنىٰ معروف في كلامها، ومنه قول لبيد بن ربيعة[٣]:

فَاعْقِلي إن كُنتِ لمَّا تَعْقِلي ولَقَد أَفْلحَ من كانَ عَقَل

أي: من رزقه الله العقل ففاز بالمطلوب الأكبر في الدنيا.

الإطلاق الثاني: هو إطلاق العرب الفلاح على البقاء السرمدي في النعيم، فالعرب تقول: أفلح هذا، إذا كان باقياً خالداً في نعيم سرمدي، وهذا المعنىٰ معروف مشهور في كلام العرب أيضاً، ومنه

---

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨) من سورة الأعراف.

قول لبيد بن ربيعة أيضاً[١]:

لــو أنَّ حيــاً مُــدرك الفــلاحِ لنَــالَــهُ مُــلاعِــبُ الــرمــاحِ

يعني بقوله: «مدرك الفلاح»، أي: مدرك البقاء بلا موت، ونظيره من كلام العرب: قول كعب بن زهير، أو الأضبط بن قريع، كما قيل بكل منهما[٢]:

لكُــلِّ هَــمٍّ مــن الهُمُــوم سَعَــة والمُسْيُ والصُّبحُ لا فلاحَ معه

أي: لا بقاء في الدنيا مع تكرر الليل والنهار.

إذا عرفتم معنيي الفلاح فمن أطاع الله (جل وعلا) وذكره كثيراً نال الفلاح بمعنييه، ففاز بمطلوبه الأكبر وهو الجنة ورضا الله، ونال البقاء السرمدي الأبدي في نعيم الجنات.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن الذين إذا لقوا فئة من فئات الكفار في ميدان القتال ولم يثبتوا أو لم يذكروا الله كثيراً، أنهم لا يفلحون. وهو كذلك؛ لأن النصر من الله. كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ١٠] قال في بدر: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مع أنه أنزل ملائكة السماء ناصرين، يعني: لا تظنوا أن الملائكة ينصرونكم، الناصر هو الله وحده (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤٥].

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] هذه التعاليم السماوية الكفيلة بالنصر والظفر وقمع القردة الكفرة وإيقافهم عند

(١) مضى عند تفسير الآية (١١١) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

حدهم ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما يأمركم به على لسان رسوله ﷺ، وأطيعوا رسوله ﷺ فيما يبلّغكم عن ربكم ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤].

والياء في قوله: ﴿أَطِيعُواْ﴾ الياء التي بين الطاء والعين أصلها (واو) لأن المادة من (الطَّوع) فهو أجوف واوي العين، أصلها: «أَطْوِعُوا» من «الطَّوع» لا يائي من (الطَّيْع)[1].

ومعنىٰ إطاعة الله: هي الانقياد لامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، في النيات والأفعال وكل شيء، وهذا معنىٰ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ أصله: لا تتنازعوا، لا ينازع بعضكم بعضاً وتختلفوا؛ لأن الناس غالباً تختلف نحلُهُم ووجهات نظرهم. يعني: إذا اختلفت وجهات نظركم لا تتنازعوا وكل منكم ينصر ما رآه فيخالف أخاه، بل كونوا متفقين دائماً؛ لأن الله (جل وعلا) شرع لكم طريقة تتفقون عليها وهي اقتفاء نبيكم ﷺ والسير في ضوء الكتاب الذي أنزله عليه والسنة التي تركها ﷺ. وما دام هو ﷺ موجوداً بين أظهرهم فمعلوم أن المصير إلى ما يقوله ﷺ، وهذا معنىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ فإنه نهاهم عن النزاع؛ لأن التنازع أكبر أسباب الفشل.

والتنازع غالباً يكون بسبب الأغراض الشخصية، وتقديم الأغراض الشخصية الدنيوية على المصالح العامة، فهذه البلية سوسة في الدنيا، وهي أضرّ أدواء هذا العالم، وهي تقديم المصالح

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٤٢١، ٤٢٢.

الشخصية علىٰ المصالح العامة، وقد نزلت بسببها بليّة يتضمنها إشكال أزاله الله بفتوىٰ سماوية من عنده؛ لأن الله (جل وعلا) ربما سلط بعض الكفار على بعض المسلمين، وهي مشكلة واقعة الآن، يقول هؤلاء الشباب ــ الذين هم خفافيش أعماهم نور الإسلام، فصاروا يتطلبون النور في ظلام آراء الكفرة الفجرة ــ يقولون: كيف نكون على الحق وديننا دين حق ونحن مستضعفون مضطهدون في أقطار الدنيا، والكفار الذين تقولون: إنهم على باطل وليسوا على حق هم الذين معهم القوة والسيطرة، يبتزون ثرواتنا، ويضطهدوننا في أقطار الدنيا؟ وهذه المشكلة إنما يسببها التنازع والفشل، والأغراض الشخصية، وتقديمها على المصالح العامة. وهذا الإشكال بعينه قد استشكله أصحاب رسول الله ﷺ والنبي ﷺ موجود بين أظهرهم، والمَلَك يروح ويغدو بالوحي، فأفتىٰ الله فيه فتوىٰ سماوية هي قرآن يتلىٰ في سورة آل عمران، وذلك أن النبي ﷺ يوم أحد لما صفّ الصفوف، والتحم القتال بين المسلمين والمشركين، وكان المسلمون سبعمائة مقاتل، والمشركون ثلاثة آلاف مقاتل، أخذ عبد الله بن جبير ــ أخا خوّات بن جبير ــ (رضي الله عنهم) وأمّره على طائفة الرماة، وقال له: «**كونوا عند سفح هذا الجبل ــ يعني جبل أُحد ــ ولا تأتونا أبداً، إن غَلَبَنَا القوم فلا تأتونا، وإن غلبناهم فلا تأتونا**»[1]، وأمرهم بأن يثبتوا عند سفح الجبل لئلا يأتيهم القوم من الوراء من بينهم وبين

(١) البخاري في الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، حديث رقم: (٣٠٣٩)، (٦/ ١٦٢)، وأطرافه في: (٣٠٤٣، ٣٩٨٦، ٤٠٦٧، ٤٥٦١).

الجبل، فلما التحم القتال في المرة الأولىٰ، وهلك حملة اللواء من بني عبد الدار، وانهزم المشركون هزيمة منكرة، ترك الرماة أمر رسول الله ﷺ لمصالحهم الشخصية، وهي الانتفاع بمال الغنيمة، فقال لهم رئيسهم عبد الله بن جبير (رضي الله عنه): أما أنا فلا أُخالف قول رسول الله ﷺ. وبقي معه نفر قليل. والآخرون راحوا يطلبون الأغراض الشخصية الدنيوية، وتركوا أمر الرسول. فنظر المشركون فإذا الجبل ليس دونه رجال، فجاؤوا من سفح الجبل وأتوهم من وراء ظهورهم، ودارت عليهم رحىٰ الحرب، وأوقع الله ما أوقع بالمسلمين، كما قصّه في سورة آل عمران في يوم أحد، قُتل من خيار الأنصار سبعون رجلاً، وقُتل عم رسول الله ﷺ أسد الله حمزة بن عبد المطلب، وقُطع أنفه وأُذناه، وأُخذ بعض كبده لهند بنت عتبة، وقُتل ابن عمته عبد الله بن جحش، وقُتل حامل رايته مصعب بن عمير العبدري (رضي الله عنه). وشماس بن عثمان المخزومي، وأوقع الله ما أوقع بسبب تلك الأغراض الشخصية وتقديمها علىٰ أمر الرسول ﷺ، وجُرح ﷺ وشُقت شفته السفلىٰ اليمنىٰ، وكُسرت رباعيته، وشُج حتىٰ غاص في جبهته بعض حِلَق المغفر الذي هو على رأسه، وانتزعه أبو عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه) فسقطت معه ثنيتاه العليان لقوته، فكان أثرم (رضي الله عنه)، أي: ساقط الثنيتين. لما وقع هذا استشكله أصحاب رسول الله ﷺ هذا الاستشكال، وقالوا: كيف يُدال منا المشركون، وتكون لهم دولة علينا، ويقتلوننا ويجرحوننا وفينا رسول الله ﷺ ومعنا الحق؟ فهذا هو وجه الإشكال. فأفتىٰ الله بإزالة هذا الإشكال فتوىٰ سماوية، قرآناً يُتلى في آل عمران، قال:

﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٥] يعني بقتل السبعين الذين قُتلوا منكم يوم أُحد ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ سابقاً يوم بدر بأن قتلتم سبعين وأسرتم سبعين على أصح التفسيرين وأكثرهما قائلاً، ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ وهو محل الشاهد، هذا استشكال الصحابة ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ من أين جاءنا هذا، وكيف يُدالون منا، ونحن على حق، وهم علىٰ باطل، وفينا رسول الله ﷺ، وعلينا ينزل القرآن؟ كيف يُدالوان منا؟ هذا الاستشكال نص عليه الله في قوله: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ فأجاب الله بفتواه الإلٰهية السماوية قال لرسوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ من قِبَلِكم جاءت البلية، وأنتم الذين جنيتموها على أنفسكم، وقوله: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ فيه إجمال أوضحه الله في آية سورة آل عمران هذه، أوضحه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٢] يعني: بالنصر على الأعداء ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ يعني تقتلونهم قتلاً ذريعاً يطفأ معه الحس، ويزول الحس بعده. ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ من هذه البلايا جاءت البلية ووقع ما وقع؛ ولذا نهىٰ الله عن هذا قال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] وأكبر أسباب النزاع: تقديم المصالح الشخصية والأغراض الدنيوية على المصالح العامة. وهذه أكبر البلايا التي يأتي من قِبَلِها الشر للمسلمين؛ لأنه قد يخالف بعض المسلمين فتكون العقوبة عامة للجميع. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ [الأنفال: الآية ٤٦].

الفشل: ضد النجاح. قال بعض العلماء: معناه تضعفوا

ويستولي عليكم الخور[١] ﴿فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ الإنسان إذا كان في عمل يدبره ليُحصّل وراءه نتيجة فإن تم له عمله ووقع ما أراد قالت العرب: نجح في أمره. وإن كان عكس ذلك قالوا: فشل في أمره، لم ينجح. وقال بعض العلماء: ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ يستولي عليكم الضعف والخور؛ لأن النزاع من أكبر أسباب الضعف والخور وعدم انتظام الكلمة، وهذا النزاع والاختلاف هو مشكلة عظمىٰ في أقطار الأرض؛ لأن من يتسمّون باسم المسلمين ينازع بعضهم بعضاً، ويعادي بعضهم بعضاً، وقد بين تعالىٰ في سورة الحشر أن اختلاف القلوب، والمنازعات الشديدة، وتشتت الآراء والأفكار، وعدم الاتحاد، أن سبب هذا الذي يجتلبه به إنما هو ذهاب العقل وعدم العقل؛ لأن العاقل لا يتسبب في المخالفة؛ لأنك إذا اختلفت أنت وأخوك كان تدبيره وكُلّ ما عنده من قوة يعمل ضدك، فإذا كنت عاقلاً ــ ولو عقلاً دنيوياً ــ كان تسببك في أن يكون معك؛ لأن كون قوته وما أعطاه الله في صالحك خير لك من أن يكون في غير ذلك؛ ولذا بيّن تعالىٰ أن سبب اختلاف القلوب هو ضعف العقول وعدمها، قال في قوم ــ وهم اليهود لعنهم الله ــ ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: الآية ١٤] أي: مختلفة مفترقة، فرق متعادية مختلفة. ثم بين العلة التي أوجبت تشتت تلك القلوب قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾[المائدة: ٥٨] وقد تقرر في علم الأصول أن العلل تعمّم معلولاتها وتخصصها كما هو معلوم في محله[٢]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] الفاء

(١) انظر: ابن جرير (١٣/ ٥٧٥).

(٢) انظر: نثر الورود (٢/ ٤٧٣).

سببية. والمعنىٰ: أن التنازع سبب للفشل، والفشل: عدم النجاح والضعف والخور وعدم التمكن. والفاء سببية، والمضارع منصوب بعدها بـ (أن) المضمرة كما هو معلوم في محله. وقوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ معطوف على المنصوب بـ (أن) المضمرة قبله.

وقوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ للعلماء في المراد بالريح هنا أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً[(١)]:

قال بعضهم: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ معناه: تذهب قوتكم. وهذا كالتوكيد لقوله: ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ لأن من فشلوا فقد ذهبت قوتهم، وحاصل الريح هذه في كلام العرب أنهم يريدون بها الدولة أعني: وتذهب دولتكم ويكون الأمر إلى غيركم؛ لأن العرب تقول: «هبت ريح فلان». أي: دالت دولته وجاء وقته الذي يتمكن به. وهذا معنىٰ معروف في كلام العرب وفي لغتها التي نزل بها القرآن، وهو معنىٰ مشهور معروف. «هبت ريحك فاغتنم» أي: دالت دولتك وجاء الوقت الذي أنت تتمكن فيه. هذا معنىٰ معروف في كلام العرب، وعلىٰ هذا المعنىٰ ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: تنعدم دولتكم وتضيع، ويصير الأمر إلى غيركم، وهذا المعنىٰ معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[(٢)]:

يا صاحِبَيَّ ألا لا حيّ بالوادي إلا عبيداً قعوداً بين أذواد

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/ ٥٧٥)، القرطبي (٨/ ٢٤)، البحر (٤/ ٥٠٣)، الأضواء (٢/ ٤١٤).

(٢) البيتان في الأغاني (٢٠/ ٣٩١)، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (١/ ٣٤٠)، والبيت الثاني في البحر (٤/ ٥٠٣)، الدر المصون (٥/ ٦١٧)، وقد ذكرهما الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٢/ ٤١٥).

أَتَنْظُرانِ قليلاً رَيْثَ غفلتِهِمْ أمْ تَعْدُوانِ فإنَّ الرِّيحَ للعادي

فقوله: «إن الريح للعادي» أن الدولة والظفر للذي يعدو فينهب فيأخذ، هذا معنىٰ قوله. وهذا معنىٰ معروف في كلام العرب، ومنه قول الآخر[1]:

إذا هبَّت رياحُكَ فاغْتَنِمها فإنَّ لِكُلِّ عَاصِفةٍ سُكُون

قال بعضهم: (إن) هنا اسمها ضمير الشأن، والمبتدأ وخبره خبرها، ومعنىٰ: (هبت رياحك) أي: دالت دولتك فاغتنم الفرصة (فإن لكل عاصفة سكون) أي: لكل دولة تولٌّ ودبور، هكذا قاله بعض العلماء. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ هذه وصايا سماوية، وتعاليم من رب العالمين عظيمة، من أخذ بها ظفر، ومن تركها فشل وذهبت ريحه لا شك.

وقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ الصبر في لغة العرب معناه: حبس النفس[2]. تقول العرب: فلان صبر نفسه. أي: حبسها على المكروه، وشجعها على الشيء الصعب، هذا معنىٰ الصبر في لغة العرب، ومادته تتعدىٰ وتلزم، تقول العرب: صبر فلان فهو صابر أي: كان متصفاً بالصبر، وصبر نفسه أي: حبسها على المكروه. متعدياً للمفعول. ومن أمثلة تعديه للمفعول قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية [الكهف: الآية ٢٨]. وقول

(١) البيت في القرطبي (٨/ ٢٤)، البحر (٤/ ٥٠٣)، الدر المصون (٥/ ٦١٧).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

عنترة، أو غيره[١]:

فصَبَرْتِ عارفةً بذلكَ حُرَّةً ترسُو إذا نفسُ الجَبَانِ تَطَلَّعُ

يعني: حبست نفساً عارفةً بذلك على القتال. هذا أصل معنىٰ الصبر.

والصبر في الشرع يتناول أموراً كثيرة منها[٢]: الصبر تحت ظلال السيوف؛ لأن الجنة تحت ظلال السيوف. ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾ أي: ويتناول ذلك الصبر صبركم تحت ظلال السيوف في الميدان، ويتناول الصبر أيضاً: الصبر عن معصية الله وإن اشتعلت نار الشهوات، والصبر على طاعة الله وإن كنت كالقابض على الجمر. يتناول الصبرُ الصبرَ علىٰ هذا كله، والصبر علىٰ المصائب عند الصدمة الأولىٰ. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ومعيته للصابرين معية نصر وتأييد وتوفيق؛ لأن الله (تبارك وتعالىٰ) ذكر في كتابه معية خاصة للمتقين والصابرين والمحسنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: الآية ١٢٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: الآية ٤٠] فهذه المعية الخاصة هي بالنصر والتوفيق ونحو ذلك. والمعية العامة هي بالإحاطة الكاملة، ونفوذ العلم، وإحاطته ــ جل وعلا ــ بكل شيء معلومة، وهي المذكورة في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ [المجادلة: الآية ٧]،

(١) السابق.

(٢) السابق.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: الآية ٤] لأن جميع الكائنات بسماواتها وأرضها في يد خالق السماوات والأرض أصغر من حبة خردل، فهو مع جميعها بالإحاطة الكاملة العظيمة وبالإحاطة العلمية ونفوذ التصرف كما لا يخفىٰ. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤٦].

لما أمرهم جل وعلا بالأوامر النافعة الكفيلة بالنجاح والسلامة من الفشل وذهاب الريح نهاهم عن أضدادها المستوجبة الفشل وذهاب الريح والانهزام قال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] النهي معطوف على الأمر، لأن قوله: ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] أمر. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ نهي. والأمر والنهي كلاهما إنشاء، يُعطف كل منهما علىٰ الآخر بلا نزاع. وإنما الخلاف بين العلماء في عطف الإنشاء علىٰ الخبر، أو الخبر على الإنشاء، فمنعه جماعة من العلماء. والتحقيق الذي دل عليه القرآن العظيم واستقراء اللغة العربية: هو جواز عطف الخبر علىٰ الإنشاء، والإنشاء على الخبر[1]، وإن ظن منعه جماعة من علماء البلاغة[2] ومن النحويين. ومن عطف الإنشاء على الخبر في القرآن العظيم قوله تعالىٰ عن أبي إبراهيم: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: الآية ٤٦] فقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ الآية، خبر، وقوله: ﴿وَٱهْجُرْنِي﴾ إنشاء؛ لأنه أمر، فهو إنشاء معطوف على خبر، وهذا المعنىٰ معروف في كلام العرب، ومنه قول امرىء القيس[3]:

---

(١) انظر: ضياء السالك (٣/ ٢١٤، ٢٢٠)، التوضيح والتكميل (٢/ ١٨٩).

(٢) انظر: المقتصد (٢/ ٩٥٨).

(٣) ديوانه ص ١١١.

وإن شِفـائـي عَبْـرةٌ إنْ سَفَحْتُهـا وهلْ عند رسْمِ دارسٍ من معول

لأن الشطر الأول خبر، والشطر الثاني إنشاء، وهو معطوف عليه. ونظيره قول الآخر[١]:

تُنَاغي غزالاً عند بابِ ابن عامرٍ وكَحِّلْ مآقيك الحسان بإثمدِ

وهو عطف إنشاء على خبر، وهذا هو الصواب.

﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] أيها المؤمنون كالكفرة الفجرة أصحاب الفخر والخيلاء والرياء، فإن الفخر والخيلاء والرياء أوصاف ليست بأوصاف المسلمين، وليست بأوصاف المقاتلين الناجحين الظافرين في الميدان ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم ﴾ هم كفار مكة، وهم نفير الجيش الذي التقوا معه يوم بدر بإجماع المفسرين خرجوا من ديارهم في مكة المكرمة ــ حرسها الله ــ ﴿ بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي: لأجل البطر ومراءات الناس، وقال بعضهم: هو مصدر مُنكَّر بمعنى الحال. خرجوا في حال كونهم متصفين بالبطر والرياء. وكونه مفعولاً لأجله أظهر[٢].

البطر في لغة العرب: هو التكبر عن قبول الحق مع غمط الحقوق. وتكبرهم هذا المشار إليه هنا هو الذي بينا في قصة أبي جهل[٣]؛ لأن الكفار لما كانوا بالعدوة القصوىٰ من بدر، وأرسلوا عمير بن وهب الجمحي (رضي الله عنه) ــ وكان إذ ذاك كافراً ــ وقالوا له: أحزر لنا القوم. فجاء فحزرهم، فقال: القوم

(١) البيت لحسان (رضي الله عنه)، وهو في ديوانه ص ٨٣، وله روايات متعددة.

(٢) انظر: الدر المصون (٥/٦١٦).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥) من سورة الأنفال.

ثلاثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، ولكن دعوني أنظر هل لهم كمين؟ فجال في فرسه في وادي بدر حتىٰ أبعد، قال: ليس للقوم كمين، ولكني يا قوم رأيت البلايا تحمل المنايا، رأيت نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، والله لا يُقتل رجل منهم حتى يَقْتُل رجلاً منكم، وإن مات منكم أعدادهم فلا خير في الحياة بعد ذلك، فرأيي أن تنصرفوا. فأيده حكيم بن حزام (رضي الله عنه)، وذهب إلىٰ عتبة بن ربيعة وقال له: يا أبا الوليد إن عِيْر قريش نجت من محمد ﷺ وليس لهم لديه مطلب إلا دية ابن الحضرمي ــ عمرو بن الحضرمي ــ الذي قُتل في سرية نخلة، وهو حليفك فتحمَّل ديته وخلّ الناس يرجعون فإنه لا خير لهم في لقاء محمد ﷺ. فاجتمع عتبة وحكيم وعمير بن وهب علىٰ هذا الرأي، ولكن قال له عتبة: يا ابن حزام اذهب إلىٰ ابن الحنظلية ــ يعني به أبا جهل عمرو بن هشام ــ قبحه الله ــ فقل له هذا. فلما جاءه قال له: انتفخ سحر عتبة ــ يعني انتفخت رئته من الخوف ــ فغضب عندها عتبة وقال: سيعلم مصفرّ أسته غداً من الجبان!! ثم إن أبا جهل ــ لعنه الله ــ قال لابن الحضرمي: أنت ترى ثأرك فلا يردّنك هؤلاء عن ثأرك فتقدم واطلب ثأر أخيك، فتقدم عامر بن الحضرمي وقال: واعَمْرَاه، واعَمْرَاه. ينشد ثأره من أخيه عمرو الذي قتلته سرية عبد الله بن جحش (رضي الله عنه) في نخلة كما هو مشهور، فلما قالوا له: ارجع بنا. قال ــ وهو محل الشاهد ــ قال: والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ــ وكان بدر موسماً من مواسم العرب، وسوقاً يبيعون فيه في السنة ــ ونشرب الخمور، وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا!! فهذا هو فخره وخيلاؤه وبطره ورئاؤه الذي بينه بقوله:

تسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] هو الذي يفعل الفعل لأجل أن يراه الناس فيحمدونه عليه، ويعظمونه عليه لا لوجه الله. وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا﴾ أي: لأجل البطر. أو: بطرين متكبرين عن الحق، متصفين بالفخر والخيلاء.

وقال بعض العلماء: البطر التكبر عن الحق مع غمط الناس حقوقهم.

قال بعضهم: البطر سوء احتمال النعمة، فمن أنعم الله عليه نعمة وصار يعمل فيها عمل الإسراف فيما لا يرضي فهو من البطرين. وعلىٰ كل حال فهم بطرون لأنهم تكبروا عن قبول الحق، وغمطوا الناس حقوقهم، وجاؤوا في فخر وخيلاء. وفي قصة بدر أن النبي ﷺ لما رآهم متصوبين من كثيب بدر قال: «**اللَّهم هذه قريش أقبلت تحادّك وتكذب رسولك، هذه قريش أقبلت بفخرها وخيلائها** ــ وهو محل الشاهد ــ **تحادّك وتكذب رسولك، اللهم أحنهم الغداة**»[1] كما هو معروف في محله. وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ هم أبو جهل وأصحابه من النفير الذين قُتل أشرافهم، وأُسروا على شفير بدر كما هو معروف. وكان بعض العلماء يقول[2]: أفخر بيت قالته العرب بيت حسان بن ثابت (رضي الله عنه) في بدر حيث يقول[3]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩) من هذه السورة.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٧٩).

(٣) لفظ الشطر الأول في المصدر السابق:

«وببئر بدر إذ يكف...»

وفي بئرِ بدرٍ إذْ يصد وجُوهَهُم جبريلُ تحتَ لِوَائِنَا ومحمد ﷺ

وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذه (صدَّ) المتعدية[1]، والمفعول محذوف لدلالة المقام عليه، أي: يصدون الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والسبيل في لغة العرب[2]: الطريق، وهي تُذكّر وتُؤنّث. وجاء في القرآن تذكير السبيل في قوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦] ولم يقل: يتخذوها. ومن تأنيثها في القرآن قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: الآية ١٠٨] ولم يقل: هذا سبيلي، وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿تَبْغُونَهَا﴾ [آل عمران: الآية ٩٩] يعني السبيل كما هو معروف. وسبيل الله: دين الإسلام، وإنما قيل له: سبيل الله لأنه الطريق التي شرعها الله، وأصّل أصولها، وأمر بالسير عليها، ووعد من سار عليها الجنة، ومن تجنبها النار. فلذلك كانت سبيله؛ لأنه الذي شرعها، وأمر بسلوكها، ووعد من سلكها الخير، ومن لم يسلكها الشر؛ ولذا أُضيفت إليه فقيل لها: سبيل الله، ولذا قال: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَٱللَّهُ﴾ جل وعلا بكل ما ﴿يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾؛ لأنه (جل وعلا) محيط بكل شيء. وفيه تهديد ووعيد لهم، فقد أحاط بهم وبأعمالهم، ومكّن منهم نبيه ﷺ فقتل رؤساءهم وأسرهم كما قدمنا إيضاحه. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤٧].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٢) مضى عند تفسير الآيتان (٥٥، ١١٦) من سورة الأنعام.

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨].

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ ﴾ حين زين ﴿ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] وهؤلاء الذين زين لهم الشيطان أعمالهم هم الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله، هؤلاء زين لهم الشيطان أعمالهم. زينها لهم معناها: صيرها في أعينهم متصفة بالزين، والزين: ضد القبح، أي: زينها لهم، حسنها لهم حتىٰ صارت حسنة عندهم بتزيينه ووسوسته وإن كانت أقبح شيء.

والأعمال جمع عمل، وهو ما يصدر عن الإنسان. وقد عُلم باستقراء الشرع أن العمل الذي يزينه الشيطان ويُعاقب عليه ويُثاب عليه أنه أربعة أقسام، دل علىٰ هذا استقراء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واللغة العربية، أن ما يصدق عليه اسم العمل الذي يزينه الشيطان ويُثاب الإنسان عليه ويُعاقب عليه أربعة أنواع لا خامس لها[1]:

الأول منها: فعل الجوارح كالسرقة والزنا.

والثاني منها: القول؛ لأن القول فعل اللسان، وقد سمى الله في سورة الأنعام القول فعلاً حيث قال جل وعلا: ﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام: الآية ١١٢] فسماه فعلاً.

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

الثالث: العزم المصمم؛ لأن عزم الإنسان وتصميمه على الفعل بحيث لا يمنعه منه إلا العجز عنه هذا الفعل الذي صمم عليه وعزم عليه فكأنه عمله بعزمه وتصميمه، فهو عمل يزينه الشيطان ويُؤخذ به فيثاب ويعاقب عليه، والدليل على أن هذا العزم المصمم أنه من جملة العمل الذي يدخل صاحبه النار مثلاً: ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما ــ أعني البخاري ومسلماً رحمهما الله ــ من حديث أبي بكرة رضي الله عنه: «**إذا التقىٰ المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» قالوا: يا رسول الله قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟!» فهؤلاء الناس سألوا رسول الله ﷺ أن يُبرز لهم ويبين العمل الذي دخل بسببه المقتول النار؛ لأنه لم يَقتُل!! فأجابهم ﷺ في هذا الحديث الصحيح المتفق عليه: «**إنه كان حريصاً على قتل أخيه**»[1]. والجواب على طبق السؤال، فبيّن أن عمله الذي أدخله النار حرصه على قتل أخيه، وهو عزمه المصمم وإن لم يتمكن منه.

أما العزم الغير المصمم بأن يخطر في ذهنه أنه يفعل كذا ثم يراقب الله فيتركه، فتلك السيئة التي همّ بها تكتب له حسنة؛ لأنه تركها خوفاً من الله. وهو معنى قوله ﷺ: «**ومن هم بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة**»[2] لأنه تركها خوفاً من ربه فكان ذلك حسنة؛ ولذلك كان جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) وهو من بني سلمة، وبنو سلمة وبنو حارثة ــ من الأنصار ــ هم الذين أنزل الله فيهم يوم أحد: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: الآية ١٢٢] قال:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

﴿ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾ هذا الهمّ ليس بعزم مصمم؛ لأن الله قال بعده: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فكان جابر يقول: مع أن الله ذكر أنّا هممنا أن نفشل وهذه وصمة فينا، ولكن والله ما نحب أن الله لم ينزلها لأنه قال بعدها: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فالتي بعدها تداويها وتزيد، هذا معنىٰ كلامه (رضي الله عنه)[١]. فالعزم المصمم من العمل الذي يزينه الشيطان ويدخل صاحبه بسببه النار.

الرابع: الترك، والتحقيق أن التروك أفعال يزينها الشيطان، يدخل صاحبها بها النار، ويُثاب بها فيدخل بسببها الجنة. هذا هو التحقيق إن شاء الله. وقد كان ابن السبكي ــ تاج الدين ــ في بعض كتبه في علم الأصول في بحث أهل الأصول في الترك هل هو فعل أو ليس بفعل؟ قال: طالعت كتاب الله فوجدت من كتاب الله آية في سورة الفرقان يفهم منها أن الترك فعل[٢].

ونحن نقول: إن هذه الآية التي أوردها ابن السبكي لا يظهر لنا وجه الدلالة منها كل الظهور، إلا أنا اطّلعنا على آيتين من سورة المائدة كلهما صريحة في أن الترك من الأفعال، وأنه من الأعمال التي يؤاخذ بها الإنسان. وإيضاح ذلك: أنك لو تركت الصلاة حتى خرج وقتها، أنت ما فعلت شيئاً إلا أنك تركت الصلاة، فهذا الترك فعل يُقتل صاحبه بسببه، ويدخل به النار، ويكفر به عند من قال ذلك. فلولا أن الترك فعل لما كان تارك الصلاة كافراً عند من يقول بذلك، ولما وجب قتله كفراً عند أحمد في مشهور مذهبه، وحداً عند مالك والشافعي في مشهوري مذهبهما، وإيضاح هذا أن ابن السبكي قال:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: الآية ٣٠] قد فهمت من هذه الآية في سورة الفرقان أن الترك فعل؛ لأن الأخذ: هو التناول، والمهجور: المتروك، أي: تناولوه متروكاً. فدل علىٰ أن الترك فعل يُؤتى بالتناول، وهذا لا يظهر لي كل الظهور.

أما الآيتان اللتان عثرنا عليهما في سورة المائدة، الدالتان علىٰ أن الترك فعل من الأفعال:

فإحداهما قوله تعالىٰ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ ثم قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: الآية ٦٣] وإنشاء الذم بقوله ﴿بِئْسَ﴾ هنا متوجه على ترك الربانيين والأحبار النهي، وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: بئس ما يصنعه الربانيون والأحبار وهو تركهم. فسمّى تركهم الأمر بالمعروف صُنعاً، والصُّنع أخص من مطلق الفعل، وهذا هو التحقيق في معنى الآية، وهو نص صريح في أن الترك من الأفعال.

والآية الأخرىٰ: قوله في المائدة أيضاً: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: الآية ٧٩] وهو عدم تناهيهم عن المنكر، فسمّى تركهم التناهي عن المنكر (فعلاً) وذمه أيضاً بالفعل الجامد الذي هو لإنشاء الذم أعني: (بئس) لأن (نِعْمَ) لإنشاء المدح، و (بئس) لإنشاء الذم، كما هو معروف في محله[1].

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٠) من سورة الأنفال.

وقد أجرىٰ العلماء علىٰ هذا الاختلاف فروعاً كثيرة في المذاهب[١]، هل الترك فعل أو لا؟

قالوا: فبناء على أن الترك فعل: إذا كان الإنسان عنده خيوط من حرير مثلاً، وشُق بطن واحد من رفقته، وأمسك عنه خيوط الحرير تخاط بها بطنه حتىٰ هلك. فعلىٰ أن الترك فعل فقد أهلكه بتركه، فتلزمه ديته، وعلىٰ أن الترك [ليس][٢] بفعل لا غرامة عليه.

وكذلك من كان عنده ماء يفضل عن سقي زرعه، وجف زرع جاره إذا أمسك عنه الماء الفاضل عنه، فعلىٰ أن الترك فعل يضمنه؛ لأنه أفسده بفعله، وعلىٰ أنه ليس بفعل فلا.

ومن هذا: ناظرو الأوقاف، والأوصياء على اليتامىٰ، إذا تركوا إيجار دورهم وقت الإيجار حتى فاتت الفرصة، فعلىٰ أن الترك فعل يضمنون، وعلى أنه ليس بفعل لا يضمنون، وهي قاعدة كثيرة الفروع في مذاهب الأئمة (رحمهم الله) بسطها وبسط فروعها مقرّر في مذاهبهم. وأصح القولين: أن الترك فعل، وأنه عمل من الأعمال التي يزينها الشيطان، وكان ﷺ أيام بنائه لهذا المسجد الشريف ــ يسرَّ الله له العمارة بطاعة الله وعبادته ــ كان النبي ﷺ ممن يعمل فيه وبعض الصحابة جلوس، فقال بعضهم[٣]:

لئن قعدنا والنبيُّ يعملُ ... لَذَاكَ منَّا العملُ المُضَلل

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها الكلام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

فسمىٰ قعودهم وتركه العمل سماه «عملاً مضللاً» وهذا معروف، ويدل عليه قوله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[1] فسمىٰ ترك الأذىٰ إسلاماً، ومعلوم أن الإسلام لا يكون بالعدم إلا بأفعال، وهذا يبين أن الأعمال التي يزينها الشيطان فيؤآخذ الإنسان بها أربعة: أعمال الجوارح (وهي الأفعال)، وأعمال اللسان (وهي الأقوال)، والعزم المُصَمِّم، والترك، كما لا يخفىٰ، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] الله هنا في هذه الآية من سورة الأنفال صرح بأن الشيطان (قال) ولم يقل: (وسوس) فصرح بالقول ولم يذكر الوسوسة؛ لأن الشيطان تمثل لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي البكري (رضي الله عنه)؛ لأن قريشاً لما جاءهم ضمضم بن عمرو الغفاري ــ أرسله لهم أبو سفيان ــ وتأهبوا للخروج وأجمعوا عليه، وبينهم وبين بني بكر بن كنانة عداوة، فخافوا أن يأتوهم من ورائهم فيأخذوا نساءهم وذراريهم، فجاءهم إبليس في صورة سراقة بن مالك، وكان سيد بني مدلج، وهو من سادات بني بكر بن كنانة، وقال لهم: إني جار لكم، أجيركم من كنانة فلا يصل إليكم منهم سوء، وزين لهم هذه الأعمال، وقال: أنتم على حق، هذا الرجل الذي سفه أحلامكم، وفرق كلمتكم، وعاب آلهتكم، وسفّه آباءكم، فاذهبوا إليه ولا تتركوه يأخذ عِيْرَكم، ونحو هذا من التزيين، ولا غالب لكم

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

لشرفكم وقوتكم، وأنكم قطّان بيت الله الحرام، زين لهم هذا التزيين، وقال لهم: إنه جار لهم يجيرهم من بكر بن كنانة، وذهب معهم وهم يعتقدونه سراقة بن مالك[١]، فلما فرّ عنهم صاروا يعيبون سراقة ولم يعلموا أنه الشيطان حتىٰ أسلموا وسمعوا القرآن يُتلىٰ أنه الشيطان تمثل لهم في صورة سراقة، / وفيه يقول حسان: [٦/أ]

سرنا وساروا[٢] [إلى بدر لحينهم ... لو يعلمون يقين الأمر ما ساروا
دلاهم بغرور ثم أسلمهم ... إن الخبيث لمن والاه غرار
وقال: إني لكم جار فأوردهم ... شرَّ الموارد فيه] الخزي والعار

هذا معنىٰ قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] فلما صف معهم للقتال ــ وكان حاضراً إذ ذاك ــ رأىٰ الملائكة تنزل، وكان إبليس اللعين لما رأىٰ الملائكة عرفها، ولما عرف الملائكة خاف خوفاً شديداً؛ لأن الشياطين أخوف ما تخافه الملائكة (صلوات الله وسلامه عليهم)، فعند ذلك ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: رجع القهقرى. والعقب: مؤخر الرجل؛ لأن الراجع القهقرى يمشي على عقبيه، أي: منعكساً متقهقراً. ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ تبرأت منكم، كما هي عادة الشيطان، يورد الإنسان الهلاك حتىٰ إذا أوقعه فيه تبرأ منه؛ لأنه غرار خداع كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: الآية ١٦]

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من هذه السورة.

(٢) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، والأبيات ذكرها الشيخ (رحمه الله) فيما مضى عند تفسير الآية (٧) من هذه السورة، فنقلتها هنا وجعلت ذلك بين معقوفين.

وقد يتبرأ منهم ــ لعنهم الله ــ كما سيأتي في خطبة الشيطان خطبته الفصيحة العظيمة الصادقة التي يخطبها في أوليائه يوم القيامة، التي نص الله عليها في سورة إبراهيم الخليل؛ لأنه إذا اجتمعت الخلائق ورأى الكفار ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: الآية ٥٣] جاؤوا لإبليس اللعين وقالوا: أنت كنت سيدنا وكنا نطيعك، فإن كان عندك شيء اليوم فأت به. قال بعض العلماء: ينصب له منبر من نار[1] ــ والله أعلم ــ بمثل هذا. ونصب المنبر له من النار شبه إسرائيليات، والخطبة صحيحة ذكرها الله في سورة إبراهيم الخليل، وهو قوله لهم: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢] وهو صادق في كلامه هذا، وقد يصدق الكذوب، فعند ذلك يمقتون أنفسهم حيث اتبعوا هذا الخائن الغدار الغرار، وعندما يمقتون أنفسهم في ذلك الوقت قال بعض العلماء: ينادون: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [غافر: الآية ١٠] ولذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] تراءت: (تفاعلت) من (رأىٰ) البصرية. أي: كان كل من الفئتين يرىٰ الأخرى ببصره رأي العين كما تقدم في قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: الآية ٣٣] ﴿تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي: فئة المسلمين وفئة الكفار، صار هؤلاء يرون هؤلاء عياناً بأعينهم، وهؤلاء كذلك. قال بعض العلماء: ونزل

(١) انظر: ابن جرير (١٦/ ٥٦٣).

الملائكة لنصر المسلمين، ورأىٰ إبليس الملائكة، ويدل علىٰ هذا قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يشير إلىٰ الملائكة؛ لأن الكفار لم يروها وهو قد رآها، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ قال بعض العلماء: هو الملائكة. وعبّر عنه بـ (ما) لأنه أبهمه عليهم ولم يبين لهم أنه مَن العالِم ولا العاقل[١]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أن ينزل بي عقابه ونكاله، فالله (جل وعلا) شديد العقاب. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٢] أن الخوف في لغة العرب: هو الغم من أمر مستقبل. والحزن في لغة العرب: الغم بسبب أمر فائت ــ أعاذنا الله منهما ــ وربما وضعت العرب الخوف مكان [الحزن، والحزن][٣] مكان الخوف. وقوله: ﴿أَخَافُ﴾ الألف بعد الخاء مبدلة من واو، وأصل مادته (فَعِل) بالكسر، أصل ماضيه: (خَوِفَ) بكسر الواو (يَخْوَفُ) بفتحها، فوقع فيه الإعلال المعروف المشهور في التصريف[٤].

﴿أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ يعني: أترقب الغم من سبب ما يصلني منه في المستقبل. ﴿وَٱللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إذا عاقب فعقابه شديد.

والعقاب: هو التنكيل بسبب الذنب. قال بعض العلماء: سمي عقاباً لأنه يأتي عقبه من أجله. وقد قدمنا أنه (جل وعلا) هو وحده شديد العقاب؛ لأنه لا شدة عقاب يملكها غير الله (جل وعلا)؛ لأن

---

(١) عبّر بذلك لأن الملائكة إنما يوصفون بالعلم، وعليه فالمعنى: أنه لم يبين لهم أن ما رآه من الملائكة أو من غيرهم كالإنس والجن.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) في الأصل: «الغم، والغم»، وهو سبق لسان.

(٤) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٣٦٦.

أكبر طاغية من جبابرة أهل الأرض لا يقدر علىٰ شيء من العذاب إلا قَدْرَ ما يستوجب الموت مرة واحدة، فإذا عذب المجرم بقدر ما يستوجب الموت مات. والله وحده يعذب المجرمين بالآلاف والملايين مما يستوجب الموت ومع ذلك لا يموتون ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٧] ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: الآية ٥٦] فهذا هو العذاب الشديد والنكال العظيم الذي يجب الحذر منه والخوف منه ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: الآيتان ٢٥، ٢٦].

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٤٩ ــ ٥٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤٩].

قوله: «إذ» ظرف بدل من «إذ» قبله، أو منصوب بـ (اذكر) مقدراً. اذكر إذ يقول المنافقون.

المنافقون: جمع التصحيح للمنافق، وهو المتصف بالنفاق، والنفاق: هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر. والمنافق هو المعروف في اصطلاح الفقهاء بالزنديق، فالمنافقون الذين يلقون المسلمين ويقولون: إنهم مؤمنون. وهم في باطن الأمر بخلاف ذلك.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ اختلف العلماء في المراد بالذين في قلوبهم مرض على أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً[١].

قال بعض العلماء: ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم نفس المنافقين، وإنما كان العطف نظراً إلى مغايرة الصفات، كأنه يقول: الجامعون بين النفاق ومرض القلوب قالوا كذا وكذا، ومعلوم في اللغة العربية التي نزل بها القرآن أن عطف الشيء على نفسه مذكوراً بصفات مختلفة نظراً إلى أن تغاير الصفات كتغاير الذوات أسلوب عربي معروف في كلام العرب، وهو موجود بكثرة في القرآن[٢]، كقوله في أول سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: الآيات ٢ ــ ٤] والمعطوفون هم الأولون، إلا أن الصفات اختلفت فجاء العطف نظراً لتغاير الصفات. ونظيره في القرآن أيضاً قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: الآيات ١ ــ ٤] فالمتعاطفات شيء واحد عُطف بعضها على بعض نظراً لتغاير

(١) انظر: ابن جرير (١٤/ ١٢)، القرطبي (٨/ ٢٧)، ابن كثير (٢/ ٣١٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

الصفات، وهذا الأسلوب معروف في كلام العرب، ومن شواهده العربية قول الشاعر[١]:

إلى المَلكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَام ولَيْثِ الكتيبة في المُزْدَحَم

فهو إنسان واحد، وذُكرت العطوف نظراً لتغاير الصفات. ومما يؤيد هذا القول: أن الله وصف المنافقين بأن في قلوبهم مرضاً في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠] وهي في المنافقين بلا نزاع.

ومرض القلوب جاء في القرآن على معنيين:

أحدهما: مرض القلوب بمعنىٰ ما يداخلها من الشرك والشك والنفاق، كقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠].

المعنى الثاني: إطلاق مرض القلب على القلب الذي يهوىٰ الفجور والزنىٰ ونحو ذلك، ومنه بهذا المعنى قوله في سورة الأحزاب مخاطباً أزواج النبي ﷺ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٢] أي: يطمع في نيل الريبة منكن الذي في قلبه مرض. ميل إلى الفجور وما لا ينبغي، والعرب تعرف هذا، الذي ينطوي قلبه على أمور خسيسة، تقول العرب: في قلبه مرض، ومن هذا المعنى قول الأعشى ــ ميمون بن قيس ــ وهو عربي فصيح يمدح رجلاً[٢]:

حافظ للفرج راضٍ بالتقىٰ ليس ممن قلبه فيه مرض

(١) السابق.

(٢) لم أقف عليه.

وقال بعض العلماء: ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المشركون، إذ لا مرض في القلوب أكبر من انطوائها على الشرك بالله.

وذهبت جماعة من العلماء إلى أن ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ في هذه الآية من سورة الأنفال خُصّ بها أناس معروفون هم الذين بسط الله قصتهم في سورة النساء، وهم قوم تكلموا بكلمة الإسلام فقالوا: لا إلـه إلا الله محمد رسول الله في مكة، ثم إنهم أبوا أن يهاجروا، وفي قلوبهم إسلام وإيمان ضعيف في قلوبهم على حرف هكذا وهكذا. وإذا قيل لهم: لِمَ لا تهاجرون وأنتم مسلمون؟ قالوا: نحن مستضعفون في الأرض. وهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الآية [النساء: الآية ٩٧]. قالوا: جاؤوا مع كفار قريش فلما رأوا قلة المسلمين ــ وكان الله قلل المسلمين في أعين الكفار، والكفار في أعين المسلمين كما أوضحناه قريباً في قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] لما رأوا قلتهم وقللهم الله في أعينهم جداً ــ قالوا: هؤلاء قوم مغرورون، غرهم دينهم!! وزعموا أنهم على دين يُؤَيَّد القليل المتمسك به على الكثير فاغتروا من هنا، وهؤلاء سيُغلبون ويقتلون قطعاً!! وهؤلاء المستضعفون الذين نزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النساء: الآية ٩٧] نفر من قريش معروفون، آمنوا بالله إيماناً ضعيفاً ولم يهاجروا، وجاؤوا مع الكفار يوم بدر، قال بعض العلماء: وهم الذين قالوا مع المنافقين: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٩] وهم معروفون، وهم: العاص بن منبه بن الحجاج السهمي، وعلي بن

أمية بن خلف الجمحي، وأبو قيس بن الفاكه ابن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وابن عمه أبو قيس بن الوليد ابن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، هؤلاء هم النفر المعرفون الذين قالوا: إنا ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: الآية ٩٧] وعلىٰ كل حال فلما التقىٰ المسلمون والمشركون يوم بدر كان الذين في قلوبهم مرض من المنافقين، أو المشركين، أو هؤلاء النفر القليلين الذين آمنوا إيماناً ضعيفاً في مكة وخرجوا مع الكفار يوم بدر وقتلوا كفاراً ــ والعياذ بالله ــ قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ الإشارة في قوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إلى النبي ﷺ وأصحابه و﴿دِينُهُمْ﴾ فاعل ﴿غَرَّ﴾. يعني: غرهم دينهم حيث اغتروا به وظنوا أن المتمسك بهذا الدين ولو كان قليلاً ضعيفاً يغلب القوي العظيم فاغتروا، وسيكون هذا الغرور سبباً لهلاكهم!! والعرب تقول: «غرّه يغرّه غروراً» على غير قياس. فالفاعل: غارّ، والمفعول: مغرور، إذا خدعه. وهم نسبوا هنا الغرور إلى الدين زاعمين أنهم انخدعوا في دينهم حيث يظنون أن القليل المتمسك به يغلب القوي غير المتمسك به، وهذا المعنىٰ معروف في كلام العرب، تقول: غرّه يغره. إذا خدعه، ومنه سُمي الشيطان غروراً لكثرة غروره للآدميين بتزيينه ووساوسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر: الآية ٥] ومن هذا المعنىٰ قول ابن أبي ربيعة أو غيره[1]:

إنَّ امرأً غَرَّهُ منكنَّ واحدةٌ ... بعدي وبعدكِ في الدنيا لمغرور

(١) البيت في شذور الذهب ص ١٧٤.

ثم إن الله أجاب عما قاله المنافقون والذين في قلوبهم مرض قال لهم الله: لا. كأن المعنىٰ: لا، لم يغر هؤلاء دينهم، وهم على بصيرة من أمرهم وعلى حق، ولكنهم توكلوا على الله، ومن توكل على الله توكل على قوي الجناب عزيز منيع لا يُضام من توكل عليه؛ ولذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ التوكل معناه: الثقة الكاملة، وتفويض الأمور إليه جل وعلا. ﴿يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يثق بالله ثقة كاملة ويسلم إليه أموره، ويفوض له تفويضاً تاماً توكلاً عليه. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الضمير الرابط محذوف دل المقام عليه. ومن يتوكل على الله فإنه يعزه بعزته وينصره؛ لأن الله عزيز حكيم.

والعزيز: هو الغالب الذي يقهر غيره ويغلبه فالله (جل وعلا) عزيز غالب على أمره. والعزة في لغة العرب: الغلبة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: الآية ٨] أي: ولله الغلبة ولرسوله. ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص: الآية ٢٣] يعني: غلبني في المخاصمة. والعرب تقول: «من عزّ بزّ»[1] يعنون: من غلب استلب؛ لأنه كان الغالب ينهب مال المغلوب، ويقولون: «من عزّ بزّ». وقد قالت الخنساء بنت عمرو الشريد السلمية الشاعرة[2]:

كأن لم يكونوا حمىً يُختشى إذ الناس إذ ذاك من عزّ بزّا

تعني: من غلب استلب. والحكيم[3]: هو ذو الحكمة البالغة،

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.
(٢) السابق.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

الذي لا يضع الأمر إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه. فاقتضت عزته وقهره وسلطانه ألاَّ يُضام وليه المتوكل عليه المستند إليه، وألا يُقهر. واقتضت حكمته البالغة ألاَّ يجعل وليه كعدوه، وألا يسوي بينهما بل ينصر وليه علىٰ عدوه. والحكمة لا تتم إلا بالعلم؛ لأن تمام الحكمة بتمام العلم؛ ولذا لا تتم الحكمة تماماً كلياً إلا لله وحده (جل وعلا)؛ لأنه هو العالم بخفايا الأمور وخباياها وما تؤول إليه، فالله وحده هو الذي لا يجري عليه: لو فعلت كذا لكان خيراً. أما غيره فإنه قد يفعل الأمر يظنه صواباً، وأنه في غاية الحكمة، ثم يتبين له بعد ذلك أن غيره أصوب منه، فيقول: لو فعلت كذا لكان كذا!! وليتني لم أفعل!! وفي الحديث النهي عن (لو) لأنها تفتح باب الشيطان. لو فعلت كذا لكان كذا[١].

ليت شِعْرِي وأينَ مني (ليتُ) إن (ليتاً) وإن (لواً) عناءُ[٢]

العناء: التعب وكثرة: ليتني فعلت، وليتني لم أفعل، ولو فعلت كذا لكان كذا. كل هذا يقع من عدم العلم بعواقب الأمور، والله (جل وعلا) وحده لا يجري عليه: لو فعلت كذا لكان أصوب. لعلمه بما تنكشف عنه الغيوب، وما تؤول إليه الأمور، فالحكمة الكاملة له، أما غيره (جل وعلا) فقد يفعل الأمر يظنه حكمة وصواباً ثم ينكشف الغيب عن خلاف ذلك كما قال[٣]:

أُلامُ علىٰ (لوٍ) ولو كنتُ عالماً بأذناب (لوٍ) لم تفُتني أوائله

---

(١) مسلم في القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز...، حديث رقم: (٢٦٦٤)، (٤/ ٢٠٥٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

وهذا سيد البشر محمد ﷺ علمه الله العلوم العظيمة كان يقول في آخر عمره في حجة الوداع: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة**»[1] فكيف بغيره ﷺ؟! وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ـ جل وعلا ـ ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤٩].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ٥٠، ٥١].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا نبي الله. (لو) حرف شرط تقلب المضارع ماضياً غالباً. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ هنا بمعنىٰ: لو رأيت. لأن (لو) من حروف الشروط التي تختص بالمعنىٰ الماضي غالباً، وفي أغلب أحوالها إذا جاء بعدها مضارع تقلبه إلىٰ معنىٰ المُضِي، وقد لا تقلبه إلىٰ معنىٰ المُضِي فيأتي بعدها مضارع، وهو ليس بكثير، ولكنه موجود في كلام العرب، ومن إتيان المعنىٰ بعدها مضارعاً ولو كان ماضياً: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ [النساء: الآية ٩] لأن تركهم للذرية مستقبل؛ لأنهم في ذلك الوقت أحياء. ومن إتيانه مستقبلاً غير مصروف إلىٰ الماضي قول المجنون[2]:

فلو تلتقي أصْدَاؤُنا بعد موتنا ومن دون رمسينا من الأرض منكبُ
لظَلَّ صَدَىٰ صوتي وإن كنتُ رمة لصوت صَدَىٰ ليلي يهش ويطْرَبُ

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.
(٢) البيتان في ديوانه ص ٢٤.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى﴾ ترىٰ حين يتوفىٰ الملائكة.

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير ابن عامر: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بالياء. وقرأه ابن عامر وحده: **﴿ولَو تَرَى إِذ تتوفى الذين كفروا الملائكةُ﴾**[1].

وتتوفاهم: أصل التوفي في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناه[2]: أخذ الشيء وافياً، تقول العرب: «توفيت دَيْني»، أي: أخذته وافياً. وكان حقيقة عرفية في أخذ الروح من البدن. فصار التوفي حقيقة عرفية في أخذ الروح وافية كاملة من البدن بحيث لم يبق فيه روح البتة.

والملائكة: جمع ملك. والتحقيق عند جماعة من العلماء: أن اشتقاق الملك من الألوكة، والألوكة: الرسالة[3]؛ لأن لطالب العلم أن يقول: مفرد الملائكة ملك، وجمعه: الملائكة ــ بالهمزة ــ فمن أين جاءت هذه الهمزة؟ وما الجالب لها؟

والجواب عن هذا: ما قاله بعض العلماء: أن أصل الملك: (مألك) (مَفْعَل) من الأَلُوكَة. والأَلُوكَةُ في لغة العرب: الرسالة. وألكني إليه: احمل إليه مألكتي، أي: رسالتي، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[4]:

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢١.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

أَلِكْنـي إليهـا وخَيْـر الـرسـول أَعْلَمُهـم بنـواحـي الخَبـر

فأصله: (مألك) لأنهم يحملون مآلك الله، أي: رسالات الله، منهم من يُرسل لتسخير المطر، ومنهم من يُرسل لقبض الأرواح، ومنهم من يُرسل لضبط الأعمال، ومنهم من يُرسل لحفظ بني آدم أن تتخطفهم الشياطين، كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: الآية ٥] فلما كانوا يحملون المآلك، أي: الرسائل من الله في الشئون الشتىٰ قيل فيه: (مألك). ثم وقع فيه قلب فجُعل الفاء مكان العين، والعين مكان الفاء، وهذا القلب معروف في الصرف، فقيل فيه: (مَلْأَك) علىٰ وزن (مَعْفَل) ثم نُقلت حركة الهمزة للام فقيل فيه: (ملك). فكان عند جمع التكسير تظهر الهمزة التي هي في أصله في محلها الذي قُلبت فيه، قال بعض العلماء: هذا أصله[1]. و ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فاعل ﴿يَتَوَفَّى﴾ أي: تقبض أرواحهم من أجسادهم كاملة. والفعل المضارع في قوله: ﴿يَضْرِبُونَ﴾ جملته حالية. وأصل الفعل المضارع المُثبت إذا كانت جملته حالية لا تُربط بالواو بل بالضمير كما هنا ﴿يَضْرِبُونَ﴾ أي: الملائكة. يعني: يتوفونهم يأخذون أرواحهم في حال كونهم ضاربين وجوههم وأدبارهم. الوجوه: جمع الوجه. والأدبار: جمع الدبر، وقال جماعة من السلف[2]: المراد بالأدبار: الآستاه ـ أكرمكم الله جل وعلا ـ قالوا: ولكن الله (جل وعلا) حييّ كريم يكني، فكنىٰ عن الاست بالدبر؛ ولذا قال: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾.

---

(١) السابق.

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/ ١٥).

وقوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ مقول قول محذوف، أي: ويقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

اختلف العلماء في وقت ذوقهم عذاب الحريق[1]، قال بعض العلماء: هو عند وفاتهم عندما يأخذون أرواحهم يضربونهم بسياط من نار فتشتعل ناراً فيقولون لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

وقال بعض العلماء: هي للملائكة الذين قاتلوا في بدر يضربون الكفار، ويأخذون أرواحهم، ويضربونهم بسياط النار فتشتعل في جروحهم فيقولون لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

وقالت جماعة من العلماء: هذا يوم القيامة، وممن قال به: الحسن البصري، أي: يضربون وجوههم وأدبارهم الآن عند الاحتضار، ويبشرونهم يوم القيامة بما هو أدهىٰ وأمر من ذلك، وهو عذاب الحريق. وهذا معنىٰ قوله: توفاهم ﴿الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٠].

والتحقيق أن هذا ليس خاصاً بالذين قُتلوا من الكفار يوم بدر، بل هو عام، وأن الملائكة تضرب الكفار عند احتضارهم علىٰ الوجوه والأدبار، كما جاء مصرحاً به في سورة القتال، وجاء مشاراً إليه في الأنعام؛ لأن الله قال في الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: الآية ٩٣] باسطوها إليهم بالضرب ــ والعياذ بالله ــ وقال (جل وعلا) في سورة القتال: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ وفي

(١) انظر: القرطبي (٨/٢٨).

القراءة الأخرىٰ[١]: ﴿إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: الآيات ٢٥ ـ ٢٨] فدلت آية القتال هذه علىٰ أنها عامة في كل من كره رضوان الله وأحب سخط الله، فكل من اتبع ما يسخط الله يأتيه هذا الوعيد الشديد، ومن أعظم الناس نصيباً فيه هؤلاء الذين يأتون الكفرة الفجرة الذين يكرهون القرآن وما أنزل الله، ويقولون لهم: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ [محمد: الآية ٢٦] وأحرىٰ إن أطاعوهم في كل الأمر، هؤلاء أكثر الناس نصيباً في ضرب الملائكة عند الاحتضار علىٰ الوجوه والأدبار ـ والعياذ بالله ـ وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٠] قال بعض العلماء: الضرب علىٰ الوجوه والأدبار أشد وقعاً. وقال بعض العلماء: علىٰ القول بأنها في أهل بدر أنهم يضربون وجه المشرك مقبلاً، فإذا فرّ مدبراً ضربوا دبره. وقد قدمنا أن التحقيق العموم، وأنها لا تختص بمن قُتل في بدر. وهذا معنىٰ قوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾. قال بعض العلماء: ذوق عذاب الحريق عند الاحتضار؛ لأن المقامع التي يضربونهم بها تلتهب عليهم ناراً.

وقال بعض العلماء: يبشرونهم بالحريق يوم القيامة. ولا مانع من وقوع الكل. هذا معنىٰ قوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾. وجواب (لو) في هذه الآية محذوف، وتقديره: لو ترىٰ يا محمد حين يتوفىٰ الملائكة الكفرة في حال كونهم ضاربين وجوههم وأدبارهم

(١) انظر: المبسوط ولابن مهران ص ٤٠٩.

مبشرين لهم بالحريق، لو ترىٰ ذلك الوقت لرأيت أمراً فظيعاً شنيعاً يجب الحذر منه، وجواب (لو) حَذْفُه إذا دل المقام عليه أسلوب عربي معروف يكثر في القرآن العظيم وفي لسان العرب[١]، ومنه في القرآن العظيم: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝﴾ [التكاثر: الآية ٥] أي: لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم التكاثر حتىٰ زرتم المقابر، ونظيره من كلام العرب في حذف جواب (لو) قول الشاعر[٢]:

فأُقسِمُ لو شَيءٌ أتانا رسولُه سِواكَ ولكن لم نجد لك مَدْفَعاً

أي: لو شيء سواك لرددناه.

وقال جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: الآية ٣١] ولم يذكر جواب (لو) وقال بعض العلماء: جوابه: لو أن قرآناً سُيرت به الجبال لكان هذا القرآن علىٰ حد قوله[٣]:

ولو طار ذو حافر قبلها لطارت ولكنه لم يطر

وقال بعض العلماء: جواب (لو) المحذوف في آية الرعد ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ لو سيرنا الجبال بالقرآن وقطعنا به الأرض لكفرتم بالرحمٰن. ويدل علىٰ هذا التقدير الأخير قوله قبله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ الآية [الرعد: الآية ٣٠].

وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام، وما سيأتي عند تفسير الآية (٥٩) من سورة التوبة.

(٢) البيت لامرىء القيس، وهو في ديوانه ص ١٠٠.

(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الأنفال: الآيتان ٥٠، ٥١].

قال بعض العلماء: هذا مما يقول لهم الملائكة عند توفيهم إياهم وضربهم وجوههم وأدبارهم، يقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق. ويقولون لهم: ذلك العذاب الفظيع الشديد بسبب ما قدمت أيديكم.

وقال بعض العلماء: هو كلام مُؤْتَنَف، أي: ذلك العذاب الكائن الواقع لكم بسبب ما قدمت أيديكم. جرت العادة في لسان العرب الذي نزل به القرآن أن يُضاف جميع الأعمال إلىٰ الأيدي وإن كان بعضها ليس بأيدي، فإن الشرك الذي يُعذبون عليه محله القلب واللسان واليد، والزنى محله الفرج، وأكل الربا محله البطن، ولكن كل هذا يُنسب إلى الأيدي علىٰ الأسلوب العربي المعروف؛ لأن أكثر ما يزاول الإنسان أعماله بيده فنسب إليه علىٰ التغليب ومراعاة الأغلب[1].

والمراد ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ما كسبتم من المعاصي والكفر، سواء كان الذي اجترمته القلوب، أو الألسنة، أو الأيدي، أو غير ذلك. وهذا معنىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥١].

قال بعض العلماء: المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ في محل خفض معطوف علىٰ الموصول المجرور (بما) أي: ذلك بسبب الذي قدمته أيديكم،

(١) انظر: ابن عطية (٣/٣٠٨)، القاسمي (٤/٣٠٨).

وبسبب أن الله لا يظلم، فبكفركم وبعدالة ربكم وكمال إنصافه جاءكم العذاب؛ لأن بهذين السببين يتوجه إليكم العذاب، كونكم اقترفتموه واكتسبتموه بأيديكم، وكون ربكم (جل وعلا) حَكَماً عدلاً منصفاً، فتعذيبه ومؤاخذته للعاصي، كما أنه يثيب المطيع، فظلمكم وعداوة ربكم كل ذلك اقتضى لكم ما وقع لكم من العذاب والعياذ بالله جل وعلا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيه في هذه الآية الكريمة والآيات المماثلة لها من القرآن إشكال عربي معروف يدور فيه سؤال مشهور علىٰ ألسنة العلماء وطلبة العلم، وهو أن يُقال: الله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة نفىٰ المبالغة؛ لأنه قال: ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ﴾ و (ظلّام) (فَعَّال) و (الفعَّال) صيغة مبالغة، والمقرر في اللغة العربية التي بها نزل القرآن أن نفي المبالغة لا يقتضي نفي أصل الفعل من حيث هو[1]، فلو قلت: زيد ليس بِقَتَّال للرجال، نفيت عنه المبالغة في القتل، ولا ينافي أنه ربما قتل رجلاً أو رجلين، ولو قلت: زيد ــ مثلاً ــ ليس بضرّاب لنسائه. يدل علىٰ انتفاء كثرة الضرب عنه، ولا ينافي أنه ربما وقع منه ضرب قليل كما هو معروف، فنفي المبالغة هنا لا يقتضي نفي أصل الفعل من حيث هو، والمقام مقام تنزيه، ونفي الأدنىٰ أبلغ من نفي الأعلىٰ، فلِمَ عُبّر هنا بصيغة المبالغة ولَم يقل: ليس بظالم. أَو ليس بذي ظلم للعبيد؟!

أجاب العلماء علىٰ ذا بأجوبة[2]: قالوا جرت العادة في القرآن

---

(١) انظر: الإتقان (٣/ ٢٣٣)، الكليات ص ٨٨٩.

(٢) انظر: البحر المحيط (٣/ ١٣١)، الدر المصون (٣/ ٥١٥)، فتح الرحمٰن بكشف ما يلتبس في القرآن ص ١٠١، الإتقان (٣/ ٢٣٣)، الكليات ص ٨٨٩، القاسمي (٤/ ٣٠٩).

أن بعض الآيات قد يكون فيها شبه إجمال وتبينه آيات أُخر، وقد أوضحت آيات أخر أن الله لا يظلم شيئاً، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: الآية ٤٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: الآية ٤٤] فالآيات الواضحات بينت هذا وأوضحته غاية الإيضاح.

وقال بعض العلماء: المبالغة هنا لا يقصد بها أصل المبالغة؛ لأن التكثير نظراً إلىٰ كثرة العبيد؛ لأن الظلم لما تعلق بالعبيد وكان العبيد في كثرة هائلة كان الظلم كثيراً جداً لكثرة من هو منفي عنهم؛ ولذا كان نفيه نفيه من أصله؛ لأن الكثرة فيه والمبالغة بحسب العبيد اللذين يقع عليهم الظلم.

وقال بعض العلماء: ــ وهي نكتة حسنة ــ أن هذا العذاب الذي يعذبهم الله به هو عذاب فظيع هائل لا يُقَادَر قدره ولا يُماثل مثله، فلو وقع منه ظلماً لكان مبالغاً في غاية الظلم مبالغة عظيمة، فنفى المبالغة بهذا الاعتبار، ومعناها نفي الفعل من أصله. وهذا الوجه حسن جداً، إلا أن فيه دقة. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥١].

وقوله (جل وعلا) في هذه الآيات الكريمة ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٢] الكاف في قوله: ﴿كَدَأْبِ﴾ في محل رفع خبر مبتدأ محذوف. أي: دأبهم دأب كفار مكة، أبي جهل وأصحابه. دأبهم: أي: عادتهم، ودينهم، وديدنهم كدأب آل فرعون؛ لأن فرعون وقومه كان دأبهم الكفر، وتكذيب الرسل، والتمرد علىٰ الله، والكفر بالآيات، وجحودها بعد الاستيقان؛ لأن

فرعون ــ لعنه الله ــ متيقن كل اليقين أن نبي الله موسىٰ صادق، وقد أوضح الله يقينه بذلك في موضعين: أحدهما قوله فيه [في سورة النمل: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الثاني: قوله تعالى إخباراً عن قول موسى لفرعون في سورة الإسراء: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ وهذا كان دأب المكذبين من الأقوام الذي بُعث فيهم الرسل كقوم نوح][1].

/ وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط، كل هؤلاء كانوا في غاية [٦/ب] التمرد والعتو وتكذيب الرسل بعد قيام المعجزات ووضوح الحق. بيّن الله (جل وعلا) أن كفار قريش دأبهم كدأب أولئك. والدأب في لغة العرب: العادة. فكل من يجري علىٰ سَنَن مطرد وعادة ووتيرة تقول العرب: هذا دأبه. أي: عادته وديدنه الذي يسير عليه دائماً. ومنه قول امرىء القيس في إحدىٰ روايتي بيته[2]:

كدَأبكَ من أمِّ الحُويرث قَبْلَها وَجَارَتَها أُمِّ الرَّبابِ بمأْسلِ

وقرأ هذا الحرف عامة القراء غير أبي عمرو في رواية السوسي: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ بتحقيق الهمزة، وقرأه أبو عمرو في رواية السوسي عنه خاصة: ﴿كَدَاب ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ بإبدال الهمزة ألفاً في الموضعين.

والمعنىٰ: دأب هؤلاء الكفرة دأبهم وديدنهم ودينهم مثل دأب آل فرعون في تكذيب الرسل؛ لأن فرعون كلما جاءته آية يقول: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
(٢) ديوانه ص ١١١.

﴿كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٤، ١٣٥] حتىٰ صارحوه في آخر الأمر وقالوا له: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٣٢] يعني: دأب هؤلاء الكفرة من قريش ومن سار سيرهم كدأب الكفرة العتاة المتمردين من الأمم الماضية آل فرعون والذين من قبلهم، كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقد قدمنا قصصهم مفصلة في سورة الأعراف وغيرها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٢].

ثم فسر دأب آل فرعون ومن قبلهم وبيّن عادتهم، قال: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كفروا بها: جحدوا بها. وآيات الله: ما تتلوه عليهم الرسل من آياته الشرعية الدينية، وما يعاينونه من المعجزات من آياته الكونية القدرية، وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٢] العرب تقول: «أخذه الله» إذا عاقبه عقاباً شديداً أليماً. وقد روىٰ البخاري ومسلم في صحيحيهما (رحمهما الله) من حديث أبي موسىٰ الأشعري (رضي الله عنه) أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «**إن الله ليملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته**» ثم تلا ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: الآية ١٠٢][1] ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أهلكهم وعاقبهم العقاب الشديد بسبب ذنوبهم. والذنب: هو الجريمة التي يستحق صاحبها النكال. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأنعام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ القوة: ضد الضعف، وقد بين (جل وعلا) أن القوة ضد الضعف في قوله: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً . . .﴾ الآية [الروم: الآية ٥٤]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ لأن الله (جل وعلا) قوي، هو أقوىٰ من كل شيء، حتىٰ لما قال عاد ما قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: الآية ١٥].

﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ العقاب: النكال الشديد لأجل الذنب. قال بعض العلماء: سُمي عقاباً لأنه يأتي عقب الذنب من أجله. وقد بينا مراراً أن الله (جل وعلا) في كتابه ينوه بشدة عقابه ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ﴿شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: الآية ١٦٥]، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: الآية ١٧٤]، ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٢] ونحو ذلك من تشنيع عذابه وفظاعته، وإن الأمر كذلك؛ لأنه ليس يوجد عذاب هو في غايته شديد فظيع إلا عذاب الله (جل وعلا) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: الآيتان ٢٥، ٢٦] لأن الناس إذا عذبوا المجرمين، والملوك الطغاة البغاة إذا أرادوا أن يعذبوا لا يستطيعون من العذاب إلا قدر ما يستوجب الموت مرة واحدة، فإذا شددوا العذاب علىٰ المعذب بقدر ما يميته مات وانتهىٰ الأمر، أما خالق السماوات والأرض (جل وعلا) فإنه يعذبه بالآلاف مما يستوجب الموت وهو لا يموت. ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٧]، وقال جل وعلا: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: الآية ٥٦]، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: الآية ٣٦]، ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾

[الـزخرف: الآية ٧٧]، فهذا العذاب الذي لا يقطعه الموت ولا غيره هو الذي يُخاف منه ويُحذر منه، وهو الشديد بمعنىٰ الكلمة، فعلىٰ كل عاقل أن يتحفظ منه ويتحرز منه في دار الدنيا مع إمكان الفرصة قبل أن يفوت الأوان ويندم حيث لا ينفع الندم، وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٢].

ثـم قـال جـل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٣] الفعل المضارع مجزوم بـ (أن) بعد (حـتىٰ)، و (حتىٰ) حرف جر بمعنىٰ الغاية. والأصل: إلىٰ أن يغيروا. أي: إلىٰ تغييرهـم ما بأنفسهم. فهو غاية ذلك المذكور مما أنزل الله بهذه الأمم من المثلات، وما أنزل بكفار مكة مـن العـذاب يـوم بـدر والقتـل والأسـر متصـلاً بعـذاب الآخـرة الـذي لا ينقطع بسبب أن الله جل وعلا ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً﴾ (يكن) مضارع كان يكون، وحذف النون في الفعل المضارع معروف بقياس مطرد نطقت به العرب كذلك، سواء كان بعده (أل) أو لم تكن بعده (أل) كما هو معروف ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ نعمة: مفعول به لاسم الفاعل. والنعمة: مصدر بمعنىٰ الإنعام، وهو ما ينعم الله ويتفضل به علىٰ خلقه. أنعم بها ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: جماعة من الناس كقريش وغيرهم من الأمم ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟﴾ والمعنىٰ: أن عدم تغييره للنعمة مُغَيًّا بغاية، تلك الغاية هي أن يغيروا ما بأنفسهم، فإذا غيروا ما بأنفسهم بأن ارتكبوا سوءاً يستوجب العذاب والغضب غيرنا النعم بسبب تغييرهم إياهم.

وهذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن يجب الاعتبار بها، وأن الإنسان لا يتسبب في تغيير نعمة الله عنه بتغييره ما في نفسه، بل يدوم

علىٰ طاعة الله وتقواه؛ لأنه إذا تنكر لربه قد يغير نعمته عنه وينقله من النعمة إلىٰ النقمة، ومن السلامة إلىٰ العذاب.

وفي هذه الآية إشكال معروف، وسؤال مشهور، وهو أن يُقال: إن هؤلاء الكفرة كل أحوالهم خبيثة وخسيسة، فما غيروا الكفر إلا إلىٰ كفر، فهم كانوا كفرة ولم يكونوا في حالة محمودة حتىٰ يكونوا غيروا ما بأنفسهم، فالذي كانوا فيه خبيث خسيس، والذي غيروا به خبيث خسيس، فبأي موجب كانت تتمادىٰ عليهم النعمة الأولىٰ، وبأي سبب كانوا يدخلون في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ وهذا الإشكال قوي، ووجهه واضح جداً، ولا يمكن أن يُخرج من الآية لأن الآية نازلة في الكفار، فرعون ومن سار علىٰ سيره، وكفار مكة الذين شُبِّه دأبهم بدأبه، والمقرر في علم الأصول: أن صورة السبب لا يمكن أن تُخرج من العام بمخصص، وهو التحقيق إن شاء الله[1]. فبان استحكام هذا الإشكال وقوته.

وأجاب بعض العلماء[2] عن هذا بأنهم كانوا في نعمة من الله لأنهم لم يأتهم رسول، وكانوا معذورين بالفترة، فأرسل الله إليهم الرسل، وبين لهم المعجزات، وأقام عليهم الحجج، فصاروا يحادون الله، ويكذبون رسله، ويعلمون الحق ويجحدونه عناداً وطغياناً وتكبراً علىٰ ربهم، فانتقلوا من حال سيئة إلىٰ حال أسوأ منها بأضعاف، فلما انتقلوا إلىٰ حال أسوأ كانوا غيروا فغير الله ما بهم لما غيروا ما بأنفسهم بانتقالهم من سيء إلىٰ أسوأ. وهذا معنىٰ قوله:

---

(١) انظر: نثر الورود (١/ ٣١٣)، المذكرة في أصول الفقه ص ٢١٠.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٥٠٧).

﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يعني: ما بأنفسهم بأن ينتقلوا من خير إلىٰ شر. ودل هذا الجواب علىٰ أنه أيضاً بأن ينتقلوا من سيء إلىٰ أسوأ منه وأفظع كما ذكرنا. وهذا معنىٰ قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ عطف علىٰ ما قبله بأنه لم يك مغيراً، وبأنه سميع عليم لا يخفىٰ عليه شيء من أقوال المغيرين المستوجبين لتغيير النعمة، ولا من أفعالهم.

وقد قدمنا مراراً[1] أن مثل هذا هو الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم، وأوضحناه مراراً كثيرة. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٣].

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] هذا كالتوكيد لما قبله، كرره ليبين بعض ما أجمله هناك، فبين في هذه الآية الأخيرة أن من كفرهم المذكور في قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟﴾ بين أن منه التكذيب بآيات الله، وبين أنه عاقبهم وأغرق منهم آل فرعون.

ومعنىٰ قوله: كدأبهم ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ فرعون: تطلق علىٰ كل من مَلَك مصر. والمراد بهذه: فرعون موسىٰ.

واختلف العلماء في لفظة (فرعون) هل هو عربي أو أعجمي[2]؟ فقال بعضهم: أعجمي. وقال بعضهم: هو عربي مشتق من (تفرعن) الرجل إذا كان ذا دهاء ومكر، فكل من كان ذا دهاء

---

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

ومكر هو متفرعن، وعلىٰ أنه عربي فوزنه بالميزان الصرفي (فِعْلَوْلْ) فعلول بلامين لا (فعلون) بنون[١]. وفرعون هو الوليد بن الريان أو غيره علىٰ ما شرحنا، وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ معناه: أهله وجماعته. والتحقيق في ألف (الآل) أنها مبدلة من واو؛ لأن العرب تصغره على (أُويل). وبعضهم يقول: هي مبدلة من هاء، أصله: (أهل)[٢] ولا يقال: (الآل) إلا لمن له شأن وخطب، وإنما قيل لفرعون: (آل فرعون) مع أنه خسيس خبيث وضيع لعظمته ومكانته عند قومه أيام إرسال موسىٰ له؛ لأنه كان يقول: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: الآية ٥٢]، ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: الآية ٥١]، ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: الآية ٢٤]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: الآية ٣٨] فهذه العظمة الزائفة والأبهة المختلقة كأنه قيل له بها (آل).

﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كذب قوم نوح بآيات الله التي أرسل بها نبيه نوحاً، وقوم هود بآيات الله التي أرسل بها نبيه صالحاً إلىٰ آخره. وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾.

﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ وقد قدمنا تفصيل إهلاك هؤلاء الأمم، فبين في آيات كثيرة أنه أهلك قوم نوح بالطوفان ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟

(١) السابق.

(٢) السابق.

﴿ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ [الفرقان: الآية ٣٧] وبين أنه أهلك قوم هود بالريح العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: الآية ٤٢] وأنه أهلك قوم صالح بصيحة صاح بهم الملك ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: الآية ٦٧] وأنه أهلك قوم شعيب تارة قال: بصيحة، وتارة قال: برجفة، وتارة بظُلَّة. والتحقيق أن قوم شعيب ــ أهل مدين ــ اجتمعت لهم الصيحة والرجفة والظلة؛ لأنه صاح بهم الملك من فوق فرجفت بهم الأرض من تحتهم، ثم إن الله أرسل عليهم ظُلَّة فأحرقتهم ــ علىٰ القول بأن أصحاب الظُّلة هم أصحاب الصيحة والرجفة، وهو أظهر الأقوال وأقربها ــ كما قدمنا إيضاحه في سورة الأعراف ــ وبينا أن قوم لوط أخذ الملك أرضهم فرفعها وقلبها عاليها سافلها؛ ولذا كانت قرىٰ قوم لوط تسمىٰ (المؤتفكات) والمؤتفكات: مفتعلات من الأَفْك[1]، والأَفْك في لغة العرب هو القلب. من أَفَكَ الشيء إذا قلبه فجعل أسفله أعلاه. ومنه قيل لأسوأ الكذب (إفكاً) لأنه قلب للحقائق عن مواضعها. فقال (جل وعلا) فيهم: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: الآية ٨٢] لأنها أَفَكَها الملك أي: قلبها. فالمؤتفكات: المنقلبات المجعول أسفلها عاليها، تارة عبر عنها بالمؤتفكة نظراً إلىٰ سدوم التي هي عاصمتها، وتارة عبر عن جميع القرىٰ، قال في موضع: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم: الآية ٥٣] وقال في موضع: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [التوبة: الآية ٧٠] إلىٰ غير ذلك، وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] بين هنا ما فعل بآل فرعون؛ لأنه أغرقهم لما أسرىٰ موسىٰ ببني إسرائيل

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأعراف.

وضرب بعصاه البحر فانفلق البحر وصار فيه اثنىٰ عشر طريقاً يبساً، وسلكها موسىٰ وقومه، فجاء فرعون في قومه وأُبَّهَتِه فوجدوا الطرق يابسة، فدخلوا فيها حتىٰ تكامل خروج بني إسرائيل علىٰ الشاطىء، ودخول القبطيين في البحر، أمر الله البحر فاضطرب عليهم، كما جاء مبيناً في سور كثيرة من كتاب الله. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾.

﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] وكل من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، والكفرة الذين كذبوا محمداً ﷺ كل هؤلاء الكفرة كانوا ظالمين، ظالمين بكفرهم.

وقد قدمنا مراراً[1] أن أصل الظلم في لغة العرب التي نزل بها القرآن: هو وضع الشيء في غير محله، فكل من وضع شيئاً في غير محله فهو ظالم، هذا هو لسان العرب الذي نزل به القرآن، كل من وضع شيئاً في غير موضعه فقد ظلم؛ ولذا كانوا يقولون لمن يضرب لبنه قبل أن يروب: ظالم. ويقولون للسقاء المضروب قبل أن يروب: مظلوم. لأن الضرب وقع في غير موقعه؛ لأن ضربه قبل أن يروب يُذهب زبده ويضيعه، فكان في غير موضعه، وهو معنىٰ معروف في كلامها، ومنه قول الشاعر[2]:

وقائلة ظلمتُ لكم سِقَائي ... وهل يخفىٰ علىٰ العَكَدِ الظَّليم

العكد: عصب مؤخر اللسان. والظليم: اللبن المظلوم

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

المضروب قبل أن يروب. معناه: أن ذوق اللسان يفهم ما ضُرب منه قبل أن يروب، وما ضُرب بعد أن راب، ونظيره قول الآخر[١]:

وصاحبِ صدقٍ لم تردني شَكَاتُه ظلمت و في ظَلْمي له عامداً أَجْرُ

ظلمته: أي: ضربته قبل أن يروب، وهذا المعنىٰ المعروف في كلام العرب، ومنه قيل للأرض التي ليست محلاً للحفر إذا وقع بها حفر: مظلومة، ومنه قول نابغة ذبيان[٢]:

إلاّ الأوَارِيَّ لأْيــاً مــا أُبَيِّنُهــا والنؤي كالحوضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ

لأن حفر النؤي الذي يحولُ بين خيمة البدوي وبين السيل وقع في أرض ليست محلاً للحفر، ومنه قيل للتراب المنزوع من القبر: (الظليم)، أي: مظلوم؛ لأنه محفور في غير محل حفر عادة، ومنه قول الشاعر يصف رجلاً مقبوراً[٣]:

فأَصْبَحَ في غَبْرَاءَ بعد إِشَاحَةٍ من العَيشِ مردودٍ عليها ظَلِيْمُها

هذا معنىٰ الظلم في لغة العرب. وجاء في القرآن معنىٰ الظلم: الظلم بمعنىٰ النقص في موضع واحد، هو قوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم﴾ ــ يعني ولم تنقص ــ ﴿مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: الآية ٣٣] وهو راجع في المعنىٰ إلىٰ ما ذكرناه.

إذا عرفتم أن الظلم في لغة العرب: هو وضع الشيء في غير محله فاعلموا أن أعظم أنواعه وأشنعها هو وضع العبادة في غير من خلق. من خلقه الخالق ورزقه ــ جل وعلا ــ فعبد غيره فقد وضع

(١) السابق.
(٢) السابق.
(٣) السابق.

عبادته وطاعته في غير موضعها فهو ظالم الظلم بمعناه الأكبر ومعنىٰ الكلمة تماماً؛ ولأجل هذا المعنىٰ كثر في القرآن إطلاق الظالم علىٰ الكافر المشرك، كقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٥٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: الآية ١٠٦]، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: الآية ١٣] وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] قال: «بشرك»، ثم تلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: الآية ١٣][1] وكذلك يطلق الظلم علىٰ المعصية التي لا تبلغ الكفر؛ لأن العاصي أطاع الشيطان وعصىٰ الله، فقد وضع طاعته في غير موضعها، ووضع معصيته في غير موضعها فهو ظالم بهذا الاعتبار، فهذا معنىٰ قوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] والتنوين في قوله: ﴿وَكُلٌّ﴾ تنوين عوض، عوض عن كلمة المضاف إليه، أي: وكلهم كانوا ظالمين. فعوض التنوين عن المحذوف كما هو معروف في محله.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ۖ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٥٥ ــ ٦١].

يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٥٥ ــ ٥٨].

نزلت هذه الآيات في بني قريظة من اليهود[1]، كانوا تعاهدوا مع النبي ﷺ أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه عدواً، ثم إنهم نقضوا العهد وأعانوا كفار مكة بالسلاح، وذهب إليهم كعب بن الأشرف ــ قبحه الله ــ إلىٰ أهل مكة يشجعهم علىٰ قتال النبي ﷺ ويكذب عليهم ويقول لهم: أنتم أهدىٰ طريقاً من محمد ﷺ كما قدمنا الكلام عليه في تفسير قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: الآية ٥١] نقض بنو قريظة العهد أولاً فأعانوا قريشاً بالسلاح علىٰ النبي ﷺ ــ والإعانة بالسلاح نقض للعهد الأول ــ فلما كلمهم ﷺ في نقض ذلك العهد قالوا: نسينا وأخطأنا فلا تأخذنا بها. وأكدوا معه العهد مرة أخرىٰ، ثم نقضوا العهد ومَالَؤُوا الأحزاب علىٰ النبي ﷺ يوم الخندق، وكانوا حرباً عليه مع المشركين؛ لأن حيي بن أخطب سيد بني النضير كان فتن سيد قريظة كعب بن أسد حتىٰ نقضوا العهد وصاروا مع الأحزاب حرباً علىٰ النبي ﷺ فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٥].

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/ ٢١).

الدواب: جمع دابة، وقد جرت العادة في القرآن أن الآدميين لا يعبر عنهم بالدواب، لكنه هنا عبر عن هؤلاء الكفرة باسم الدواب، ليشير إلىٰ أنهم كالأنعام بل هم أضل، كما قال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: الآية ٤٤] والدواب: جمع دابة. وأصل الدابة وزنه (فَاعِلَةٍ) (دَابِبَة) جاء فيه الإدغام. وجمع (الفَاعِلَة) مطلقاً علىٰ (فَوَاعِل) جمع تكسير مقيس بقياس مطرد كما هو معروف في محله[1]. أي: إن شر جميع ما يدب علىٰ وجه الأرض من الدواب هم الكفار؛ لأنهم شر كل ما يدب علىٰ وجه الأرض، فقوله هنا: ﴿۞إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ هي صيغة تفضيل، أصله: إن أشر الدواب، أي: أكثرها وأعظمها نصيباً في الشر الذين كفروا. إلا أن (خيراً) و (شراً) لكثرة الاستعمال فيهما حذفت العرب منهما همزة أفعل التفضيل، وهما صيغتا تفضيل، فقوله: ﴿۞إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي: أكثر الدواب التي تدب علىٰ وجه الأرض شراً وأعظمها نصيباً في الشر ـ وهو ضد الخير ـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كبني قريظة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾﴾ لأن الكفر متغلغل في أعماقهم لا يقلعون عنه، وهم أشقياء قد سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون.

ثم زادهم بياناً وإيضاحاً بقوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٦] فـ ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ﴾ قبله. قال بعض العلماء: قوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ إنما جيء بـ (من) لأنه مضمن معنىٰ: أخذت منهم العهود. قال بعض العلماء: (من) تبعيضية؛ لأنهم وإن كانوا كفرة كلهم فهم كلهم شر الدواب، إلا أن العهد إنما يعقد مع رؤسائهم الذين لهم العقد والحل، وبذلك الاعتبار دخلت (من) التبعيضية.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ المقرر في فن التصريف: أن كل فعل جاء علىٰ وزن (فَاعَل) كقوله هنا ﴿عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ أو علىٰ وزن (تفاعَل) إنه يقتضي اشتراك المصدر بين فاعلين[1]. فمعنىٰ ﴿عَٰهَدتَّ﴾ أخذت عليهم العهد وأخذوا عليك العهد؛ لأن (فَاعَل) تقتضي الطرفين.

والعهد: كل شيء مؤكد لا يجوز نقضه تسميه العرب عهداً. والميثاق: العهد المؤكد. ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ وهم يهود بني قريظة ألا يحاربوك وألا يعاونوا عليك محارباً آخر ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا العهد المؤكد ﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ﴾ قال بعض العلماء: (ثم) هنا للاستبعاد؛ لأنه يُسْتَبْعَد من العاقل الذي عنده عقله أن يجعل علىٰ نفسه العهود والمواثيق المؤكدة ثم ينقض ذلك؛ لأن هذا الفعل خسيس قبيح يستبعد من العقلاء. وقد تقرر في كلام العرب وفي القرآن أن لفظة (ثم) التي هي للانفصال والتراخي قد تأتي للاستبعاد، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: الآية ١] لأن من خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور يستبعد كل الاستبعاد أن يُجعل له عديل ونظير، ولذا قال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: الآية ١] أي: يجعلون له عِدْلاً ونظيراً. تقول: عَدَلْت به إذا جعلت له عدلاً ونظيراً، ومنه قول جرير[2]:

أثعلبة الفوارس أو رياحاً ... عدلت بهم طُهيَّةَ والخِشَابَا

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

فـ (ثمَّ) للاستبعاد، ومن شواهد إتيان (ثم) للاستبعاد قول الشاعر[١]:

ولا يكشفُ الغَمّاء إلا ابن حُرةٍ يرىٰ غَمَرَاتِ الموتِ ثمَّ يزورُها

لأن زيارة غمرات الموت بعد معاينتها من الأمور المستبعدة.

﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ نقض العهد هو عدم الوفاء به ونكثه ﴿عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ كما نقضوا في المرة الأولىٰ حيث أعانوا كفار مكة بالسلاح، ونقضوا في المرة الثانية حيث صاروا مع الأحزاب علىٰ النبي وأصحابه ﷺ ورضي عنهم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ لا يتقون الله (جل وعلا) فيجترئون علىٰ نقض العهود وعلىٰ كل جريمة، ليس لهم تقوىٰ من الله تحملهم علىٰ امتثال أمره واجتناب نهيه وهذه ــ والعياذ بالله ــ أمور قبيحة حيث كانوا شر الدواب، وكانوا كافرين، ولا يؤمنون، وينقضون العهود، ولا يتقون الله، فهذا منتهىٰ الذم ــ والعياذ بالله ــ هذا معنىٰ قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٦].

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧] ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ هذه (إن) هي الشرطية زيدت بعدها (ما) المزيدة لتوكيد الشرط. والأصل: فإن تثقفهم فشرد بهم. والفاء في قوله: ﴿فَشَرِّدْ﴾ لأن الجملة الطلبية جزاء الشرط، والمقرر في علم العربية أن جزاء الشرط إن كان لا يصلح أن يكون فعلاً للشرط وجب اقترانه بالفاء[٢]، يعني: إن تثقفهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم، والعرب تقول:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٤) من سورة البقرة.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٢/ ٣١٦).

ثقفه يثقفه في الحرب إذا كان له في الحرب ثقافة، أي: بصيرة وعلم قَدَرَ بها علىٰ أن يتمكن من قِرنْه ويظفر به. يعني: إن كانت ثقافتك في الحرب وبصرك به خوَّل لك أن تتمكْن منهم وتقدر عليهم ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ (من) مفعول (شرِّد) ومعنىٰ: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ افعل لهم فعلاً فظيعاً وعقاباً منكراً هائلاً عظيماً يكون ذلك العقاب عظة لمن خلفهم ومن وراءهم فيتفرقوا ويتبددوا عنك ويخافوا. وكان بعض الفرسان الشجعان لما سُئل: بأي طريق صار الفوارس يخافونك؟ قال: إذا ظفرت بفارس ضربته ضرباً فظيعاً منكراً ليخاف من وراؤه فلا يجترئوا علي!! فمعنىٰ: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: افعل بهم عقاباً منكراً فظيعاً يكون ذلك العقاب المنكر الفظيع سبباً لتشريد من وراءهم لتفريقهم وتبددهم عنك وخوفهم منك، وإن كان عند أحدهم عهد فإنهم يخافون من نقضه ويفون به لئلا تفعل بهم ما فعلت بهم، وهذا هو التحقيق في معنىٰ الآية، أي: شرِّد من خلفهم، أي: فَرِّق من خلفهم وخَوِّفهم وبَدِّدهُم بسبب فعلك فيهم؛ لأنك إذا فعلت في هؤلاء الناقضين للعهد ذلك التنكيل العظيم خافك غيرهم فتفرقوا وتبددوا عنك، وخافوا منك، وحافظوا علىٰ العهود إن كانت لهم عهود لئلا توقع بهم مثل ما أوقعت بهؤلاء. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾.

والضمير في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ راجع لـ ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: من خلفهم، من وراءهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ يعتبرون ويتعظون بالفعل العظيم الذي فعلت بهؤلاء فلا يجترئوا عليك بعدها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٧] ولما مكن الله النبي ﷺ من بني قريظة وحكم فيهم سعد

الأوس سعد بن معاذ (رضي الله عنه)؛ لأن النبي كان ﷺ لما ظفر بيهود قينقاع جاءه عبد الله بن أُبَيّ رئيس المنافقين من الخزرج، وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج، فقال للنبي ﷺ: شفعني في حلفائي. فشفعه فيهم، فأُجلوا إلىٰ نواحي الشام، وطُردوا من المدينة إلىٰ نواحي الشام، فلما نزلوا[1] علىٰ حكم النبي ﷺ وأمكن منهم جاءت الأوس ــ كما ذكره غير واحد من أهل السير والأخبار ــ فقالوا للنبي ﷺ / شفَّعت إخواننا الخزرج في حلفائهم بني قينقاع، وهؤلاء [٧/أ] بنو قريظة حلفاؤنا ــ لأن قريظة حلفاء الأوس ــ فَشَفِّعْنا فيهم كما شَفَّعْت إخواننا في حلفائهم، والنبي ﷺ يكره ألا يجيب دعاءهم، ويكره ألا يُشرِّد ببني قريظة ويفعل فيهم الأفاعيل، فتخلص من هذا وقال: «**أُحَكِّم فيهم رجلاً من خياركم هو سعد بن معاذ**». فقالوا: رضينا. فحكّم فيهم سعد بن معاذ (رضي الله عنه)، وكان سعد (رضي الله عنه) جُرِح في غزوة الخندق، جَرَحَهُ حبان بن العَرِقَة، أصابه في أكحله ــ وهو العِرْق الذي في العنق ــ وكان لما سال الدم من عِرْقه وخاف الموت كان دعا الله وقال: اللهم إن كنت أبقيت بين نبيك وبين كفار مكة حرباً فأبقني لها لأني لا أحب أن أقاتل قوماً مثل القوم الذي أخرجوا نبيك من بلده وفعلوا له وفعلوا، وإن كان في علمك أنه لم يبق بينه وبين قريش حرب فاجعل لي هذا الجرح شهادة، ولا تمتني حتىٰ تقر عيني في بني قريظة. فلما حكّمه النبي ﷺ فيهم فجاء علىٰ حمار، لما جاء للتحكيم، فقال لهم النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**قوموا لسيدكم**» قال سعد (رضي الله عنه): حكمت فيهم بأن يقتل رجالهم، وتُسبىٰ نساؤهم

(١) يعني: قريظة.

وذراريهم. فأخبره ﷺ أن هذا حكم الله فيهم من فوق سبع سمٰوات[١]. لأنهم الذين نزل فيهم؛ ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾. وكان بعض العلماء يقول: كل هذه الآيات نازلة في كفار مكة؛ لأن هذه السورة كلها في وقعة بدر والله تعالىٰ أعلم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٧].

ثم قال تعالىٰ معلماً نبيه ﷺ؛ لأن الله (جل وعلا) علم نبيه ﷺ في هذه السورة الكريمة تعاليم عظيمة، وهي كلها تعاليم من أصول الجهاد، علمه الثبات والصمود أمام العدو، وعلمه فيها الاتصال بخالق السمٰوات والأرض عند التحام الصفوف، وعلمه كيف يخيف أعداءه بشدة الوقيعة فيمن قدر عليهم، وعلمه هنا كيف يصالحهم، وكيف ينبذ صلحهم، كل هذه تعاليم جهادية عسكرية من رب العالمين ــ جل وعلا ــ للنبي وأصحابه؛ لأن هذا المحكم المنزل

---

(١) خبر حكم سعد بن معاذ في بني قريظة مخرج في الصحيحين من حديث:
١ ــ عائشة (رضي الله عنها) عند البخاري في الصلاة، باب الخيمة في المسجد للمرضىٰ وغيرهم، حديث رقم: (٤٦٣)، (١/ ٥٥٦)، وأطرافه في: (٣٩٠١، ٤١١٧، ٤١٢٢)، ومسلم في الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد...، حديث رقم: (١٧٦٩)، (٣/ ١٣٨٩).
٢ ــ أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) عند البخاري في المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، حديث رقم: (٤١٢١)، (٧/ ٤١١).
ومسلم في الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد...، حديث رقم: (١٧٦٨)، (٣/ ١٣٨٨)، إلاَّ أن الحديث الذي في الصحيحين مختصر، وهو بسياقه الطويل مخرج في المسند (٦/ ١٤١ ــ ١٤٢)، وذكره ابن هشام في السيرة (٣/ ١٠٣١)، وابن كثير في تاريخه (٤/ ١٠٣).

ينير معالم الطريق في جميع ميادين الحياة كائنة ما كانت؛ ولذا قال: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ [الأنفال: الآية ٥٨] ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ ﴾ كقوله: ﴿ فَإِمَّا نَثْقَفَنَّهُمْ ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧] فهي (إن) الشرطية زيدت بعدها (ما) لتوكيد الشرط. وبعض علماء العربية يقول: إن (إن) الشرطية إذا زيدت بعدها (ما) المؤكدة وجب اقتران المضارع بنون التوكيد، وهو كذلك في القرآن، ما جاء في القرآن (إما) إلا والفعل المضارع بعدها مؤكد بنون التوكيد الثقيلة[١]، إلا أن التحقيق أنها هي اللغة الفصحىٰ ولا تتعين، فيجوز عدم توكيد الفعل بعد (إما) (. . .)[٢] وكقول لبيد بن ربيعة[٣]:

فإما تريني اليوم أصبحت سالماً فلستُ بأحظى من كلاب وجعفر

وقول الحماسي[٤]:

زعمت تُماضر أنني إما أمت يَسْدُد أُبينُوها الأصاغر خلتي

وهو كثير في كلام العرب. وزعم جماعة من علماء العربية أن حذف النون في هذه الشواهد لضرورة الشعر، وأن النون واجبة. وزعم جماعة آخرون أنها لغة فصيحة لا ضرورة شعرية.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، ويظهر أن الشيخ رحمه الله ذكر بعض الشواهد الشعرية، ويمكن الوقوف علىٰ الكلام علىٰ هذه المسألة بشواهدها في كتاب شرح الكافية (٣/ ١٤٠٩ ــ ١٤١٠)، وفي كلام الشيخ رحمه الله فيما سبق عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

(٤) السابق.

ومعنىٰ قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ نزلت هذه الآية الكريمة في بني قريظة، قال بعض العلماء: في هذه الآية إشكال معروف؛ لأن قوله: ﴿تَخَافَنَّ﴾ الخوف يطلق علىٰ الظن الذي لا يستلزم اليقين، والعهد شيء مؤكد متيقن، فكيف ينتقل عن حكم يقين العهد إلىٰ ظن نقض العهد، والقاعدة المقررة في الأصول: أن اليقين لا يرتفع بالشك[١]؟

وأجاب العلماء عن هذا بجوابين[٢]:

أحدهما: هو ــ ما قدمنا مراراً ــ أن العرب ربما أطلقت الخوف وأرادت به العلم، كقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٩]. علمتم من قرائن أحوالهما ألا يقيما حدود الله. ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: يعلما ألا يقيما حدود الله. ولا شك أن العرب تطلق الخوف علىٰ العلم اليقين، ومن شواهده قول أبي محجن، مالك بن حبيب الثقفي[٣]:

إذا مِتُّ فادفنِّي إلىٰ جَنْبِ كَرْمَةٍ ... تُرَوِّي عِظامي في الممات عُرُوقُها
ولا تدفنني بالفَلاةِ فإنَّني ... أخافُ إذا ما مِتّ أن لا أذُوقُها

وهو يتيقن علماً يقيناً أنه إذا مات لا يذوقها، فقد أطلق (أخاف) وأراد (أعلم) وهو عربي فصيح. وعلىٰ هذا القول فـ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ أي: إما تعلمن من قوم خيانة. وقال أكثر العلماء: إن كان بينك وبين قوم عهود ومواثيق ــ كالعهود التي كانت بينه ﷺ وبين يهود بني

---

(١) انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٥٣، القواعد الفقهية الخمس الكبرى من مجموع فتاوى ابن تيمية ص ١٨٧، شرح القواعد الفقهية للزرقا ص ٣٥.

(٢) انظر: القرطبي (٨/ ٣١).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

قريظة ــ إن تخافن من هؤلاء القوم الذين كانت بينك وبينهم عهود تخافن منهم خيانة، أي: خيانة بنقض تلك العهود بأن يخونوك وينقضوا العهود. و (ياء) الخيانة مبدلة من واو؛ لأن أصل مادة الخيانة أجوف واوي العين، من: خان يخون. أصلها: (خِوَانَة) فأُبدلت الواو ياء[1]، كالحيازة من الحَوْز، والصيانة من الصون، والصيام من الصوم. إن تخف يعني من قوم بينك وبينهم عهود ومواثيق تخف منهم خيانة، أي: غدراً ونقضاً للعهود ﴿ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ ﴾ يعني بأن يكون خوف الخيانة ظهرت له أمارات ومبادىء وقرائن يُستدل بها عليه، كما ظهر من بني قريظة أنهم لما عاضدوا المشركين وناصروهم ولم يصرحوا بنبذ العهد كانت مناصرة المشركين ومعاضدتهم قرائن واضحة وأمارات لائحة علىٰ أنهم ناقضون للعهد.

وعلىٰ كل حال فالذي دل عليه استقراء القرآن ودلت عليه الوقائع ــ وهو الصحيح إن شاء الله ــ أن الأمر له حالتان: تارة يكون الكفار الذين بيننا وبينهم عهد ومصالحة تصدر منهم أشياء تدل علىٰ نقض العهد، لدلالة قرائن على ذلك، أنهم صدرت منهم مبادىء نقض العهد، ففي هذه الحالة لا ينبغي للإمام أن يبقىٰ علىٰ عهدهم وقد ظهر له منهم أمارات الخيانة لئلا يصيبوا المسلمين بغائلة، ففي هذه الحالة يجب علىٰ الإمام أن يصارحهم ويقول لهم: رأينا منكم ما يدل علىٰ نقضكم العهد وهو كذا وكذا وكذا، فهذا عهدنا إليكم قد طرحناه إليكم، ونبذناه إليكم، وألقيناه إليكم، وأعلمناكم أنه ليس بيننا وبينكم عهد، خَوفَ أن تظنوا أنا نخدعكم ونكيدكم ونحاربكم

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ١٠٤.

غفلة منكم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَانۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۚ﴾ النبذ في لغة العرب: الطرح. ومفعول (انبذ) محذوف، أي: فاطرح إليهم عهدهم، وألقه إليهم في حال كونك أنت وهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٖۚ﴾ علىٰ استواء في العلم بأنك حرب لهم وهم حرب لك، ليس أحد منكما يدلس للآخر. وعلىٰ هذا فقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٖۚ﴾ أي: في العلم؛ بأنك لست علىٰ صلحك الأول لما رأيت من علامات غدرهم ونقضهم له.

قال بعض العلماء: فانبذ إليهم عهدهم حال كون ذلك النبذ علىٰ سواء. أي: علىٰ عدالة وطريقة محمودة؛ لأن العرب تسمي العدالة (سواء)، وتسمي الطريق العدل الواضح (سواء) و (سوياً) ومن هذا قول الراجز[1]:

واضرب وجوه الغُدَّر الأَعْدَاءِ حتىٰ يُجيبُوكَ إلىٰ السَوَاءِ

أي: إلىٰ العدالة والإنصاف من غير ميل ولا جور. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ﴾ أي: إن خفت يا نبي الله خيانة من قوم كان بينك وبينهم عهد بأن ظهرت لك أمارات الغدر وعلاماته وأوائله منهم ﴿فَانۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ فاطرح إليهم، وألق إليهم العهد في حال كونك وإياهم علىٰ ﴿سَوَآءٍۚ﴾ أي: مستوين في العلم بالحالة الواقعة وأنه لا عهد بينك وبينهم. وقد جاء عن معاوية (رضي الله عنه) أنه كان بينه وبين الروم مصالحة وعهود ثم إنه (رضي الله عنه) سار إليهم وهم لا يشعرون ليقرب منهم، فإذا انقضت مدة العهد كان قريباً منهم فحمل عليهم، فإذا رجل علىٰ فرس له ــ وفي بعض روايات الحديث في السنن وغيرها ــ علىٰ دابة له، ذلك الرجل يقول: الله أكبر، الله

(١) البيت في ابن جرير (١٤/ ٢٧) القرطبي (٨/ ٣٣).

أكبر، وفاء ولا غدر، فلما جيء معاوية به وجده عمرو بن عبسة (رضي الله عنه) فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن كانت بينكم وبينهم عهود فلا تشدوا العقدة ولا تحلوها حتىٰ تنقضي المدة أو تنبذوا إليهم علىٰ سواء**». قالوا: فرجع معاوية رضي الله عنه[1].

ومعنىٰ الآية الكريمة: إن تخف الخيانة من قوم بينك وبينهم عهد ــ والخيانة هنا: الغدر ونقض العهد ــ ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: فاطرح إليهم عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ أنت وهم مستويان في العلم بنقض العهد، ولا تدلس لهم فيظنوا أنك علىٰ عهد حتىٰ تمكر بهم وهم في غفلة، بل أعلمهم بنقض العهد ليستعدوا للحرب ولا تحاربهم في غفلة. وهذا من كمال إنصاف دين الإسلام؛ لأن التعاليم السماوية والكتب الإلهية هي في غاية العدالة والإنصاف، حتىٰ مع الكفار نهىٰ نبيه أن يحاربهم وهم في غفلة من ذلك، بل أمره أن يعلمهم وينبذ إليهم العهد علناً حتىٰ يستوي الجميع في العلم بالحال الواقعة ليستعدوا للحرب والقتال؛ ولئلا يؤخذوا علىٰ غرة، فهذه مكارم الأخلاق والعدالة الكاملة. ولا شك أن هذا التشريع تشريع ممن هو عالم بأن أولياءه لهم النصر والظفر لا حاجة له في استعداد الكفار وعلمهم وقوتهم؛ لأنه يعلم أنهم مغلوبون مقهورون، وأن الدائرة عليهم، وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾ [الأنفال: الآية ٥٨].

---

(١) أخرجه الترمذي في السير، باب ما جاء في الغدر، حديث رقم: (١٥٨٠)، (٤/١٤٣)، وأبو داود في الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير نحوه، حديث رقم: (٢٧٤٢)، (٧/٤٣٩)، وانظر: صحيح الترمذي، حديث رقم: (١٢٨٥)، صحيح أبي داود، حديث رقم: (٢٣٩٧).

أما إذا تُيقن نقض العدو للعهد بأن قتلوا المسلمين، وفعلوا الأفاعيل، وصرحوا بنقض العهد علناً فهؤلاء لا حاجة لإعلامهم؛ لأن أمرهم واضح وهم لا يشكون في نقضهم العهد؛ ولأجل ذلك لما عقد النبي ﷺ مع كفار قريش صلح الحديبية في ذي القعدة من عام ست من الهجرة عقده بينه وبينهم علىٰ يد سهيل بن عمرو العامري ــ رضي الله عنه وكان في ذلك الوقت كافراً ــ وانعقد هذا الصلح، ودخل خزاعة في عهد النبي ﷺ، وأعداؤهم من البكريين في عهد قريش، وكان صلح الحديبية وقع علىٰ المهادنة تسع سنين، فغدر قريش غدراً علناً، وأعانوا البكريين علىٰ خزاعة فقتّلوهم، لما كان هذا الغدر علناً ظاهراً لا إشكال فيه ولا لبس فيه لم ينبذ إليهم رسول الله علىٰ سواء، بل غزا قريشاً غزوة الفتح، وأهل الأخبار والسير يقولون: إنه قال: «**اللَّهم خذ الأخبار والعيون عن قريش حتىٰ نبغتها في ديارها**»[1]، وما دروا إلا والمسلمون بمر الظهران كل رجل يوقد ناراً؛ لأن نقضهم للعهد هنا لا يتناوله ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ لأنهم خانوا بالفعل وقتلوا الخزاعيين قتلاً ذريعاً، كما قال صاحبهم الذي استنجد لهم رسول الله ﷺ وهو عمرو بن سالم الخزاعي (رضي الله عنه)؛ لأن قريشاً لما نقضوا العهد وقتلوا خزاعة مع البكريين أرسل الخزاعيون عمرو بن سالم (رضي الله عنه) فجاء إلىٰ النبي ﷺ في المدينة ــ هذه حرسها الله ــ قام عمرو بن سالم الخزاعي وذكر رجزه المشهور الذي يصرح فيه بأنهم قتلوهم، وأن نقضهم للعهد كالشمس لا شك فيه حيث قال

(١) السيرة لابن هشام ص ١٢٣٨، من طريق ابن إسحاق، وكذا أورده ابن كثير في تاريخه (٤/ ٢٨٣).

للنبي ﷺ في رجزه المشهور:

يـاربِّ إنـي نـاشـدٌ مُحمَّـداً حِلْـفَ أبينَـا وأَبيـهِ الأتْلَـدَا

ثم قال[1]:

إنَّ قُـريشـاً أَخْلفـوكَ المـوعِـدَا وَنَقَضُـوا ميثـاقَـكَ المُـؤَكَّـدَا
هـم بَيَّتُـونَـا بـالـوتيـرِ هُجَّـدَاً وقَتَلُـونَـا رُكَّعـاً وسُجَّـداً
وزَعَمُـوا أنْ لسْـتَ تـدعـو أحـداً وهُـم أذلّ وأقـلّ عَـدَداً
فـادع عبـاد الله يـأتُـوا مَـدَداً فيهـم رسـولُ الله قـد تجـرَّدا
في فيلقٍ كالبحر يجري مزبدا إن سيـم خسفـاً وجهـه تـربـدا
فـانصـر هـداك الله نصـراً أيـداً

إلىٰ آخر رجزه المعروف. وذكر أصحاب السير والأخبار أنه ﷺ قال: «**لا نصرني الله إن لم أنصرك**»[2]. ولم ينبذ إلىٰ قريش علىٰ سواء، بل تجهز إليهم في غزوة الفتح في رمضان من عام ثمان، وأنه

---

(١) نص هذه الأبيات في ابن هشام ص ١٢٣٥، البداية والنهاية (٤/ ٢٧٨) هكذا:

يـا رب إنـي نـاشـد محمـداً حلـف أبينـا وأبيـه الأتلـدا
قـد كنتـم وُلْـداً وكنـا والـدا ثُمـت أسلمنـا فلـم ننـزع يـدا
فـانصـر هـداك الله نصـراً أعتـدا وادعُ عبـاد الله يـأتـوا مـددا
فيهـم رسـول الله قـد تجـردا إن سيـم خسْفـاً وجهـه تـربّـدا
فـي فيلـق كـالبحـر يجـري مـزبـدا إن قـريشـاً أخلفـوك المـوعـدا
ونقضـوا ميثـاقـك المُـؤكَّـدا وجعلـوا لـي فـي كَـدَاء رصـدا
وزعمـوا أن لسـتُ أدعـو أحـدا وهـم أذلّ وأقـلّ عـددا
هـم بَيَّتُـونـا بـالـوتيـر هُجَّـدا وقتلـونـا رُكَّعـاً وسُجَّـدا

(٢) الذي نقله ابن هشام ص ١٢٣٦، وابن كثير في تاريخه (٤/ ٢٧٨)، قوله ﷺ: «**نُصرت يا عمرو بن سالم**».

(صلوات الله وسلامه عليه) لم يعلموا به حتىٰ قرُب من ديارهم، وكان ما وقع مما هو مشهور يوم الفتح. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَانۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٨﴾ [الأنفال: الآية ٥٨] وكل شيء لا [يحبه][1] الله دل علىٰ أن صاحبه مرتكب جريمة وذنباً عظيماً. والخائنون: جمع خائن، وأصل الهمزة في ﴿ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٨﴾ مبدلة من واو؛ لأن (الفاعل) من الأجوف تبدل عينه همزة، سواء كانت واواً أو ياءً، والهمزة في محل الواو؛ لأن المادة واوية العين كما بينا[2]. فالله (جل وعلا) يبغض الخائنين، فلا ينبغي للإنسان أن يخون، وهذا من مكارم الأخلاق، وغاية عدالة الكتب السماوية وإنصافها.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ٥٩﴾ [الأنفال: الآية ٥٩] في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعية[3]: قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي: ﴿ولا تَحسِبَنَّ الذين كَفَرُوا﴾ بالتاء الفوقية وكسر السين من (تَحسِبَن). وقرأه عاصم في رواية شعبة وحده أعني أبا بكر: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ بالتاء الفوقية للمخاطب وفتح سين (تَحسَبن)، وقرأه ابن عامر وحمزة وعاصم في رواية حفص: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ﴾ بياء الغيبة التحتية وفتح سين (يحسَبن).

---

(١) في الأصل: «يبغضه»، وهو سبق لسان.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ١٠٣.

(٣) انظر: السبعة ص ٣٠٧.

أما علىٰ قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو والكسائي: ﴿ولا تحسِبن﴾ وقراءة شعبة: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ فالآية الكريمة لا إشكال فيها، وكلا القراءتين واضح لا إشكال فيه ولا كلام.

أما قراءة ابن كثير[١] وحمزة وحفص عن عاصم: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء، فهذه القراءة أصلها مشكلة، ومعناها مشكل[٢]. وتجرأ أقوام جراءة لا تليق ــ وإن كان فيهم معرفة وعلم وجلالة كأبي حاتم وأبي عبيد، حتىٰ ابن جرير رحمه الله ــ وأنكروا هذه القراءة، وقالوا: إنها بعيدة من كلام العرب، وأنها لا وجه لها من الفصاحة، كما أنكر ابن جرير وغيره قراءة ابن عامر: ﴿أَنَّهُم لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٩] ــ بفتح همزة (أن) ــ.

والتحقيق أن قراءة ابن عامر: ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء، و﴿أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بفتح الهمزة، وقراءة حمزة وحفص عن عاصم: ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ وقراءة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ كلها قراءات سبعيات فصيحة متواترة عن النبي ﷺ لا وجه للطعن فيها.

/ أما علىٰ قراءة من قرأ: ﴿ولا تحسِبن الذين كفروا﴾ فاعلموا [٧/ب] أولاً أن (حَسِب) بكسر السين في مضارعها لغتان فصيحتان وقراءتان سبعيتان في جميع القرآن: (حَسِب يَحْسَب، وحَسِبتَ تَحْسَبُ). بفتح السين علىٰ القياس، و(حَسِبَ يَحْسِبُ) بكسر السين علىٰ السماع لا علىٰ القياس، وهما لغتان فصيحتان مستفيضتان وقراءتان سبعيتان.

---

(١) سبق لسان، والصواب: ابن عامر.

(٢) انظر: حجة القراءات ص ٣١٢، ابن جرير (١٤/ ٢٨)، القرطبي (٨/ ٣٣)، الدر المصون (٥/ ٦٢٣).

فقراءة شعبة عن عاصم لا فرق بينها وبين قراءة نافع وابن كثير وأبـي عمرو والكسائي، وإنما الفرق بين قراءة التاء وقراءة الياء. أما علىٰ القـراءة بتـاء الخطـاب فمعنـىٰ الآيـة واضـح لا إشكـال فيـه، والحُسبان في لغة العرب: الظن. والمعنىٰ: لا تظن يا نبـي الله الذين كفروا سبقوا. فـ (الذين) في محل المفعول الأول، وجملة (سبقوا) في محل المفعول الثاني، و (سبقوا) معناه: غلبوا وفاتوا، فكل شيء فاتك ولم تدركه وعجزتَ عنه تقول العرب: سبقك. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ [الواقعة: الآيتان ٦٠، ٦١] لسنا بمغلوبين ولا معجَّزين عن أن نبدل أمثالكم. أي: لا تظنن يا نبـي الله الذين كفروا سبقوا، لا تظنن الكفار فائتين سابقين يعجز عنهم ربهم (جل وعلا)، لا وكلا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾ ولا يسبقون، فهم تحت قهره وقدرته وسلطنته يفعل فيهم كيف يشاء، ولا يسبقونه ولا يفوتونه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت: الآية ٤] أي: يفوتوننا ويعجزوننا، لا ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: الآيـة ٤]، وكـذلـك قـراءة شعبـة عـن عاصم: ﴿ولا تَحْسَبن الذين كفروا﴾ هي معناها وهذه القراءة واحد.

أما علىٰ القراءة الأخرىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ فتفسير الآية مشكل؛ لأنه لا يُدرى أين مفعولا (حَسِب)، ولا يُدرى الفاعل أين هو؟!

وللعلماء فيها أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً:

قـال بعـض العلمـاء: هـذه الآيـة الكـريمـة حُـذفـت منهـا (أن) المصـدريـة، وحـذف (أن) المصـدريـة إذا دل المقـام عليهـا أسلـوب

عربي معروف موجود في القرآن وفي كلام العرب. قالوا: من أمثلته في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ [الروم: الآية ٢٤] الأصل: ومن آياته أن يريكم البرق. ونظيره من كلام العرب قول طرفة بن العبد في معلقته[1]:

ألا أيّهَذا الزَّاجري أحْضُرَ الوغىٰ ....

ويُروى:

ألا أيّهـذا الزَّاجري أحْضُـرُ الوغىٰ وأَنْ أشهدَ اللذاتِ هل أنْتَ مُخْلِدي

قالوا: الأصل: ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا. قالوا: والمعنىٰ: أنهم سبقوا. فيصير المفعولان في قوله: «أن سبقوا» لا يظنوا أنفسهم سابقين، أي: فائتين معجزين ربهم. قالوا: وغاية ما في هذا حذف (أن)، وهو موجود في القرآن وفي كلام العرب.

وقال بعض العلماء: ضمير الفاعل يعود إلىٰ النبي ﷺ بدلالة أن ضمير الفاعل في الخطاب واقع عليه، أي: لا تحسبن أنت يا نبي الله، ولا يحسبن هو، أي: نبي الله، لا يحسبن الذين كفروا سبقوا. ومعلوم أنّه لا يحسب ذلك ولكنه يُنْهى ليشرّع علىٰ لسانه لغيره كما قيل له: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: الآية ٢٢] ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ [الإسراء: الآية ٢٩] ونحو ذلك من الأشياء التي هو لا يفعلها، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان: الآية ٢٤] وعلىٰ هذا القول فتكون قراءة التاء قرينة دالة علىٰ الفاعل؛ لأن الفاعل في قراءة التاء ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أنت يا نبي الله. فيكون المعنىٰ في قراءة الياء: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ هو أي: نبي الله، لا يظنن

(١) شرح القصائد المشهورات (١/ ٨٠).

الذين كفروا سبقوا. أي: فاتوا وعجز عنهم ربهم سبحانه عن ذلك. وعلىٰ هذا القول فـ (الذين) في محل المفعول الأول، و (سبقوا) في محل المفعول الثاني.

وقال بعض العلماء: (الذين) في محل رفع علىٰ الفاعل، وأحد المفعولين محذوف. قالوا: المعنىٰ: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا. أي: لا يظنون أنفسهم سابقين، قالوا: وربما حُذف المفعول كما حُذف في قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٥] أصله: يخوفكم أولياءه لكن (حَسِب) و (خَوَّف) ليسا من باب واحد؛ لأنه (حسب) تنصب المبتدأ والخبر، و (خوف) لا تنصب المبتدأ والخبر بل مفعولاها أصلهما ليسا بمبتدأ وخبر.

وقال بعض العلماء: لا يحسبن الكفار الذين كفروا سبقوا.

هذه الأقوال في هذه الآية الكريمة وفي نظيرتها في سورة النور[(١)] علىٰ قراءة الياء. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾.

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن عامر: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وقرأه ابن عامر ﴿أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ بفتح الهمزة[(٢)].

وكان كبير المفسرين أبو جعفر ابن جرير الطبري (رحمه الله) يقول: إن قراءة ابن عامر هذه لا وجه لها[(٣)]. والكمال لله، لأن قراءة ابن عامر ــ رحمه الله ــ وجهها ظاهر جداً؛ لأنها تطابق قراءة الجمهور في المعنىٰ، إلا أن قراءة ابن عامر أظهر في المعنىٰ وإن

(١) وهي قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: الآية ٥٧].
(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٢.
(٣) تفسير ابن جرير (١٤/٢٨).

خفي ذلك علىٰ الإمام ابن جرير (رحمه الله)؛ لأن الكمال والعلم لله وحده.

والحاصل أنه قد تقرر في الأصول في مسلك (الإيماء والتنبيه)[١] أن من الحروف الدالة علىٰ التعليل، (إنّ) المكسورة المشددة، تقول: اضربه إنه مسيء. أي: اضربه لعلة إساءته، أكرمه إنه محسن. أي: أكرمه لعلة إحسانه. فـ (إن) من حروف التعليل. وعلىٰ قراءة الجمهور فـ (إنّ) المكسورة دلت علىٰ التعليل. لا تظننهم سابقين فائتين معجزين ربهم، لا وكلا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ لا يعجزون ربهم البتة، فيكون النهي عن قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ لأجل أنهم لا يعجزون أبداً، فلا يخطر في قلبك ذلك الحسبان الباطل.

أما علىٰ قراءة ابن عامر: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ فـ (أن) قد تقرر في علم النحو أن المصدر المنسبك من (أنّ) وصلتها و (أنْ) وصلتها يجوز جره بحرف محذوف بقياس مطرد[٢]. فالأصل: لا تحسبن الذين كفروا سبقوا؛ لأنهم لا يعجزون. غاية ما في الباب حذف حرف الجر قبل المصدر المنسبك من (أنّ) وصلتها، وهو واضح مطرد لا إشكال فيه، وقد عقد اطراده ابن مالك في خلاصته بقوله[٣]:

---

(١) جرىٰ الأصوليون علىٰ اعتبار (إنَّ) ضمن مسلك النص، وبعضهم يعتبرها من قبيل النص الصريح، ويرىٰ آخرون أنها من قبيل النص غير الصريح (الظاهر).
انظر: شرح الكوكب المنير (٤/ ١١٩)، نثر الورود (٢/ ٤٨٠)، مباحث العلة في القياس عند الأصوليين ص ٣٥٥.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

. . . . . وإنْ حُـذِف فـالنَّصْـبُ للمُنْجَـرِّ
نقـلاً وفـي (أنَّ) و (أنْ) يطَّـرِدُ مـع أَمْـنِ لبسٍ كَعَجِبْـتُ أنْ يَـدُو

فقراءة ابنِ عامر دالة على التعليل الذي دلت عليه قراءة الجمهور بقياس عربي واضح مطرد لا إشكال فيه، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (يعجزون) مضارع (أعجز)، أعجزه: إذا صيَّره عاجزاً عنه، فكل شيء غلبك ولم تقدر عليه تقول العرب: أعجزك وسبقك وفاتك. بمعنىٰ واحد ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ربهم. أو: لأنهم لا يعجزون ربهم، بل ربهم قادر عليهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾ [التوبة: الآية ٢] وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٩].

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ۖ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ۖ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ٦٠، ٦١].

قوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] أمر من الإعداد، والإعداد في لغة العرب التي نزل بها القرآن: معناه اتخاذ الشيء، وادخاره إلىٰ وقت الحاجة إليه، فكل شيء اتخذته وجعلته عندك تنتظر به وقت الحاجة إليه فقد أعددته. والأمر في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟﴾ للوجوب؛ لأن المقرر في الأصول: أن

صيغة (افعل) تدل علىٰ الوجوب ما لم يصرف عن ذلك صارف[١] [من][٢] كلام الله وكلام رسوله ﷺ. ونعني بصيغة (افعل): الصيغ الأربع الدالة علىٰ الأمر الذي هو اقتضاء طلب الفعل. والصيغ الدالة علىٰ الأمر أربعاً[٣]: فعل الأمر، كقوله هنا: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ وكقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الإسراء: الآية ٧٨] والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر، كقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾ [الحج: الآية ٢٩] واسم فعل الأمر، نحو: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ [النساء: الآية ١٠٥] والمصدر النائب عن فعله، نحو: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: الآية ٤] أي: فاضربوا رقابهم.

ولعلماء الأصول اختلاف في صيغة (افعل) إذا جاءت في كلام الله أو كلام نبيه ﷺ وتجردت عن القرائن ماذا تفيده عند الإطلاق[٤]، هل هو الإيجاب المتحتم، أو الندب، أو الطلب؟ إلىٰ غير ذلك من الأقوال.

والتحقيق الذي دلت عليه الأدلة: أن النصوص الشرعية واللغة العربية التي نزل بها القرآن كلها يدل علىٰ أن صيغة (افعل) تقتضي الوجوب ما لم تقترن بدليل يصرفها عن ذلك، والدليل علىٰ ذلك من القرآن: أن الله (جل وعلا) قال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأنعام.

﴿تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: الآية ٦٣] فلو كانت مخالفة الأمر غير معصية، وامتثال الأمر غير واجب لما شدد عليه هذا الوعيد العظيم في قوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ وقال تعالىٰ لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢] والأمر بصيغة (افعل) وهو قوله: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: الآية ١١] فعنفه التعنيف الشديد الذي لا يفعل إلا لتارك الواجب علىٰ مخالفته لصيغة (افعل) التي هي: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وقد قال نبي الله موسىٰ لأخيه هارون: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ [طه: الآية ٩٣] يعني قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ الآية [الأعراف: الآية ١٤٢]. والمعصية لا تسمىٰ إلا لارتكاب الحرام المستوجب للإثم، وقد وبخ الله (جل وعلا) قوماً توبيخاً شديداً لمخالفتهم لصيغة (افعل) في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المرسلات: الآية ٤٨] (اركعوا) صيغة (افعل) وقد وبخ من لم يمتثلها وعنَّفه تعنيفاً شديداً في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٦] وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1] فجعل أمر الله وأمر الرسول موجباً للامتثال قاطعاً للاختيار. وقال في الملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: الآية ٦] فدل علىٰ أنهم لو لم يمتثلوا ما أمرهم لكانوا عاصين، حاشاهم من ذلك.

وأما اللغة العربية: فإنك لو قلت لعبدك: اسقني ماءً. أمرته وألزمته بصيغة (افعل) ثم ترك ولم يمتثل فأدبته، فقال لك العبد:

(١) مضت عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

تأديبك لي ليس واقعاً في موقعه؛ لأن صيغة (افعل) في قولك: «اسقني» لم تلزمني ولم توجب علي!! فكل من يعرف معنىٰ اللسان العربي يقولون له: صيغة الأمر ألزمتك وأوجبت عليك، ولكنك عصيت وخالفت.

ومرادنا بهذا: أن هذا أمر خالق السموٰات والأرض، أمر رب العالمين بإعداد القوة التي يمكن أن تحصل في الاستطاعة، هذا الأمر واجب، وتضييعه حرام لا شك فيه، وبذلك يُعلم أن تواكل من يسمون باسم المسلمين في أقطار الدنيا، وعدم سعيهم في إعداد القوة الكافية لقمع العدو أنه تمرد علىٰ نظام السماء، وعدم عمل بإرشادات خالق هذا الكون ــ جل وعلا ــ وامتثال أوامره، فالله (جل وعلا) في هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن رسم الطريق وبين للنبي ﷺ وأصحابه الطريق التي إذا فعلوها وساروا عليها كانت كفيلة بنصرهم، وذل أعدائهم، وقمع كلمة الكفر وإذلاله؛ لأنه هنا أمر بإعداد القوة التي يمكن أن تدخل تحت الاستطاعة كائنة ما كانت، تطورت القوة مهما تطورت، وانتقلت من حال إلىٰ أي حال، فالآية تساير التطور بدلالة مطابقتها مهما كان وما تحول الأمر؛ لأن لفظها الصريح موجب أمر إيجاب سماوي من الله إعداد كل ما يمكن أن يدخل في الاستطاعة من القوة لقمع الكفرة (قبحهم الله)، فهذا أمر واجب، فلو عمل الناس بهذا الأمر، وبذلوا ما عندهم من الإمكانيات والثروات في إعداد القوة الكاملة من جميع وجوهها، حتىٰ في تعليم الأمور التي تطورت إليها الحياة الراهنة؛ لأن كل حال له مقال، وكل حالة لها مواجهات بأمور تلائقها. ودين الإسلام مرن غاية المرانة، كل شيء يقابله بما يصلح له، وذلك في نور السماء الذي شرعه الله

علىٰ لسان محمد ﷺ، فإن القوة التي يقوىٰ بها عسكر المسلمين، ويحمون حوزتهم، ويردون المسلوبات منهم إذا أعدوا القوة الكافية التي تدخل تحت الاستطاعة، ثم حول هذه القوة كانوا متكاتفين غير متنازعين غير متفرقين، كلمتهم واحدة، وذكروا الله كثيراً، وتعلقت أرواحهم بربهم، وطلبوا المدد من السماء، كانت أسباب النصر كلها متوفرة لديهم لقوتهم الكافية، ولعدم فشلهم؛ ولأنهم إذا فشلوا وتفرقوا دخل العدو بينهم، ورمىٰ بعضهم ببعض كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣] لا تتفرقوا، هذه أوامر الله، والقرآن يوضح الطريقة التي لو سلكها الناس لكانت كفيلة لهم بالنصر والظفر؛ لأن منها إعداد القوة الكافية، وكل من عنده مال فباستطاعته كل شيء؛ لأن المال سبب لكل شيء، وهو شريان الحياة، ويسخر الله به لمن أعطاه إياه كل الإمكانيات من تعليم حتى يتعلم ما تعلمه الكفرة ويصل إلىٰ ما وصلوا إليه، ويستعين به في جميع الميادين ليكتسب به القوة الكاملة.

ومعلوم أن هذه أوامر الله، وأنها متروكة، وأن دين الإسلام هو هو، وصلته بالله هي هي، وأن المتسمين باسم الإسلام هم الذين تنكروا للدين، وفارقوا الآلة الجبارة القاهرة التي كانوا يقهرون بها أعداء الله، وهي طاعة الله وامتثال أمره واجتناب نهيه، ولا شك أنه يجب علىٰ المسلمين امتثال أوامر الله، وأن يتفطنوا ويتحرزوا، ويفرقوا بين النافع والضار؛ لأن من طبيعة أدنىٰ العقلاء التفريق بين ما ينفع وما يضر، ولا شك أن ما يسميه الناس (الحضارة الغربية) دل الاستقراء الصحيح اليقين أن فيها ماءً زلالاً نافعاً وسماً قاتلاً فاتكاً،

ونضرب لهذا مثلاً[١]: لأنك مثلاً أيها الإنسان إذا وجدت إناء فيه ماء زلال وإناء فيه سم قاتل وأنت خارج من العمران في فلاة بعيدة شاسعة، فحالك لا يخلو من أربعة أحوال: إما أن تشرب الماء والسم معاً، وإما أن تتركهما معاً، وإما أن تشرب السم وتترك الماء، وإما أن تشرب الماء وتترك السم. فافرض مثلاً أنك وجدت ماءً زلالاً وسمّاً فاتكاً قتّالاً في موضع واحد، وأنت في فلاة معطشة بعيد جداً من العمران، فلك مع هذا أربع حالات: إما أن تشربهما معاً، وإما أن تتركهما معاً، وإما أن تشرب السم وتترك الماء، وإما أن تشرب الماء وتترك السم، ولا خامسة البتة. وهذا تقسيم صحيح، فنرجع لهذا التقسيم الصحيح بالسبر الصحيح فنقول: إذا شربتهما معاً لم ينفعك الماء؛ لأن السم الفتاك يقتلك ويقضي عليك، وإن تركتهما معاً هلكت، ولم تبلغ العمران، ولم تلتحق بالركب، وإن أخذت السم وتركت الماء فأنت مجنون أهوج أحمق حيث أخذت ما يضرك وتركت ما ينفعك!! وإن كنت عاقلاً يصدق عليك مطلق اسم العاقل أخذت الماء وتركت عنك السم. وهذا مثال لما جاءت به الحضارة الغربية، فإن ما أحدثته من القوة المادية وأنواع التنظيمات في جميع ميادين الحياة هو ماء زلال مُحتاج له جداً لا بد منه / في تطور هذه [٨/أ] الحياة الراهنة حسب ما تطورت إليه من الأوضاع، وفيها سم قاتل فتاك لا شك فيه، وهو ما جنته من الكفر، والانحطاط الخلقي، والتمرد علىٰ نظام السماء، ومعاداة خالق السمٰوات والأرض. فالموقف الطبيعي للمسلمين في الأوضاع الراهنة أن يتأملوا فإذا أخذوها كلها بنافعها وضارها أهلكهم ضارها ولم ينتفعوا بالنافع،

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

وإذا تركوها كلها ــ تركوا النافع منها والضار ــ بقوا ولم يلحقوا، وبقوا مستضعفين، وإذا أخذوا ضارها دون نافعها فهم قوم مجانين، هم حمقىٰ لا عقول لهم، وإن أخذوا النافع وتركوا الضار فهذا هو الأمر الطبيعي لكل عاقل.

والمؤسف كل الأسف أنّ غالب من يتسمّىٰ باسم الثقافة والحضارة والتمدّن لا يأخذ منهم إلاّ القشور المهلكة، والسموم الفاتكة، من الانحطاط الخلقي، والتمرّد علىٰ نظام السماء، والتنكّر لخالق هذا الكون، في الوقت الذي لا يستفيد فيه من مائها الزلال ــ الذي هو قوّتها ــ شيئاً!! وهذه مسألة معكوسة جمع صاحبها بين الكفر والإفلاس.

ما أحسنَ الدين والدنيا إذا اجتمعا ... وأقْبَحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرجلِ[1]

وإذا كان ربنا يقول في هذا المحكم المنزّل آخر الكتب السماوية عهداً برب العالمين: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] مهما تطوّرت القوّة، ومهما بلغت كائنة ما كانت ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ كان وقت نزولها أقوىٰ القوة وأعظم العدة الخيل وما جرىٰ مجراها من الرمي، وقد ثبت في صحيح مسلم عن عقبة بن عامر الجهني (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله ﷺ وهو علىٰ المنبر يقول: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ **ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**». كرّرها ثلاثاً[2]. لأن الرمي في ذلك الوقت وإعداد الخيل والسيوف هذا هو أقوىٰ القوّة

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأنعام.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، حديث رقم: (١٩١٧)، (٣/ ١٥٢٢).

وأعظمها في ذلك الوقت، والإعداد في ذلك كان يكون بمثل هذا، حتىٰ قال الشاعر[١]:

وَأَعْدَدْتُ للحَربِ أوزَارَهَا رماحاً طوالاً وخيلاً ذكوراً

وقال عمرو بن معد يكرب الزبيدي[٢]:

أَعْدَدْتُ للحَدَثَانِ سَا بِغَةً وَعَدَّاءً عَلَنْدَى

يعني: درعاً وفرساً ذكراً.

أما الآن فقد تطوّرت الحياة عن ذلك في ظروفها الراهنة، وصارت الخيل والدروع والرماح لا تغني شيئاً، فصار الأمر يتطلّب شيئاً زائداً علىٰ ذلك يساير الأحوال، ويساير التطوّر في حالاته الراهنة، فعلىٰ المسلمين أن يُعدّوا كل ما في الاستطاعة منه، ولكنهم ــ وإنا لله وإنا إليه راجعون ــ لا يُعدّون في أغلب أقطار المعمورة شيئاً، والكفار يتقوّون ويسلّطهم الله عليهم بذنوبهم. أمّا التعاليم السماويّة فهي لا تشجّع علىٰ الضعف والتواكل والتسليم للأعداء، لا، إنما تأمر بالقوّة وإعداد القوة المستطاعة، والكفاح القوي، وعدم التنازع، وعدم التفرّق، والاتّصال مع هذا كله بخالق السماوات والأرض، وامتثال أوامره، واجتناب نهيه ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] إلىٰ غير ذلك من الآيات. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ إعداده ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ الرباط: تطلقه العرب علىٰ عين الخيل المربوطة، يقولون: هذا رباط. أي:

---

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ٧١، تاريخ دمشق (٢٠/ ١٤٠).

(٢) البيت في الدر المصون (١/ ٢٠٧)، شواهد الكشاف ص ٣٢.

خيل مربوطة في سبيل الله. قال بعضهم: هو جمع ربيط، فرس ربيط: مربوط في سبيل الله، قالوا: كفصيل وفصال، وربيط ورباط، فالرباط اسم لذات الخيل المربوطة في سبيل الله؛ لأن الخيل كانت من أقوى القوة وأعظم العدة التي تُقهر بها الأعداء في وقتها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ والخيل هو الحيوان المعروف. قال بعضهم: هو جمع (خايل)؛ لأن في مشيها خُيلاء كمشية المتكبّر المتبختر. وبعضهم يقول: هو جمع (خائل) واحده (خائل). وقد قدّمنا أن التحقيق عندنا أن (الفَاعِل) يُجمع علىٰ (فَعْل) إذا كان وصفاً. وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ الإرهاب: التخويف، تخوّفون به عدو الله. والعدو يُطلق علىٰ المفرد وعلىٰ الجمع، معناه: أعداء الله، كقوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: الآية ٤] ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ [النساء: الآية ٩٢] أي: أعداء. وهذا معنىٰ قوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ككفّار مكّة وغيرهم من الكفّار.

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ معنى ﴿مِن دُونِهِمْ﴾ آخرين غيرهم لا تعلمونهم. كان بعض العلماء يقول: هم قريظة. وبعض العلماء يقول: هم فارس والروم. وبعض العلماء يقول: هم المنافقون[1].

واستدل من قال: إنهم المنافقون؛ لأن الله قال فيهم: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة:

(١) انظر هذه الأقوال في ابن جرير (١٤/ ٣٥)، القرطبي (٨/ ٣٨)، ابن كثير (٢/ ٣٢٢).

الآية ١٠١] وقال كثير من العلماء: هم مردة الجن، وزعم بعض العلماء أن الجن يخافون من الخيل، وأنهم يفرون من صهيلها!! وجاء في ذلك بعض الأحاديث.

والتحقيق أنه لم يثبت فيه شيء عن النبي ﷺ. وقال بعض العلماء: البحث عن هؤلاء الآخرين لا طائل تحته؛ لأنّ الله صرّح بأنّا لا نعلمهم فكيف نتكلّم فيما قال ربّنا إنّنا لا نعلمه، والله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: الآية ٣٦][1] وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

ولما أمر الله بإعداد القوة المستطاعة كائنة ما كانت، وكان إعدادها يحتاج إلىٰ مادّة رغب المؤمنين في الإنفاق في سبيل الله، لينفقوا ويعينوا علىٰ إعداد القوة، قال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (ما) شرطية، و ﴿مِن شَىْءٍ﴾ بيان لـ (ما) و ﴿تُنفِقُوا۟﴾ معناه: [تبذلونه][2] لوجه الله وابتغاء مرضاته ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في طريقه التي ترضيه، ويدخل فيها دخولاً أولياً: ما يعين علىٰ الجهاد من إعداد القوة، ومن رباط الخيل.

﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: يعطكم الله ثوابه يوم القيامة وافياً غير منقوص، الحسنة بعشرة أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ ما شاء الله من الأضعاف.

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] لا تنقصون شيئاً من حقوقكم.

---

(١) انظر: القرطبي (٨/٣٨)

(٢) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٦١ ــ ٦٩].

يقول الله جل وعلا: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٦١ ــ ٦٢].

قرأ هذا الحرف عامّة القرّاء السبعة غير عاصم في رواية شعبة أبي بكر: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ ﴾ بفتح السين. وقرأه شعبة عن عاصم: ﴿وإن جنحوا للسِّلم﴾[1].

و (السَلم) بفتح السين و (السِلم) بكسرها لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان، والمراد بالسَلم: الصلح. العرب تسمي الصلح: سَلماً، وسِلماً. وربما سمّتها: (سلاماً).

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٢.

والجنوح في لغة العرب: الميل، تقول العرب: جنح فلان إلىٰ كذا، وجنح له. أي: مال إليه، وهو معنىٰ معروف في كلام العرب، ومنه قول غيلان ذي الرمة[١]:

إذا ماتَ فوقَ الرحلِ أحييتُ روحَهُ بذكراكِ والعيسُ المَراسيلُ جُنَّحُ

أي مائلات الأعناق في السير.

معناها: إن مال الكفار يا نبي الله إلىٰ السِلم وودّوها وطلبوها فاجنح لها. أي: وافقهم في ذلك، وملْ إلىٰ السلم وصالحهم وسالمهم كما طلبوا ذلك منك.

و (السلم) مؤنَّثة في اللغة الفصحىٰ، كالحَرب فهي مؤنثة أيضاً، ومنه قول العبّاس بن مرداس[٢]:

السِّلْمُ تأخذُ منها ما رَضيتَ به والحربُ تكفيكَ من أَنْفَاسِهَا جُرَعُ

والمعنىٰ: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ ﴾ أي: الكفار ﴿ إِلَى ٱلسَّلۡمِ ﴾ إلى الصلح، أي: مالوا إلىٰ المصالحة، وأحبوا أن تكون معهم في صلح ﴿ فَٱجۡنَحۡ ﴾ يا نبي الله إليها، أي: إلىٰ الصلح، فَمِلْ إلىٰ الصلح وسالمهم.

وكان بعض العلماء يزعم أن هذه الآية من سورة الأنفال بينها وبين آية القتال تعارض أو إشكال[٣]، والحق أنه لا تعارض بينهما؛ لأن آية الأنفال هذه قيدت أمر النبي ﷺ بجنوحه إلىٰ السلم بأن يكون الكفار هم الذين جنحوا إليه أوّلاً وطلبوه ومالوا إليه. أما آية

(١) البيت في القرطبي (٨/ ٣٩)، الدر المصون (٥/ ٦٣٠).
(٢) البيت في الدر المصون (٢/ ٣٥٩)، (٥/ ٦٣١).
(٣) انظر: ابن جرير (١٤/ ٤١)، القرطبي (٨/ ٣٩).

سورة القتال ــ سورة محمد ــ فهي لا تعارض هذا؛ لأن الله نهاهم فيها عن ابتداء طلب الصلح، وذلك لا ينافي إجابة الكفار إليه بعد أن طلبوه. ونعني بالآية المذكورة: قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: الآية ٣٥] لأن آية القتال فيها النهي عن أن يكونوا هم البادئين بالدعاء إلىٰ الصلح؛ لأن الداعي إلىٰ الصلح يظهر من قرينة حاله أنه كأنه خائف، وأنه يحس بالغلبة فيريد الصلح. أما القوي الآمن الذي لا يظن أنه مغلوب فلا داعي له إلىٰ طلب الصلح. فلا معارضة بين الآيتين. وهذا معنىٰ قوله: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ أي: إن مال الكفار إلىٰ الصلح فاجنح لها.

أما قراءة: ﴿فاجْنُحْ لها﴾ فهي شاذّة وليست من القراءات السبعية[1]. أي: فَمِلْ إليها ووافقهم علىٰ ذلك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: إن صالحتهم فلا تخف مما يدبّرون لك من المكر والغدر والحيل في مدّة تلك المصالحة، لا تهتم بذلك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثق إليه، وفوّض إليه جميع أمورك، فإنه (جل وعلا) يكفيك ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ [الطلاق: الآية ٣] وهذا معنى قوله: ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الله ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولونه من المنكر والغوائل التي يتربّصونك بها في مدة الصلح ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل ما يبطنون ويضمرون من المكر والخديعة والحيل أثناء المدة التي صالحتهم فيها، فهو (جل وعلا) لا يفوته شيء مما قالوا ولا مما عملوا، فهو مطّلع عليهم وكافيكهم، لا تهتم بذلك، واجعل ثقتك بالله وتوكلك عليه، فإنه يكفيك.

---

(١) انظر: المحتسب (١/ ٢٨٠).

واعلم أن جماعة من العلماء من الصحابة فمن بعدهم زعموا أن هذه الآية من سورة الأنفال منسوخة بآية السيف النازلة في براءة[1]؛ لأنها نازلة بعدها؛ لأن براءة نزلت في رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك، وذلك العام عام تسع بلا خلاف، لم يعش النبي ﷺ بعده إلاّ سنة واحدة، وسورة الأنفال هذه نزلت في وقعة بدر، وكانت في العام الثاني من الهجرة كما أوضحناه. قالوا: فهي منسوخة بآية السيف، كقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: الآية ٥].

والتحقيق أن هذه الآية ليست منسوخة، وأن المصالحة والمهادنة لم تُنسخ، وأن الإمام يخيّر وينظر في مصالح المسلمين، فإن رأى المصلحة في الصلح حتى يتقوّى المسلمون فيجتمع شملهم ويقدروا علىٰ القتال صالح، وإن رأى المصلحة في عدم الصلح لم يصالح، فالكل واسع وجائز إن شاء الله. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦١].

﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٢] ﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾ أي: الكفار الجانحون للسلم الطالبون للصلح ﴿أَن يَخْدَعُوكَ﴾ بذلك الصلح ويتمكنوا في مدة المصالحة من تدبير المكر والمكائد ليضروك بها؛ لأن بعض الكفار يصالح غدراً ومكيدة، لا محبة في المصالحة. وكان قريظة بعد أن أعانوا كفار مكة بالسلاح وصالحوه المرة الأخرى ليس في نيتهم الدوام على المصالحة، بل يتربّصون به الدوائر،

(١) راجع المصادر في الحاشية قبل السابقة.

ويريدون أن يعينوا عليه الكفار. إذا كان قصدهم بالصلح الذي طلبوه وجنحوا إليه المخادعة فلا يهمّنك ذلك، ولا تكترث بقصدهم الخداع فإنهم لا يضروك شيئاً؛ لأن الله يكفيك ذلك كله؛ ولذا قال: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ الخديعة: الغرور، وهو إبطان الشر ومحاولة إيصال الشر بطريق خفية لا ظاهرة واضحة.

﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ حَسْبك: معناه كافيك الله (جل وعلا). العرب تقول: حَسْبُه كذا. معناه: كافيه كذا. وهذا معنىً معروف في كلامها مشهور، ومنه قول جرير يهجو قوماً ممن كان يهجوهم[1]:

ولقد رأيتُ من المكارمِ حسبكم ... أن تلبسوا خَزَّ الثيابِ وتشبعوا
فإذا تُذوكِرَت المكارم مرةً ... في مجلسٍ أنتم به فتقنَّعُوا

فقوله: حسبكم يعني: يكفيكم من المكارم أن تأكلوا وتشربوا، وهذا غاية الذم كما هجا به الحطيئةُ الزبرقان بن بدر لما قال له[2]:

دع المكَارِمَ لا تَرْحَلْ لبُغْيَتِهَا ... واقْعُد فإنكَ أنتَ الطاعمُ الكَاسِي

وحبسه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ كافيك الله، يكفيك شرهم وشر خداعهم، فثق به وتوكل عليه ولا تكترث بإرادتهم بالصلح الخداع. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ ﴿هُوَ﴾ أي: الله ﴿ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ أيدك: معناه قوّاك. فالعرب تقول: أيّده يؤيّده تأييداً. إذا قوّاه. وتقول: رجل أيِّد. إذا كان قويّاً. و (الأيد) و (الآد):

---

(١) البيت في تاريخ دمشق (٢٩/ ١٨١)، ونسبه لحسان (رضي الله عنه) وليس في ديوانه، ونسبه في شواهد الكشاف ص ٧٠ لجرير.

(٢) البيت في ديوانه ص ١٠٨.

القوة[١]. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات: الآية ٤٧] أي: بنيناها بقوّة. وليست من (الأيدي) جمع (يد) فليست من آيات الصفات، بل معناها: القوة. هذا معنى: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ أي: قوّاك وعزّزك بنصره. وأصل النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ وقوّاك أيضاً وأيّدك بالمؤمنين، ويدخل فيهم دخولاً أولاً: الأنصار ـ الأوس والخزرج ـ الذين آووه ونصروه وأيّده الله بهم. كان الأوس والخزرج وهما بطنا الأنصار أبناء قَيْلة، أولاد حارثة الغطريف كانوا مكثوا سنين كثيرة بينهم حروب دامية، وقتال هلك فيها أشرافهم، وقُتل فيها ساداتهم، وبينهم عداوات وإحن وأضغان مستحكمة قديمة متوارثة لا يكاد أن تزول من صدورهم أبداً، فلما أرسل الله إليهم نبيه محمَّداً ﷺ وآووه ونصروه، وأيده الله بنصره وبهم، أزال تلك الأضغان والعداوات الكامنة، وجعل مكانها المحبة الصادقة والمودة والإخاء الكامل؛ ولذا امتنّ الله عليهم بذلك هنا، وقد قدمنا نحوه في سورة آل عمران؛ لأنه قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: الآيتان ٦٢، ٦٣] قال بعض العلماء: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: الأنصار. وقال بعض العلماء: هي أعمّ من الأنصار؛ لأن العرب الذين هم أول من دخل في دينه ﷺ كانوا أمّة بينها ضغائن وحروب ومقاتلات لا تكاد تجتمع علىٰ رجل واحد، فجمع الله شتاتها ولمَّ شعثها وألّف قلوبها على الإيمان. وأكثر المفسرين على أن المراد بهم الأنصار[٢]، كانوا في

(١) مضى عند تفسير الآية (٢٦) من هذه السورة.

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/ ٤٥)، القرطبي (٨/ ٤٢).

العداوات الشديدة، ومكثوا سنين كثيرة في حروب دامية، واستحكمت بينهم العداوات والإحن والأضغان، فألّف الله بين قلوبهم بنبيه ﷺ كما قال هنا: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ التأليف في لغة العرب معناه: الجمع. أي: جمع بين قلوبهم فصارت على قلب رجل واحد، نيتها إعلاء كلمة الله، ونصر دينه، ونصر نبيّه، ومحبة كل للآخر بعد أن كانت قلوبهم غير مجتمعة ولا متألفة، بل هذا يريد قتل هذا، وهذا يريد قتل هذا، بقلوب شتّى لا تتألّف؛ ولذا قال: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يعني: لو صرفت ما في الأرض جميعاً لتؤلّف بين قلوبهم ما أمكن ذلك أبداً. ومن أعظم الأسباب الدنيوية لكل شيء: المال، فإنه يؤلف القلوب ويزيل العداوة. يعني: لو أنفقت جميع ما في الأرض ما قدرت على أن توفّق بين قلوبهم ولا أن توحّدها، ولكن الله العظيم بقدرته وجلاله ألّف بين قلوبهم؛ لأنه تعالى وحده هو الذي يملك القلوب ويصرّفها كيف يشاء، إذ كل إنسان قلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبه كيف يشاء، كما قدّمنا بسطه في تفسير قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ الآية [الأنفال: الآية ٢٤]. الذي بيده القلوب يصرّفها كيف يشاء، ويقلبها كيف يشاء هو وحده الذي يقدر على تأليف قلوبهم، وجمع كلمتهم، ولمّ شعثهم، وإزالة ما كان بينهم كما تقدم في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣] وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٣].

وقد قدمنا مراراً أن العزيز هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، والعزة: الغلبة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: الآية ٨] أي: ولله الغلبة ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص: الآية ٢٣] غلبني في الخصام. ومن كلام العرب: (مَنْ عزَّ بزّ)[1] يعنون: من غلب استلب، وقد نظمته الخنساء السلمية الشاعرة في قولها[2]:

كأَنْ لَمْ يكُونُوا حمى يُخْتَشَى إذْ النـاسُ إذْ ذاكَ مـنْ عـزَّ بـزَّا

أي: من غلب استلب. والحكيم: هو الذي يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها[3]. فاقتضت عزّته وغلبته أن يقهر أعداءك، وأن لا يضرّوك بخداعهم ونيّتهم المكر والخداع؛ لأن ربك غالبٌ قاهر لا يغلبه شيء، واقتضت حكمته أن يؤلّف بين قلوب أنصارك الذين نصروك، ويوحّد كلمتهم، ويجعلهم كرجل واحد، هذا اقتضته عزّته وحكمته، وإن كانت حكمته تقتضي العدل الكامل، وكمال التمام في كل ما يدبّره في شرعه وقدره وغير ذلك. وعزّته تقتضي أنه غالبٌ لكل شيء، ويدخل في ذلك قهره للكفار الجانحين للسلم الذين يريدون بذلك الخداع، ويدخل في حكمته جمعه بين قلوب أصحابك ليجتمعوا علىٰ نصرة دين الله وإعلاء كلمته. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٣].

ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٤] قرأ هذا الحرف عامّة القراء غير نافع:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾. وقرأه نافع وحده من السبعة: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِىء حَسْبُكَ الله﴾ بالهمزة[١].

أما على قراءة نافع فهو من النبأ بلا خلاف. وقد قدّمنا مراراً[٢] أن النبأ في لغة العرب: الخبر الذي له خطب وشأن، فكل نبأ خبرا وليس كل خبر نبأً، لأن النبأ أخص من مطلق الخبر، إذ لا تكاد العرب تطلق النبأ إلا على الإخبار بما فيه أهمية وله خطب وشأن، فلو قلت: جاءنا اليوم نبأ الأمير، أو نبأ الجيوش. كان هذا من كلام العرب؛ لأنه خبرٌ له خطبٌ وشأن، ولو قلت: بلغني اليوم نبأٌ عن حمار الحجّام. لما كان هذا من كلام العرب؛ لأن خبر حمار الحجّام لا أهمية له ولا شأن ولا خطب له.

أما علىٰ قراءة الجمهور: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ فقال بعض العلماء: معناه كمعنىٰ قراءة نافع، إلا أن الهمزة أُبدلت ياءً كما أُبدلت همزة (النسيء) في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: الآية ٣٧] أُبدلت ياءً في قراءة سبعية صحيحة[٣] ﴿إِنَّمَا النَّسِيُّ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ﴾ وبها قرأ ورش عن نافع وغيره، وعلى هذا القول فالقراءتان معناهما واحد.

وقال بعض العلماء: (النبي) على قراءة الجمهور ليس من النبأ الذي هو الخبر وإنما هو من (النَّبْوَة) بمعنى الارتفاع؛ لأن النبي يوحى إليه وحيٌ، وهو خبرٌ له شأنٌ وخطب؛ ولأن له مكانةً رفيعة،

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.
(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

والشيء المرتفع تسمّيه العرب (نبيّاً) والنّبْوة: الارتفاع، ومنه قيل لكثيب الرمل: (نبي) أي: لأنه مرتفع، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[1]:

إلى السيد الصعب لو أنه ... يقوم على ذروةِ الصاقبِ
لأَصْبَحَ رَتْماً دُقَاقُ الحصى ... مكان النبي من الكاثبِ

يعني بالنبي: كثيب رمل مرتفع. وهذا معنى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيك الله من أمور الدنيا والآخرة، فإنه يكفيك أعداءك ويعينك على من ناوءك منهم.

وقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ فيه وجهان من التفسير معروفان[2]: قال قومٌ من علماء التفسير: إن قوله: ﴿وَمَنِ﴾ في محل رفع، وأنه معطوف على لفظ الجلالة، أي: حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين، يعينك الله ويؤيّدك الله بالمؤمنين. وهذا مرويٌ عن الحسن البصري. والذين قالوا هذا القول قالوا: هذه الآية مكيّة جُعلت في سورة الأنفال وهي مدنية بأمرٍ من النبي ﷺ، وزعموا أنها نزلت عندما أسلم عمر بن الخطّاب ــ رضي الله عنه ــ والنبي وأصحابه مختفون في دار الأرقم ابن أبي الأرقم في مكة، وأن عمر أظهر إسلامه حتى صلوا في المسجد، وما كانوا يقدرون، وأن الله

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأعراف، ولفظ الشطر الأول من البيت الأول في ديوانه:

على الأروع السقب لو أنه ..... .

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/ ٤٩)، القرطبي (٨/ ٤٣)، الأضواء (٢/ ٤١٦)، ولابن القيم رحمه الله تحقيق جيد في معنىٰ الآية ذكره في زاد المعاد (١/ ٣٥).

أنزلها في مكة، وأن النبـي ﷺ أمر بجعلها في هذه السورة المدنية أعني سورة الأنفال.

والتحقيق الذي دلّ عليه استقراء القرآن العظيم، وبه قال أكثر علماء التفسير المشهورين: أن قوله ﴿ وَمَنِ﴾ عطفٌ على الضمير في قوله: ﴿ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ معناه: كافيك الله وكافي معك من اتبعك من المؤمنين، فالله يكفيك المُؤن وشرور الأعداء وكل بليّة، كما أنه يكفي أتباعك من الصحابة فمن بعدهم (رضي الله عنهم). وهذا القول هو التحقيق، وقد دلّ استقراء القرآن عليه؛ لأن الحسْب ــ الذي هو الكفاية ــ من خصائص رب العالمين، ولم يسنده لأحدٍ من خلقه حيث قال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: الآية ٥٩] فجعل الإيتاء لله والرسول، والحسب لله وحده. وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٤] فجعل الحسب له وحده، والتأييد بنصر الله وبالمؤمنين. وقد أثنى الله (جل وعلا) على قوم أفردوه بالحسب ــ وهو الكفاية ــ كما في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٧٣] الله وحده ولم يذكر معه غيره، فأثنى عليهم بإفراد الخالق بهذا الحسب الذي هو الكفاية. ونظيره قوله في خاتمة براءة: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: الآية ١٢٩] هذا هو التحقيق إن شاء الله أن المعنى: يكفيك الله ويكفي جميع أتباعك.

وفي هذين ترغيب عظيم في الإسلام؛ لأن من اتبع النبـي ﷺ كفاه الله كما كفى نبيّه ﷺ.

وهذا التفسير هو الذي عليه جمهور علماء المفسرين، وهو الذي دل عليه استقراء القرآن كما بيّنّا، إلا أنه يَرِدُ عليه سؤال عربي نحوي: وهو أن يقول طالب العلم: قررتم أن التحقيق أن (من) من قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ معطوفة على الكاف في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾[1] أي: حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين. والمقرّر عند جماعة من علماء العربية أن الضمير المخفوض لا يجوز العطف عليه إلا بإعادة الخافض، وهنا لم يُعد الخافض.

وأُجيب عن هذا السؤال من أربعة أوجه[2]:

أحدها: أن هذه القضية غير مسلّمة[3]، وأن جماعة من علماء العربية أصحاب علم وتحقيق قالوا: لا مانع من العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض. وهو رأي ابن مالك ــ رحمه الله ــ لأنه لما ذكر المذهب الأول بقوله في خلاصته[4]:

وعَوْدُ خَافضٍ لدى عَطْفٍ عَلَى ضَميرِ خَفْضٍ لَازِماً قد جُعِلاَ

قال بعده:

وليسَ عندي لَازماً إذْ قد أَتَى في النظم والنَّثْرِ الصحيحِ مُثْبَتَا

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٥١٥)، الدر المصون (٥/ ٦٣١)، الأضواء (٢/ ٤١٧).

(٣) أطال ابن مالك (رحمه الله) في إبطالها. انظر: شرح الكافية (٣/ ١٢٤٦ ــ ١٢٥٥)

(٤) الخلاصة ص ٤٨.

ومراده بالنثر الصحيح: قراءة حمزة ــ رحمه الله ــ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ والأرحامِ﴾ [النساء: الآية ١] بخفض ميم الأرحام معطوفة على الضمير المجرور في قوله: (به) من غير إعادة الخافض، وهي قراءة سبعية صحيحة[١]، فمعلوم أن اللغة التي جاءت بها لا بد أن تكون لغة عربية صحيحة، وهو كذلك. وقد اشتهر في أشعار العرب العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، وأنشد له الشيخ سيبويه في كتابه[٢]:

فاليومَ قرَّبْتَ تَهْجُونَا وتَشْتِمُنَا فَاذْهَبْ فما بِكَ والأيَّامِ منْ عَجَبِ

فعطف الأيام على الضمير المجرور بالباء من غير إعادة الخافض، وهو كثير في أشعار العرب، ومنه قول الآخر[٣]:

نُعَلِّقُ في مثْلِ السَّوارِي سُيُوفَنَا وَمَا بَيْنَهَا والكَعْبِ مهوى النفانف

فقوله: «والكعب» معطوف على الضمير المجرور من غير إعادة الخافض. ونظيره قول الآخر[٤]:

لقد رام آفاق السماء فلم يجد له مصعداً فيها ولا الأرض مقعداً

فعطف الأرض على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، ونظيره قول الآخر[٥]:

أمر مع الكتيبةِ لا أُبَالي أَحَتْفي كان فيها أَمْ سِوَاهَا

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٧٥.

(٢) الكتاب (٢/ ٣٨٣)، وهو في شرح الكافية (٣/ ١٢٥٠).

(٣) البيت في شرح الكافية (٣/ ١٢٥١).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) البيت في شرح الكافية (٣/ ١٢٥٢)، وهو للعباس بن مرداس.

فعطف (سواها) بـ (أم) على الضمير المخفوض، وهو كثير في كلام العرب.

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ في محل نصب معطوف على المحل؛ لأن الكاف من قوله ﴿حَسْبُكَ﴾ وإن كان في محل خفض مضاف إليه ما قبله فأصله مفعول؛ لأن الحسب بمعنى الكفاية، والأصل: يكفيك. فالكاف في محل المفعول، والمعروف في علم العربية أن المخفوض بالإضافة الذي أصله النصب يجوز العطف عليه مخفوضاً، وتجوز مراعاة محله فينصب المعطوف عليه وهو معروف في محله.

الوجه الثالث: وهو أظهرها وأبينها وأقلها تكلفاً: أن قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ في محل نصب على أنه مفعول معه، بناء على القول بأن العطف ضعيف، وهو العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض فيتعيّن حينئذٍ النصب على المفعول معه (حسبك الله مع من اتبعك من المؤمنين) وهذا واضح لا إشكال فيه، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر[1]:

إذا كانَتِ الهيجاءُ وانْشَقَّتِ العَصَا فَحَسْبُكَ والضحاكَ سيفٌ مهنّدُ

فنصب (والضحاك) مفعولاً معه. أي: حسبكَ مع الضحاكِ.

الوجه الرابع: أن قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ في محل رفع على أنه مبتدأ خبره محذوف دلّ ما قبله عليه. أي: ومن اتبعك من المؤمنين

(١) البيت في القرطبي (٨/ ٤٢)، الدر المصون (١/ ٣٨٤)، ذيل الأمالي ص ١٤٠، ونسبه لجرير، وليس في ديوانه.

فحسبهم الله أيضاً. وهذا معنى قوله: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٤].

ثم قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: الآية ٦٥] التحريض: هو الحض على الشيء والحث عليه بشدّة. حرّضهم على القتال، أي: حثهم وحرّصهم عليه بشدّة؛ لأنّ القتال فيه خير الدنيا والآخرة، ثم إنه كان في أول الأمر يجب على المسلمين لقلّتهم أن يصابر الرجل الواحد منهم عشرة من الكفار، كان الرجل الواحد من المسلمين يجب عليه أن يصبر أمام عشرة مقاتلين من الكفار، فلذا قال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: الآية ٦٥] فإذا قابلت العشرين بالمائتين كان كل رجل مقابل لعشرة كاملة ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ صابرون محتسبون لله في ميدان الحرب.

ثم قال: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر: ﴿وإن تكن منكم مائة﴾ بالتاء الفوقية. وقرأه العراقيون أعني أبا عمرو البصري والكوفيين الثلاثة ــ عاصماً وحمزة والكسائي ــ قرؤوه كلهم: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا﴾ بالياء التحتية كما قبله[1]؛ لأن المائة إذا قابلت ألفاً فكل واحد بعشرة.

وكأن قائلاً قال: لِمَ كان الواحد من المسلمين يغلب العشرة من الكفار، ويجب عليه أن يصبر لها، والله لم يوجب عليه ذلك إلا لعلمه بأنه قِرْنٌ لها وكفؤٌ لها عند الضرورة قبل أن يكثر المسلمون،

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٢.

فما موجب هذا حيث يكون الواحد من هؤلاء يقاوم العشرة من هؤلاء؟ فبيّن الله (جل وعلا) الحكمة في ذلك، / وهذه الحكمة التي [٨/ب] بيّن الله بهذه الآية من سورة الأنفال حكمة سماويّة عظيمة تحتها أسرار هائلة يجب على كل مسلم أن يتصفّحها ويتعقّلها ويتدبّر معانيها، وخصوصاً كل الخصوص تحتّمها على العسكريين من المسلمين، يجب عليهم كل الوجوب أن يتأملوا هذه الآية من سورة الأنفال، وأن يتصفّحوا معناها، فإن فيها سراً عظيماً لو تعقّله المسلمون لفهموا الحقائق، ولما ساروا في الظلام؛ لأن الله لما قال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بيّن علّة ذلك وأوضحها فقال: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وهو كون الواحد يغلب عشرة منهم ويصابرها بسبب أنهم قوم لا يفقهون. أي: لا فقه عندهم ولا فهم عن الله، والذي لا يفقه عن الله ولا يفهم ما عنده فهو كالبهيمة ليس له مبدأٌ يقاتل عليه، والذي يتقدم إلى الميدان في خطوط النار الأمامية ليس عنده مبدأٌ نبيلٌ يقاتل عليه فهو مائع، هزيمته قريبة سريعة، لا يقاوم أبداً. فإذا التقى من لا فقه عنده بمن عنده فقهٌ عن الله فالمسلم القائم في الميدان للعشرة يفقه عن الله ويفهم، ويقول: إن ربي اشترى منّي هذه الحياة القصيرة في هذه الأيام المعدودة، وهي حياة مكدّرة بالأمراض والأسقام والمصائب والبلايا والأحزان، اشتراها مني بحياة سرمدية أبدية لا انقطاع فيها ولا كدر ولا ألم ولا حزن، وهذا المال القليل اشتراه مني بالحور العين والولدان وغرف الجنان ومجاورة رب غير غضبان، فهو ينتظر ما عند الله، فاهمٌ عن الله، يفقه عن الله، فهو متقدّمٌ في الميدان، لا يُهزم أبداً، ولو قُتل

لكانت هي أمنيته، فهذا الذي يقاتل على هذا المبدأ النبيل، وهذا الغرض الصحيح، فاهماً عن الله، يفقه عن الله، هذا لا يقاومه الأهوج الجاهل الذي لا يفقه شيئاً، ولا يقاتل على مبدأ، فحياته أهمّ عنده مما يقاتل عليه، فالذين لا يفقهون عن الله من الجنود العسكريين لا يمكن أن يردّوا سلیباً، ولا أن يُعلوا كلمة الله؛ لأنهم لا مبدأ لهم، وهم قومٌ لا فقه لهم، فلا يقاتلون على شيء ترخص بسببه نفوسهم عندهم ويرغبون فيما عند الله.

وهذا سرٌ لطيف عظيم، وتعليمٌ سماوي هائل، يفهم به المسلمون أن أول شيء من الأساسيات للاستعاد للميدان هو الفقه والفهم عن الله، فيجب كل الوجوب أن يُعلَّم العسكريون عن الله حتى يفقهوا؛ لأنهم إذا كانوا فاهمين عن الله، عارفين بنبل المبدأ الذي يقاتلون عليه، كانوا شجعاناً وصابرين، لا يرجعون القهقرى ولا يُهزمون، كما سجّله التاريخ لأوائل هذه الأمة. وإن كانوا لا يفقهون عن الله شيئاً، جَهَلَةٌ كالأنعام لا مبدأ لهم يقاتلون عليه، فهم ليسوا بأساس ولا معوَّل عليهم، يُهزمون مع كل ناعق كما بيّنته هذه الآية العظيمة الكريمة من سورة الأنفال. وهذا معنى قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٥].

الفقه في لغة العرب: معناه الفهم ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: الآية ٩١] أي: ما نفهمه؛ لأنهم لا يفهمون عن الله شيئاً. وهذا معنى قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

فلما انتشر الإسلام وكثر المسلمون خفف الله (جل وعلا) عن المؤمنين وجوب مصابرة واحد لعشرة إلى مصابرة واحد لاثنين قال: ﴿الْآنَ﴾ (الآن) يعبّر بها عن الوقت الحاضر الذي أنت فيه،

﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٦] تكليفه الأول وهو مصابرة الواحد للعشرة، وجاءكم بتخفيف بدله وهو مصابرة الواحد للاثنين.

﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ قرأه جماهير القرّاء منهم عامة السبعة غير عاصم وحمزة: ﴿وعلم أن فيكم ضُعفاً﴾ بضمّ الضاد. وقرأه عاصم وحمزة: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾[1] والضَعف والضُعف لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان ﴿خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفاً﴾.

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ هذا الحرف الأخير الذي هو قوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ لم يقرأه بالياء من السبعة إلّا الكوفيون الثلاثة ــ وهم عاصم وحمزة والكسائي ــ أما أبو عمرو البصري هنا فقد وافق غيره، فصار نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو يقرؤون: ﴿فإن تكن﴾ بالتاء، وعاصم وحمزة والكسائي يقرأون: ﴿فَإِن يَكُن﴾ بالياء[2]. وهما لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ الواحد لاثنين ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفَيْنِ﴾ الواحد لاثنين ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ جل وعلا ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ معيّة نصر وتوفيق وتأييد. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٦٧ ــ ٦٩].

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٢.
(٢) السابق.

﴿ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٧].

لما انهزم المشركون يوم بدر كان سعد بن معاذ (رضي الله عنه) قائماً متوشّحاً سيفه على العريش الذي فيه رسول الله ﷺ، رآه النبي ﷺ ينظر كأنه ينظر إلى شيء يكرهه فقال: «**كأنك تنظر إلى شيء تكرهه!!**» قال: نعم، رأيتهم يأسرون الكفار ورغبتي أن يُقتلوا؛ لأن قتل الكفار أقوى للإسلام وأشدّ مناعة لشوكته، ويحصل به ضعف المشركين وانكسار شوكة الكفر، فقتلهم هنا أحبّ إليّ[1].

ولما اجتمع الأسارى عند رسول الله ﷺ استشار أصحابه، فجاءت روايات متعدّدة أن ممن أشار عليه أبو بكر وعمر وعبد الله بن رواحة، ومن أكثرها إشارة أبي بكر وعمر، وأن أبا بكر قال له: يا رسول الله: إنهم قومك وعشيرتك فلا تعجل عليهم وهم كفار، فاستبقهم وأمهلهم لعل الله أن يهديهم، وخذ من فدائهم ما يتقوّى به المسلمون على الجهاد في سبيل الله. وقال له عمر: هؤلاء قوم كذبوك وأخرجوك وهم رؤساء الكفر فاقتلهم، فأعط عقيل بن أبي طالب لأخيه علي ــ وعقيل من الأسارى ذلك اليوم ــ يقتله، وادفع العباس لحمزة ليقتله، وأعطني فلاناً ــ رجلٌ كان بينه وبين عمر نسب ــ ليعلم الله أن لا هوادة بيننا وبين الكفار، فإن قتل رؤساء الكفر هو الذي يكسر شوكة الكفر ويذلّه، ويعزّ دين الإسلام ويُعلي كلمة الله. فكأن النبي ﷺ كان أمْيَل إلى ما قاله أبو بكر (رضي الله عنه). وذكروا في هذه الروايات أنه قال لأبي بكر: «**قلت كما قال عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾**» الآية

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

[المائدة: الآية ١١٨]. وفي رواية أنه قال له: «قلت كما قال إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾» [إبراهيم: الآية ٣٦] وفي بعض الروايات قال لعمر: «قلت كما قال موسى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾» [يونس: الآية ٨٨] وفي بعضها أنه قال له: «قلت كما قال نوح: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾» الآيات [نوح: الآية ٢٦]. وفي بعض الروايات أن معهم عبد الله بن رواحة (رضي الله عن الجميع)، وأنه قال له: أنت في وادٍ كثير الحطب فأضرم عليهم النار[1]. وعلى كل حال فلما أَخَذُوا الأُسارى أَخَذَهُم الذين أسروهم أولاً ولم يأمرهم رسول الله ﷺ بأسرهم، وكانوا يرغبون في الفداء ليتقووا بالمال، فلما استقروا تحت أيديهم كان ذلك الرأي ليس مستبعداً عنده ﷺ، ولم ينزل فيه وحي، فبعد أن أخذوا الأسارى جاءهم هذا اللوم من الله، وهذا الأمر العظيم، وقرب العذاب منهم لولا الكتاب السابق. ولما كان من الغد جاء عمر (رضي الله عنه) ووجد رسول الله ﷺ وأبا بكر يبكيان، فقال: ما يبكيكما، أخبراني بما يبكيكما؟ فإن وجدت بكاءً بكيت معكما، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال له رسول الله ﷺ: «عُرض عليّ عذاب أصحابك كهذه الشجرة ـ لشجرة قريبة منه[2] ﷺ ـ لأن الله قال لهم: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٨]». ثم إن الله بعد ذلك أحل لهم ذلك المغنم وطيَّبَه

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١٢) من هذه السورة.

(٢) مسلم في الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، حديث رقم: (١٧٦٣)، (٣/ ١٣٨٣).

لهم في قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: الآية ٦٩] ويدخل فيه فداء الأُسارى.

ومعنى قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ٦٧] أن يأسر الرجال ويستعين بالمال بفدائهم حتى يثخن في الأرض. الإثخان: معناه الإيجاع في الأرض قتلاً، حتى يوجع في الأرض قتلاً، ويقتل الصناديد الكفرة والرؤساء العظام التي تضعف بهم شوكة الكفر وأهله. والإثخان: أصل الإثخان شدة الإيجاع في الأرض بالقتل[1]. وقالوا: أثخنوهم أي: أوجعوا فيهم قتلاً شديداً ذريعاً، وأثخنته الجراحة: اشتدت عليه حتى أثبتته. وهذا الذي لامهم عليه هنا وبيّن لهم أنه ما كان هو الصواب، ولا هو الأولى أوضحه وشرحه في سورة القتال في قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ [محمد: الآية ٤] أي: أوجعتموهم قتلاً، قتلاً يضعف شوكة الكفر ويذلّ أهله، بعد ذلك ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ وهو الأسر ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ ولذا قال هنا: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني ما كان ينبغي لكم ولا يصح منكم أولاً أن تلتزموا أول وقعة نصركم الله فيها بالأسرى تريدون المال، لا ينبغي هذا منكم، وما كان هو الأولى لكم، كان الأولى لكم قتلهم وحصدهم حتى يذل الكفر ويستكين أهله، وتقوى شوكة الإسلام ويعز أهله. وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يوجع فيها قتلاً؛ لأن ذلك القتل الوجيع هو الذي يذل الكفر ويكسر شوكته، ويعز الإسلام ويرفع كلمة الله (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾.

---

(١) انظر: القرطبي (٨/ ٤٨)، الدر المصون (٥/ ٦٣٧).

ثم لامهم لوماً شديداً عظيماً من الله قال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: حطام الدنيا الزائل. فسماه عرضاً لأنه عارض الوجود يعروه الزوال عن قريب، كما قدمنا في قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٩] والله (جل وعلا) لا يريد عرض الدنيا بل يريد الآخرة، يريد لكم الآخرة بأن تقتلوا الكفرة، وتكسروا شوكة الكفر، وتذلوا أهله وأهلها، وتعزوا كلمة الله وتعلوا دين الله في أرضه، وهذه هي الآخرة التي يريدها لكم، وهذه الإرادة إرادة شرعية دينية، ولو كانت إرادة قدرية كونية لنفذت على كل حال؛ لأن الله إذا أراد بإرادته الكونية القدرية شيئاً لا بد أن ينفذ كائناً ما كان ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: الآية ٨٢] فهذه إرادته الشرعية الدينية لكم كان الأولى لكم شرعاً وديناً أن تقتلوهم فتعلوا كلمة الله، وتذلوا كلمة الكفر، وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: حطامها الزائل؛ لأنه عارض ينقضي ويزول ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: الدار الآخرة. ومن أعظم أسباب الخلود في جناتها إعلاء كلمة الله، وإذلال كلمة الكفر، وأكبر أسباب ذلك قتل الرؤساء قادة الكفار وساداتهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ قدمنا الكلام عليه قريباً.

وقوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٨] (لولا) في علم العربية هي حرف امتناع لوجود، والمعنى: امتنع أن يمسكم عذاب الله بسبب [الكتاب السابق في الأزل][1] ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

ولـو أن فـرعـونَ لمـا طغَـى وقـال علـى الله إفْكـاً وزورا
أنـابَ إلـى الله مُسْتَغْفِـراً لمـا وَجَـد الله إلا غفـورا(١)(٢)

[٩/أ] / قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥﴾ [الأنفال: الآيات ٧٠ ـ ٧٥].

يقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ [الأنفال: الآية ٧٠].

جرى على ألسنة العلماء من المفسرين والأصوليين أن هذه الآية الكريمة من أخريات سورة الأنفال نزلت في العباس بن

(١) لم أقف على البيتين.

(٢) هذا هو الدرس الأخير من دروس الشيخ رحمه الله في شهر رمضان عام (١٣٩١هـ)، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين منه.

عبد المطلب (رضي الله عنه)[١]. والتحقيق أنها نزلت في جميع أسارى بدر، ولو فرضنا أنها نزلت في العباس فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، وإنما قالوا: إنها نزلت في خصوص العباس مع أنها نازلة في جميع أسارى بدر؛ لأن العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) هو أكثرهم نصيباً وأوفرهم حظاً فيها؛ لأنه أُخذ منه في الفداء ما لم يؤخذ من غيره، فصار كأنه أخص منهم بهذه الآية؛ ذلك لأن العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) كان من أشراف قريش الذين ضمنوا لهم الإطعام في غزوة بدر، وكان يوم بدر هو اليوم الذي عليه هو أن يطعم ــ كما قاله أصحاب المغَازي والسير ــ فاشتغل الناس بالقتال عن الإطعام، وكان جعل معه عشرين أوقية من ذهب ليطعم بها الناس، فلما أسره المسلمون أخذوا العشرين معه. وذكر بعض أصحاب المغَازي أنه كان رجلاً موسراً فأمرهم النبي أن يُضعفوا الفداء عليه[٢]، فأخذوا منه ثمانين أوقية، وضاعت له عشرون أوقية، فكان المجموع: مائة أوقية. وأمره النبي ﷺ أن يفدي ابني أخويه وهما عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب كانا أسيرين معه، أُسرا يوم بدر. وذكر بعضهم أنه ﷺ أمر العباس أيضاً أن يفدي حليفه وهو عتبة بن عمرو (رضي الله عنه)، أخو بني الحارث بن فهر، كان حليفاً للعبّاس بن عبد المطلب[٣]، وكان النبي ﷺ في يوم بدر كما ذكره أصحاب المغازي قال: «إن

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

(٢) انظر: دلائل النبوة (٣/ ١٤١)، الدر المنثور (٣/ ٢٠٤)، سُبُل الهدى والرشاد (٤/ ٧١)، وأورده القرطبي (٨/ ٥٢)، وعزاه للنقَّاش.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

بعض من يلقونكم في هذا الجيش خرجوا مستكرهين فمن لقي منكم العباس فلا يقتله؛ لأنه أكرهه قومه على الخروج، ومن لقي أبا البختري فلا يقتله». وكان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة (رضي الله عنه) وقعت منه زلّة يوم بدر، وكان يقول: منذ سقطت مني تلك الكلمة وأنا أخافها لا آمن منها أبداً حتى يكفّرها الله عنّي بالشهادة. فقُتل شهيداً أيام اليمامة (رضي الله عنه). وذلك أن النبي ﷺ لما قال: «**من لقي منكم العباس فلا يقتله فإنه خرج مُستكرهاً**». قال أبو حذيفة بن عتبة (رضي الله عنه): أنقتل آباءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس! والله إن لقيته لألجمنّه السيف. فسمع بها رسول الله ﷺ، فذكروا أنه قال لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «**يا أبا حفص**» ــ قال عمر: ما كنّاني أبا حفص قبل ذلك اليوم ــ «**أيُضرب وجه عمّ رسول الله ﷺ**»؟ فقال: إنه نافق دعني أقتله[١].

وكان أبو حذيفة (رضي الله عنه) يتخوّف من كلمته هذه حتى رزقه الله الموت شهيداً أيام اليمامة. وكذلك نهى عن أبي البختري؛ لأنه كان يُحسن إلى بني هاشم أيام كونهم في الشِّعب لما قاطعهم قريش، وكان يعاملهم معاملة حسنة ولم يؤذهم، فجاءه المُجَذَّر بن زياد البلوي (رضي الله عنه) فقال: أما أنت فقد نهانا عنك رسول الله ﷺ. وكان له زميل، فقال له: وزميلي؟ فقال: أما زميلك فلم ينهنا عنه رسول الله ﷺ. وأراد المجذّر أن يقتل زميله، فتعرّض دونه وقال[٢]:

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

لا يُسْلِمُ ابنُ حُرَّةٍ زَميلَهُ حتَّى يموتَ أو يَرَى سبيله
ولا يفارقْ جَزَعاً أكيله

وتراجز هو والمجذّر (رضي الله عنه) وكان ذلك يقول[1]:

أنا الذي أزعمُ أصلي من بِلِي أَضرِبُ بالحربة حتى تَنْثَني

فقتله المجذر لما جاء دون زميله. وكان العباس (رضي الله عنه) أسره رجل قصير ليس بالقوي من الأنصار هو كعب بن عمرو (رضي الله عنه) وهو المشهور بكنيته أبي اليسر، وهو أخو بني سلمة. ذكر بعض أصحاب المغازي[2] أن العباس كان يئنّ أنيناً في الأسر، فسمع رسول الله ﷺ أنينه فلم يستطع أن ينام حتى خففوا عليه الوثاق فسكت، فلما سكت نام ﷺ. وعلى كل حال فالعباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) لما أرسل قريشٌ في فداء أسراهم كان الأسير يُفدى بأربعين أوقية، قال أصحاب المغازي: أمرهم النبي ﷺ أن يُضعفوا الفداء على العبّاس فأخذوا منه ثمانين أوقيّة، وضاعت له عشرون أوقيّة أخذوها منه لما أسروه، وفدى ابني أخويه عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وفدى حليفه عتبة بن عمرو أخا بني الحارث بن فهر، فصار دفع مالاً كثيراً لم يدفعه غيره، فمن هنا قالوا: نزلت فيه هذه الآية الكريمة مع أنها نازلةٌ في جميع أسرى بدر، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فلفظ الآية عام. وهذه القاعدة قاعدة معروفة قويّة يستدل بها علماء الأصول على أن الآيات النازلة في أسباب خاصة أحكامها

(١) السابق.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ١٤١) من طريق ابن إسحاق، وعنهما أورده ابن كثير في تاريخه (٣/ ٢٩٩).

عامة، ولا تخصّص بأسبابها[١]، ومن المشهور في أمثلتها: المثال لها بهذه الآية من أخريات سورة الأنفال، أنها نزلت في العباس بن عبد المطلب وحكمها عام. ومن الأدلّة الدالة علىٰ هذه القاعدة الأصولية المهمة المعينة في التفسير ــ وهي أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب ــ دلّ عليها الحديث الصحيح واللغة، أما ما دلَّ على ذلك من الأحاديث فهو ما سيأتي في سورة هود ــ إن شاء الله ــ من أن سورة هود نزلت فيها آيات مدنية وهي سورة مكيّة كما قال غير واحد من العلماء أن قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: الآية ١١٤] نزلت في الأنصاري الذي جاءته المرأة تبتاع تمراً فأعجب بجمالها، وكان زوجها غائباً في الجهاد، فقال لها: إن في البيت تمراً أحسن من هذا. فلما دخلت البيت كان بينه وبينها بعض ما لا يليق من صغائر الذنوب، ثم إنّه ندم وأخبر النبي ﷺ بذلك فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ تعني: فصلواتك الخمس تذهب عنك هذه السيئة التي اقترفت من هذه المرأة. فقال الرجل ــ كما في صحيح البخاري وغيره ــ ألي هذا وحدي يا رسول الله؟ وسؤال هذا الأنصاري هو سؤال عن هذه النازلة، كأنه يقول: آلعبرة بي لأنني سبب النزول، أو العبرة بعموم لفظ: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ فأجابه ﷺ: «بل لأمتي كلهم»[٢]. فدلّ على أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، ومن النصوص الدالة على هذه القاعدة: هو ما ثبت عن النبي ﷺ في

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣١) من سورة الأعراف.

الصحيح أنه أيقظ فاطمة وعليّاً (رضي الله عنهما) ليصليا بالليل، فقال له علي (رضي الله عنه): إن أرواحنا بيد الله إن شاء بعثنا. فولّى ﷺ يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: الآية ٥٤][1]. مع أن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ نزلت في الكفار الذين يجادلون في كتاب الله، فاعتبر النبي عمومها حتى جعله شاملاً لخصام علي له ومجادلته له؛ بأن أرواحهم بيد الله؛ لأن الله قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الكهف: الآية ٥٤] الكافر مع وضوح القرآن وأدلته وتصريف أساليبه ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ وخصاماً بالباطل.

ومما يدل على هذا من اللغة: إجماع أهل اللسان العربي أن الرجل لو كان له أربع زوجات فقامت إحداهن وسبّت هذا الرجل وأغضبته فقال: أنتن كلكن طوالق. فإنهن كلهنّ يطلقن بحسب المدلول العربي ولا يختص بالمرأة التي أغضبته فاستوجبت الطلاق كما لا يخفى. وهذه الآية الكريمة نزلت في العباس بن عبد المطلب، وحكمها عام لمن معه، وظاهرها يشمل جميع الأسرى؛ لأنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ [الأنفال: الآية ٧٠] قرأ هذا الحرف عامّة القراء غير نافع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم﴾ بالإدغام.

وقرأه نافع وحده من السبعة: ﴿يا أيها النبيء﴾ بالهمزة من غير إدغام، ونافع قرأ لفظ النبيء والأنبئاء في جميع القرآن بالهمزة

(١) السابق.

المحققة في رواية ورش في جميع القرآن، وفي رواية قالون عنه في جميع القرآن إلا في حرفين من سورة الأحزاب فقط، وهما قوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٠] وقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣] فهذين الحرفين قرأهما عنه قالون كقراءة الجمهور، وقرأهما عنه ورش بالهمزة المحققة كغيرهما في سائر القرآن(١).

وقوله ﴿قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ﴾ قرأه عامّة السبعة غير أبي عمرو: ﴿قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ﴾ وقرأه أبو عمرو وحده من السبعة: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِمَن في أَيْدِيكمُ مِنَ الأسارى إِن يَعْلَم الله في قُلُوبِكُمْ خَيْراً يؤتكم خيرا﴾(٢) ومعنى الآية الكريمة: أن الله (جل وعلا) أمر نبيّه أن يقول لمن في أيدي المسلمين من أسارى بدر يقول لهم هذا الكلام.

(الأسارى) جمع أسير، و (الأسرى) جمع أسير، إلّا أنّ (الأسير) يُجمع على (أسرى) قياساً مطّرداً، وقاعدة معروفة؛ لأن (الفَعِيْل) المتّصف بما يُرثى له به يطرد جمعه تكسيراً على (فَعْلَى)(٣) كمريض ومرضى، وقتيل وقتلى، وجريح وجرحى، وصريع وصرعى، وأسير وأسرى(٤).

أما على قراءة ﴿أُسَرَىٰ﴾ فهو جمعٌ مسموع، وإتيان الجموع على (فُعالى) أو (فَعَالى) مسموع ولا يطرد منه شيء قياساً، ككسالى،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٣.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

(٤) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

وأُسارى، ويتامى، وحيارى، وما جرى مجرى ذلك[١].

وقوله: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم﴾ المراد بـ ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم﴾ من كانوا تحت أيديكم من الأسارى، وكل شيء كان في قبضة الإنسان وتحت قدرته وتصرّفه تقول العرب: هو في يده؛ لأن اليد هي التي تزاول بها الأعمال وتُؤخذ بها الأشياء عادة[٢].

والأيدي جمع (يد)، واليد من الألفاظ التي حذفت العرب لامها ولم تعوِّض منها شيئاً، وأعربتها على العين، فدال اليد في محل العين، وهي مُعربةٌ على عينها وهو الدال، نُزِّل منْزلة لامها، وحذفت لامها، وتنوسيت، وهي إحدى ألفاظ معروفة كذلك، كيدٍ، ودَمٍ، وغدٍ، وددٍ، وهنٍ، وما جرى مجرى ذلك[٣]. وأصل لامها المحذوفة ياء، أصلها (يدي) فاؤها ياء، وعينها دال، ولامها ياء. ولامها المحذوفة إنما تُرَدّ عند التصغير وجمع التكسير، ففي تصغيرها تقول: (يُدَيَّه) وفي جمعها تقول: فاقطعوا أيديهما. وأصله: (أيْدُيهما) على وزن (أفعُل) لأن الأيدي أصل وزنه (أفعُل) (فَعَل) محذوف اللام مجموعٌ على (أفعُل) إلاّ أن ضمّة العين تُجعل كسرة لمجانسة الياء، وربما نطقت العرب باليد مثبتة لامها إثبات المقصور على الألف كالفتى. سُمع هذا عنهم قليلاً، ومنه قول الراجز[٤]:

يـا رُبَّ سَـارٍ بـاتَ مـا تَـوَسَّـداً إلا ذِرَاعَ العِيْـس أو كـفَّ اليـدا

فردّ اللام كما هي في (الفتى) وهذا نادر.

---

(١) انظر: حجة القراءات ص ٣١٤، الدر المصون (٥/ ٦٣٧).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنفال.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٩٥) من سورة الأعراف.

(٤) السابق.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ الأسرى جمع أسير، والأسير (فَعِيْل) بمعنى (مَفْعُول) وهو اسم المفعول من (أَسَره) العرب تقول: أسره يأسره أسراً. فالفاعل (آسر) والمفعول (مأسور) إذا شدّه بالوثاق. وأصل هذه المادة مأخوذة من الإيسار، والإيسار: القِدّ. والقِدّ: هو جلد البعير غير المدبوغ؛ لأن جلد البعير إذا لم يُدْبَغ تسمّيه العرب قِدّاً. وكانوا يشدّون الأسير بالجلد عند سلخه طريّاً، فإذا يَبس اشتدّت قوّته ولا يقدر أحدٌ على حلّه ولا قطعه ولا نزعه، ومن هنا قيل لكل مشدود شدّاً محكماً: إنه مأسور. وأصله من (الإيسار) وهو الشدّ بالإسار، أعني القِدّ وهو جلد البعير إذا كان غير مدبوغ. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: الآية ٢٨] المراد بقوله ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أحكمنا شدّ العظام بعضها إلى بعض بإحكام وإتقان شديد كما يُشدّ الشيء شدّاً قوياً بالقِدّ فييبس عليه فيمسكه إمساكاً قوياً[(١)]. وهذا صار معنىً معروفاً في كلام العرب، مشهور في كلامهم، فكل شيء شددته شدّاً محكماً تقول العرب: أسرته. ومنه سُمّي الأسير، أي: لأنه يُشد بالإسار، وهو جلد البعير غير المدبوغ. وهذا معروف في كلامهم، ومنه: أسر مراكب النساء؛ لأن أعواده تُشدّ بالقدّ حتى يتحكّم بعضه مع بعض، ومنه قول حميد بن ثور الهلامي[(٢)]:

وما دخَلَتْ في الخَدْب حتى تَنَقَّضَتْ تآسير أعلى قِدّه وتحطّما

وهذا معنى معروف في كلام العرب. يعني: قل يا نبيّ الله لهؤلاء الذين أخذتموهم وكانوا في قبضتكم وتحت تصرّفكم:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١) من سورة الأعراف.

(٢) البيت في ديوانه ص ١٩.

﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ العبّاس بن عبد المطّلب قال للنبي ﷺ: يا نبيّ الله: احسب لي العشرين أوقية التي أخذوها منّي، كانت من مالٍ معي. قال: «**لا، ذلك مالٌ أعطاناه الله منك فلا نحسبه لك أبداً**». وضاعف عليه الفداء، وأمره بمفاداة ابني أخويه. فقال للنبي ﷺ: يا نبي الله لقد تركتني أتكفّف قريشاً إلى يوم القيامة فقيراً. فقال له النبي ﷺ: «**أين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل لما أردت الخروج**»؟ فقال له: وما ذلك المال؟ قال له: «**الذهب الذي دفنته أنت وأم الفضل، وقلت لها: ما أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث في سفري هذا فهذا المال لك وَلِبَنِي: الفضل، وعبد الله، وعبيد الله، وقثم. ودفنتم المال**». فقال: أشهد أنك رسول الله، والله ما علم بهذا أحدٌ غيري وغير أم الفضل[1]. وهي لبابة الصغرى بنت الحارث، أم أولاد العبّاس بن عبد المطلب، وهي هلالية مشهورة. لما أخذوا منهم هذا المال وكان الأسارى يأتون النبي ﷺ ويقولون: نحن مسلمون آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أنك رسول الله، ووالله لننصحنّ لك على قومنا، ولا تأخذ منّا شيئاً. فأنزل الله فيهم: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ (خيراً) هنا جاء مرتين ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ الأولى منهما ليست صيغة تفضيل، والثانية منهما صيغة تفضيل، والدليل على أنها صيغة تفضيل اقترانها بـ (من) لأن صيغة التفضيل المجردة تُقترن بـ (من) دائماً لفظاً أو تقديراً. معناه: إن يعلم الله في قلوبكم إسلاماً وإيماناً صحيحاً وتصديقاً كما تزعمون يؤتكم خيراً، أي: شيئاً أخير وأفضل مما أخذ منكم من الفداء.

---

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١٢) من هذه السورة.

يعني من حطام الدنيا وعرضها، ومن نعيم الجنة، ويغفر الله لكم أيضاً.

وقوله ﴿يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ يدل على أن محل نظر الله من عبده إنما هو القلوب كما جاء بذلك الحديث؛ لأن القلب هو الذي ينظر الله إليه فيعلم فيه الخير والشر؛ ولذا قال: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ والله (جل وعلا) عالمٌ بما في الضمائر وما يخطر في القلوب ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية ١٦] وقد بيّن القرآن العظيم في مواضع منه أنّ علم الله الإيمان والإخلاص في قلب الإنسان تكون له فوائد عظيمة، من تلك الفوائد: ما ذكره هنا في أُخريات الأنفال في قوله: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ ومنها قوله في سورة الفتح: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١٨] فكنّى عما في قلوبهم بالاسم المبهم الذي هو الاسم الموصول. يعني أنه إيمان كما ينبغي وإخلاص كما ينبغى، ترتّب على ذلك نتائج عظيمة كثيرة كقوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ﴾ [الفتح: الآية ٢٠] وكقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ﴾ [الفتح: الآية ٢١] أي: فأقدركم عليها، وكقوله جل وعلا: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٢٢] هذا الإيمان والتسليم الذي علمه الله في قلوبهم رتّب عليه نتائج عظيمة مفيدة منها قوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٥] إلى آخر الآيات.

وهذه الآيات ينبغي لنا أن نعتبر بها فنطهّر قلوبنا، ويكون ربنا يعلم منها الخير، ولا يعلم منها الشر؛ لأن ذلك يسبب لنا نتائج

عظيمة كصلاح الدنيا والآخرة؛ لأن هؤلاء الأسارى قال لهم: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ من المال ﴿مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ ويزيدكم على ذلك المغفرة. قال العباس بن عبد المطلب: كان يقرأ: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ قال: إن العشرين أوقية الذي ضاعت لي يوم بدر أبدلني الله خيراً منها، أعطاني عشرين عبداً كلهم يتاجر بمالٍ كثير، وهم لي، وأموالهم لي[1]. ولما جاء مال البحرين ــ أرسله ابن الحضرمي من البحرين ــ ذلك المال الكثير الذي ما دخل المدينة مالٌ أكثر منه في زمن النبي ﷺ، ونثره في المسجد ووزّعه، جاء العبّاس وقال: يا نبيّ الله أعطني! فاديت نفسي وعقيلاً. فقال له: «**احثُ من هذا المال**». فحثا العباس في خميصة كانت عليه، ولم يزل يحثو فيها من المال حتى أراد أن يقوم فما قدر على أن يقوم، فقال للنبي ﷺ: مُر أحداً منهم يرفع معي المال!! فتبسّم ﷺ حتى بدى ضاحكه أو نابه وقال: «**لا يعينك عليه أحد**». فقال له: ارفعه أنت عليّ. فقال: «**لا، اردد طائفة من المال حتى تستطيع حمله**». فحثا عنه حتى استطاع أن يحمله، وحمله على كاهله. قال بعضهم: لم يزل ﷺ ينظر إليه حتى اختفى، لشدّة حرصه على أخذ هذا المال. وقال العباس حينئذٍ: أما الأولى منهما فقد رأيناها: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ والله لقد أعطانا خيراً مما أخذ منا، وإنا لنرجوا الثانية التي هي: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[2]. وهذا معنى قوله: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ بعلمه المحيط بكل شيء ﴿فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ أي إيماناً صحيحاً وتصديقاً وإخلاصاً لله ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ أي:

---

(١) تقدم تخريجه في الموضع السابق.

(٢) تقدم تخريجه في الموضع السابق.

يعطكم خيراً، أي: مالاً في الدنيا، وثواباً في الآخرة خيراً ﴿خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أي: أفضل وأعظم مما أُخذ منكم. والعرب استغنت بـ (خير) و (شر) عن (أخير وأشر)، فهما صيغتا تفضيل، والأخيرة منهما صيغة تفضيل، وقد قال ابن مالك في كافيته[1]:

وغالباً أغْنَاهُم خيرٌ وشر عن قولهم أَخْيَرُ منه وأَشَرّ

فالأخيرة هنا تفضيل أي: يؤتكم أخير وأفضل، أي: أكثر خيراً وأعظم منه، وذلك كما وقع في مال البحرين أعطى العباس أكثر بأضعاف مما أُخذ منه يوم بدر من الفداء، وأعطاه عشرين عبداً. وقال العباس: وأعطاني الله زمزم أيضاً ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة. فعوضه الله مئات الأضعاف على ما أُخذ منه يوم بدر. وهذا معنى قوله: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أي: مما أخذه المسلمون منكم كالعشرين أوقية التي أُخذت من العباس، وما أُخذ في فدائهم من المال. وحذف الفاعل هنا للعلم به ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: يغفر لكم ذنوبكم. حذف فاعل (أُخذ) ومفعول (يغفر) والمعنى: يعطيكم خيراً مما أخذه منكم المسلمون يوم بدر، ويغفر لكم ذنوبكم كلها، وشرككم المتقدم وكفركم بالله. وهذا معنى قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين، ولا سيما إذا علم في قلوبهم الإيمان والإخلاص له (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

﴿حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧١] ضمير واو الفاعل في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾ راجع على الأسارى الذين في أيدي النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنهم كانوا يقولون: آمنا بك وشهدنا أنك رسول الله، ووالله لننصحن لك على قومك، ولنكونن معك. ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ بهذا الكلام، إن كان هذا الكلام أرادوا به الخيانة والمكر والخديعة فلا تهتم بشأنهم ﴿فَقَدْ خَانُوا ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ ظرف مقطوع من الإضافة مبني على الضم. أي: قد خانوا الله من قبل يوم بدر بالكفر، وعبادة الأصنام، وتكذيب رسوله ﷺ فأمكن الله منهم. هذا الفعل الذي هو (أمكن) يتعدى إلى مفعول، ومفعوله محذوف، والمعنى: فأمكنكم الله منهم. وَحَذْفُ الفضْلة إذا دل المقام عليه شائع مطرد في القرآن وفي كلام العرب، والعرب تقول: «أمكنني من كذا». إذا هيأه لي وجعله في قبضتي، وهو معنى معروف في كلامها، وهو متعد إلى المفعول كما هو معروف، فالمفعول هنا محذوف، وليس الفعل لازماً كما لا شك فيه، ومما يدل على ذلك من كلام العرب قول كُثَيِّر عزَّة وهو عربي قح، ذكروا أنه ناداه عبد العزيز بن مروان، وأحضر عزَّة وجعل دونها سجفاً؛ أعني: ستراً. وقال لكُثَيِّر: تمنَّ، فما تتمن فهو حاضر. فتمنى إبلاً سوداً برعائها، أو غير ذلك من الأموال. فقال للغلام: ارفع السجف يا غلام. فرفعه عن عزة فإذا هي، فقال: لو تمنيت هذه لأعطيتكها وزوجتك إياها. فندم كُثَيِّر وقال ــ وهو محل الشاهد[1] ــ:

حلفتُ برب الرَّاقصَاتِ إلى مِنَى ... يجوب الفيافي نصها وزميلها

(١) البيتان في ديوانه ص ٢٦٧، مغني اللبيب (١/ ١٩) (بشرح الأمير)، والثاني في رصف المباني ص ٦٦.

لإن عَادَ لي عبد العزيز بمثلها وأمكنني منها إذا لا أُقيلها

ومحل الشاهد منه قوله: «وأمكنني منها» أي: جعلها في قبضتي وتحت تصرفي. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: أمكنك الله أنت وأصحابك منهم يا نبي الله، فلا تهتم بخيانتهم.

وقوله: ﴿خِيَانَتَكَ﴾ الياء فيه منقلبة عن الواو؛ لأن مادة (الخيانة) أصلها من أجوف واوي العين، أصلها من (خَوَن) ولذا يقال في المبالغة منها: (خوَّان). ولو كانت يائية لقيل: (خيان) ويقال في ماضيها: خان يخون. ولو كانت يائية لقيل: يخين. إلا أن القاعدة المقررة في التصريف أن الواو إذا تقدمتها كسرة وجاء بعدها ألف وجب إبدالها ياءً، كالخيانة من الخون، والحيازة من الحوز، والصيانة من الصون، والقيامة من قام يقوم[1]. قال بعض علماء العربية: على القول بجمع المصادر تُجمع الخيانة على (خيائن) اعتداداً بالياء المبدلة من الواو، والقياس أن تُجمع على (خوائن) إلا أنهم فرقوا بين جمع (خيانة) وبين جمع (خائنة) فجعلوا هذه بالياء وإن كان أصلها الواو.

﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ خيانتهم لله هي كفرهم بالله، وعبادتهم للأصنام، وتكذيبهم لنبيه ﷺ ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَلِيمٌ﴾ (الفَعِيْل) من صيغ المبالغة، وعلمه (جل وعلا) يستحق أن يُبالَغ فيه؛ لأن علمه محيط بكل شيء، وهو (جل وعلا) يعلم الموجودات والمعدومات والواجبات والجائزات والمستحيلات، حتى إنه من إحاطة علمه لَيَعْلَم المعدوم الذي سبق

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.

في علمه أنه لا يُوجد، فهو يعلم أَنْ لو وُجد كيف يكون، وإن سبق في علمه أنه لا يكون؛ لإحاطة علمه بكل شيء، فهو يعلم أن أبا لهب لم يؤمن، ويعلم لو آمن أيكون إيمانه تامّاً أو ناقصاً مثلاً، والآيات القرآنية الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً، من ذلك: أن الكفار إذا عاينوا القيامة ورُفع عنهم الغطاء، وشاهدوا الحقائق تمنوا الرد إلى الدنيا مرة أخرى ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: الآية ٢٧] وفي القراءة الأخرى[1]: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ وهذا الرد إلى الدنيا الذي تمنوه الله عالم بعلمه الأزلي أنه لا يكون، ومع علمه بأنه لا يكون فهو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: الآية ٢٨].

والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً؛ لأن الله خَلَّفهم عنها لحكمة وإرادة إلهية كما قال: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: الآية ٤٦] ومع كون خروجهم لا يكون هو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ الآية [التوبة: الآية ٤٧]. ونظائر هذا كثيرة في القرآن، فعلم الله محيط بكل شيء. و(الفعيل) صيغة مبالغة.

وقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ فالعليم والحكيم من أسمائه (جل وعلا) وكلاهما تتضمن صفة من صفاته (جل وعلا)؛ لأنه حكيم عليم. قال بعض العلماء: الحكيم لأنه حكيم في أقواله وأفعاله

(١) مضى عند تفسير الآية (٢٨) من سورة الأنعام.

وتشريعاته، فلا يقول إلا ما هو في غاية الإحكام، ولا يفعل إلا ما هو في غاية الإحكام ولا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا يجازي بالشر إلا الشر، ولا بالخير إلا الخير. وكان بعض العلماء يقول: الحكمة هي العلم النافذ الذي يعصم الأقوال والأفعال أن يعتريها الخلل.

وهي في الاصطلاح: إيقاع الأمور في مواقعها ووضعها في مواضعها[١]، ولا تتم الحكمة إلا بالعلم، فلا تتم الحكمة إلا بتمام العلم، وفي قدر ما يكون في العلم من النقص يكون في الحكمة؛ لأنك ترى الحاذق القُلَّب البصير يعمل الأمر يظن أنه في غاية الإحكام، وغاية الإتقان، وأنه وضعه في موضعه، وأوقعه في موقعه، ثم ينكشف الغيب بعد ذلك أن فيه هلاكه أو ضرراً عظيماً عليه فيندم ويقول: ليتني لم أفعل، ولو فعلت لكان كذا، كما قال[٢]:

ليتَ شِعْرِي وأيْنَ منِّي ليتُ ... إنَّ (لواً) وإنَّ (ليتاً) عناءُ

وفي الحديث: **إن (لو) تفتح الباب للشيطان**[٣]. قال الشاعر[٤]:

أُلامُ على (لوٍ) ولو كنتُ عالماً ... بأذنابِ (لوٍ) لم تَفُتْني أوائلُه

والله وحده (جل وعلا) لا يجري عليه لو فعلت كذا لكان أصوب؛ لأنه عالم بخفايا الأمور، وما تنكشف عنه الغيوب،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من هذه السورة.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

وما تجري به الأقدار، فلا يجري عليه شيء من ذلك، فلا يفعل فعلاً إلا وهو في غاية الإحكام، ولا عملاً ولا تكليفاً ولا جزاءً إلا هو في غاية الحكمة، والوضع في الموضع، والإيقاع في الموقع؛ ولذا قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وهذان الوصفان من أسمائه (جل وعلا) من أعظم ما يستدعي الإنسان إلى أن يطيع ربه ولا يعصيه، وأن يذكره ولا ينساه، فلأن كونه عليماً تعرف به أن علمه المحيط بكل شيء يقتضي أنه لا يدعوك إلا لما لك فيه الخير والعواقب الحسنة الجميلة؛ لأنه يعلم عواقب الأمور، وما تؤول إليه، وما تنكشف عنه الغيوب، وما تجري به الأقدار، فلا يأمرك إلا بما هو خير مؤكد بلا شك وبكل يقين، وكونه حكيماً يدل على أنه لا ينهاك إلا عن شر، ولا يأمرك إلا بخير، فإن كان مبالغاً في الحكمة والعلم كان ذلك مدعاة لأن يتبع في كل ما يأمر به وكل ما ينهى عنه؛ لأن علمه يعلم به أنه ما يدعو إليه خير، وما ينهى عنه شر، وحكمته يفهم منها أنه لا يضع الأمر إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[١] أنك لا تكاد تنظر ورقة واحدة [من المصحف الكريم إلا وجدت فيها إشارة إلى هذا الواعظ الأعظم، والزاجر الأكبر مما يبعث العبد على الإحسان والمراقبة في جميع أحواله وأعماله، وقد بين الله (جل وعلا) أن الغاية والحكمة التي][٢] / خلق الله من أجلها الخلق هي أن يبتليهم، أي: يختبرهم [٩/ب]

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

أيهم أحسن عملاً، كما قال في أول سورة هود: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧] وقال تعالى في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: الآية ٧] وقال في أول سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية ٢] ولم يقل: أكثر عملاً، فإذا عرف العبد أنه خُلق لأجل أن يُختبر في إحسان العمل كان حريصاً على الحالة التي ينجح بها في هذا الاختبار؛ لأن اختبار رب العالمين يوم القيامة من لم ينجح فيه جُرَّ إلى النار، فعدم النجاح فيه مهلكة، وقد أراد جبريل (عليه السلام) أن ينبه أصحاب رسول الله ﷺ على عظم هذه المسألة وشدة تأكدها[١] فقال للنبي ﷺ في حديثه المشهور: يا محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ أخبرني عن الإحسان؟ أي: وهو الذي خلق الخلق من أجل الاختبار فيه، فبين له النبي ﷺ أن طريقه الوحيدة هي هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم، الذي هو طريق المراقبة والعلم فقال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢].

وقد قدمنا ضرب العلماء مراراً[٣] مثلاً لهذا بأن الحاضرين أمام ملك لا يُنتهك حماه، شديد العقاب لمن انتهك حرماته، لا يقدر أحد منهم أن يفعل شيئا يكرهه وهو ناظر إليه!! ورب السموات والأرض

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

مطلع على ما يسره خلقه، ومع هذا فإنهم لا حياء عندهم ولا ماء في وجوههم، لا يستحون ممن خلقهم (جل وعلا) وهو معهم أين ما كانوا، مراقب على خطرات قلوبهم وجميع أعمالهم. فعلى العاقل أن ينتبه لهذه الآيات، ويعلم أن ربه حكيم عليم، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية ١٦] فيعلم أن ربه ناظر إليه مطلع عليه، فلا يفعل أمام ربه إلا ما يرضي ربه (جل وعلا)، أما أن يبارز ربه بالمعاصي بوجه لا حياء فيه ولا ماء فهذا مما لا ينبغي؛ ولذا يقول (جل وعلا) بعد كل أمر ونهي: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي بمعناها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧٢].

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير حمزة وحده: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾ بفتح الواو، وقرأه من السبعة حمزة وحده: ﴿ما لكم من وِلايتِهِم من شيء﴾ بكسر الواو[1]. والتحقيق أن الوَلاية والوِلاية معنيان صحيحان، ولغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان، فما يذكر عن الأصمعي من أنه يقول: «إن قراءة حمزة خطأ». هو الذي أخطأ فيه[2]، أما قراءة حمزة فهي قراءة صحيحة، ولغة معروفة فصيحة،

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٤.

(٢) انظر: الدر المصون (٥/ ٦٤٠).

فالوَلاية والوِلاية كالدَلالة والدِلالة، فهما لغتان عربيتان وقراءتان سبعيتان فصيحتان.

وكان المسلمون في أول الإسلام يتوارثون بالهجرة والمؤاخاة دون القرابات؛ لأن النبي ﷺ لما نزل المهاجرون بالأنصار والمهاجرون فقراء آخى بين المهاجرين والأنصار، فصاروا يتوارثون بتلك الأخوة دون القرابات، فإذا مات واحد منهم ورثه أخوه الذي آخى النبي ﷺ بينه وبينه دون قرابته، وكان الذين لم يهاجروا لا إرث لهم في إخوانهم الذين هاجروا؛ لأنها كانت بالهجرة والمؤاخاة، ونسخ الله ــ تعالى ــ ذلك بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥] كما سيأتي إيضاحه.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذه أولاً في المهاجرين، الله (جل وعلا) كأنه قسم المؤمنين طوائف، طائفة هم المهاجرون ذكرهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ آمنوا بالله ورسوله وهاجروا أوطانهم وديارهم وأموالهم في سبيل الله (جل وعلا) وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم؛ لأنهم جعلوا أموالهم في مؤن الجهاد من شراء السلاح، والمراكب للقتال، ومؤن القتال، وجاهدوا بأنفسهم حيث عرَّضوها للموت وللخطر في الجهاد، كل هذا في سبيل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ الهجرة كانت هجرة متعددة متنوعة أولها الهجرة إلى الحبشة ــ وقد هاجروا إلى الحبشة مرتين ــ ثم الهجرة إلى المدينة، وكانت الهجرة إلى المدينة واجبة، وكان الذي أسلم ولم يهاجر كالذي يسلم ويبقى في البوادي من الأعراب لا يرث من أخيه المسلم المهاجر شيئاً، وكان الذين أسلموا ولم يهاجروا لا نصيب لهم في الغنائم، ولا في الخُمُس، ولا في

شيء مما عند المسلمين، وليس لهم على المسلمين من النصر إلا إن استنصروهم على عدو في الدين خاصة كما سيأتي إيضاحه.

الطائفة الثانية: هم الأنصار، أهل المدينة، الذين كانوا قبلهم.

الطائفة الثالثة: هم الذين هاجروا بعد ذلك، فهم مهاجرون وأنصار وطائفة جاؤوا بعد ذلك كما سيأتي تفاصيله وإيضاحه؛ ولذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بالله ورسوله وبكل ما يجب به الإيمان ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ هاجروا أوطانهم وأموالهم وديارهم. والمهاجرة: هجر الشيء أصله المباعدة منه. وقد هاجروا أولاً إلى الحبشة، وثانياً إلى المدينة. ثم إن هذه الهجرة التي كان بها التوارث ولا يقبل من أحد إلا أن يفعلها نُسخت بفتح مكة، وقال فيه النبي ﷺ: **«لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة»**[1].

والتحقيق أن الهجرة لا تنقطع أبداً، إلا أن الهجرة المخصوصة التي كانت إلى النبي ﷺ وأصحابه بالمدينة هي التي انقطعت بفتح مكة لانتشار الإسلام في جزيرة العرب، أما الهجرة التي لا تنقطع فهي أن كل إنسان تُعُرِّض له في دينه، وصار لا يقدر على إقامة شعائر دينه في محل فواجب عليه بإجماع العلماء أن ينتقل من هذا المحل، ويبذل في ذلك كل مجهود حتى يصل إلى محل يتمكن فيه من إقامة شعائر دينه، وهذه الهجرة التي لا تنقطع. والمهاجر الحقيقي هو من

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام، حديث رقم: (١٨٦٤)، (٣/١٤٨٨)، من حديث عائشة (رضي الله عنها) مرفوعاً، وقد أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ، حديث رقم: (٣٨٩٩)، (٧/٢٢٦) موقوفاً على ابن عمر، وأطرافه: (٤٣٠٩، ٤٣١٠، ٤٣١١).

هجر ما نهى الله عنه ورسوله كما هو معلوم. وهذا معنى قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] مفعول (آووا) ومفعول (نصروا) كلاهما محذوف لدلالة المقام عليه. والمعنى: آووا الذين هاجروا إليهم وهم النبي ﷺ وأصحابه ونصروهم. وهؤلاء الذين آووا ونصروا هم الأنصار أبناء قَيْلَة، الذين كانوا من سكان المدينة، الذين هاجر إليهم النبي ﷺ وأصحابه.

وقوله: ﴿ ءَاوَواْ ﴾ العرب تقول: آواه يؤويه إيواءً إذا جعل له مأوى ينضم إليه. أي: جعل له مسكناً ومنزلاً يسكن إليه؛ لأنهم أسكنوهم في ديارهم، وشاطروهم أموالهم، وهيؤوا لهم كل أسباب الراحة، وذلك معنى إيوائهم لهم. ونصروهم، النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم. أي: أعانوهم على أعدائهم حتى تمكن الإسلام وانتشر وفُتحت مكة، وفُتحت جميع جزيرة العرب، وانتشر بعد ذلك الإسلام في أقطار الدنيا. ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾ والمعنى: إن المهاجرين والأنصار بعضهم أولياء بعض. فعبَّر عن المهاجرين بلفظ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وعبَّر عن الأنصار بـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾ لأنهم آووا النبي ﷺ وأصحابه ونصروهم على أعدائهم. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أصل قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ مبتدأ، والمبتدأ وخبره خبر المبتدأ الأول، فلما دخلت (إن) صار المبتدأ الأول اسمها، والمبتدأ الأخير وخبره خبر (إن) كما هو معروف لا يخفى. هذا معنى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ﴾. معناه: أن المهاجرين أولياء الأنصار، والأنصار أولياء المهاجرين، فبعض المهاجرين أولياء المهاجرين والأنصار، وبعض الأنصار أولياء

المهاجرين والأنصار، فهم أولياء بعضهم على بعض. وكانت هذه الولاية يتوارثون بها دون غيرهم، وهذه الولاية ولاية نصر ومعاونة ومساعدة وميراث تعم ذلك كله. وهذا معنى قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ الأولياء جمع ولي، والولي: كل من ينعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويواليك تسميه العرب ولياً[1]؛ ولذا كان الله ولي المؤمنين ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأنهم يوالونه بالطاعة ويواليهم بالجزاء والمغفرة، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض. وهذا معنى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

والأولياء جمع الولي، وقد تقرر في فن التصريف أن (الفعيل) بمعنى اسم الفاعل يطرد جمعه على (فُعَلَاء) إلا إذا كان معتل اللام أو مُضَعَّفاً فينقاس جمع تكسيره على (أَفْعِلَاء)[2] فمثاله في المعتل: ولي وأولياء، وتقي وأتقياء، وسخي وأسخياء، وشقي وأشقياء، ونبي وأنبياء. ومثاله في المُضَعَّف: شديد وأشداء، وحبيب وأحباء. وما جرى مجرى ذلك.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ التنوين في قوله ﴿بَعْضٍ﴾ تنوين عوض، عوض من الإضافة. أي: بعضهم أولياء بعضهم. فحذف المضاف إليه وعوض منه التنوين، ومعلوم أن من أقسام التنوين ما يسمَّى «تنوين العوض» سواء كان عوضاً عن حرف، أو عن كلمة، أو عن جملة كما هو معروف في محله. هذا معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟﴾ هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا على أقسام: منهم الذين يرجعون إلى قبائلهم في البادية من الأعراب، ومنهم من يكون في أهل مكة، وهؤلاء الذين في أهل مكة منهم من يؤمن ولم ينزل بين أظهر الكفار اختياراً كالذي وقع ممن ذكرنا في سورة الأنفال، وهم العاص بن نُبيه، والحارث بن زمعة بن الأسود، وعلي بن أمية، وأضرابهم الذين نزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾. ثم إن الله استثنى منهم المستضعفين الذين لا حيلة لهم فعذرهم فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: الآيات ٩٧ ــ ٩٩]. كان ابن عباس يقول: أنا من المستضعفين من الولدان، وأمي من المستضعفات من النساء[1]. قبل هجرتهم، أما الذين أسلموا ورجعوا إلى ديارهم في البادية كأبي ذر وأمثاله ممن أسلموا، ثم رجعوا ولم يهاجروا، بل بقوا في البادية فهؤلاء لا يرثون إخوانهم المهاجرين، بل يرثهم قبلهم إخوانهم من الأنصار والمهاجرين، وليس لهم في غنيمة المسلمين ولا في خُمس الغنائم شيء، إلا أنهم يحكم لهم بحكم الإيمان، وإذا استنصروا المسلمين استنصار دين خاصة فعليهم أن ينصروهم، إلا إذا استنصروهم على من بينهم وبينهم مهادنة وعهود كما يأتي تحريره قريباً إن شاء الله. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ . . .﴾ (٤٥٨٧، ٤٥٨٨)، (٨/ ٢٥٥).

قال بعض العلماء: الولاية المنفية هنا هي ولاية الميراث خاصة، وهو مروي عن ابن عباس[١] وجماعة من الصحابة فمن بعدهم.

وقال بعض العلماء: هي جميع الأنواع: الموالاة من الميراث والمعاونة.

والتحقيق: أنها عامة إلا ما استثني منها وهو النصر الديني خاصة؛ لأن الله استثناه بقوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ هذا الذي بقي من ولايتهم مع عدم هجرتهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ وقد بيَّن عذر المستضعفين وعدم عذر الذين كانوا على قدرة وبقوا بين أظهر الكفار المحاربين للنبي ﷺ حتى يهاجروا.

ثم قال: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾. الاستنصار طلب النصر، وقد تقرر في علم العربية: أن من معاني السين والتاء: الطلب. استغفر: طلب المغفرة، واستطعم: طلب الطعام، واستسقى: طلب السقيا، واستنصر: طلب النصر، ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ أي: طلبوا نصركم في الدين.

قوله: ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ يدل على أنهم لو استنصروهم نصر قومية وعصبية أنهم ليس عليهم أن ينصروهم، وإن المناصرة إنما هي في الدين، فلا مناصرة في العصبيات، ولا في القوميات، ولا في الأغراض الفاسدة، وإنما المناصرة في الله، وفي دين الله (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ والمراد بالدين: دين الإسلام كما قال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: الآية ١٩]،

---

(١) ابن جرير (١٤/٧٨) من طريق علي بن أبي طلحة.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: الآية ٨٥]. وقد بيَّن النبي ﷺ في حديث جبريل أن الدين شامل للإيمان والإحسان والإسلام حيث سأله عن الإيمان وفسره له، والإسلام وبيّنه له، والإحسان كذلك. ثم قال: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[(١)]. فعلم من قوله: «**يعلمكم دينكم**» أن اسم الدين شامل لكل من الإحسان والإسلام والإيمان كما لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ أي: فواجب عليكم نصرهم. أي: إعانتهم الإعانة الدينية لا الإعانة العصبية القومية فذلك لا يكون؛ لأن الإعانات والانتصارات إنما هي في سبيل الله، وعلى كتاب الله، لا في سبيل الشيطان، ولا على سبيل العصبيات وقضايا الجاهلية الأولى كما لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ الجار والمجرور في قوله: ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ يتعلق بمحذوف، إلا إن استنصروكم على قوم فلا تنصروهم على قوم بينكم وبينهم ميثاق.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[(٢)] أن لفظ القوم يختص في الوضع العربي بالذكور دون الإناث، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: الآية ١١] فعطفه النساء على القوم في آية الحجرات هذه يدل على أن القوم لا يتناول النساء وضعاً، ومثل الآية الكريمة قول زهير وهو عربي جاهلي قح[(٣)]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

وما أدْرِي وسَوفَ إخَالُ أَدْرِي أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

فعطف النساء على القوم فدل على عدم دخولهن فيهم، وقد دل القرآن العظيم على أن المرأة قد تدخل في اسم القوم بحكم التبع إذا اقترن المقام بما يدل على ذلك، كقوله في ملكة سبأ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: الآية ٤٣] وما جرى مجرى ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

المراد بالميثاق: المهادنة والمعاهدة، وأصل الميثاق في لغة العرب: العهد المؤكد[1]، فكل عهد كان مؤكداً تسميه العرب ميثاقاً. وعلى هذا فكل ميثاق عهد، وليس كل عهد ميثاقاً. وياء الميثاق مبدلة من واو، ووزنه بالميزان الصرفي (مِفْعَال) وفاؤه واو، وأصله: (موثاق)[2] كميعاد من الوعد، وميزان من الوزن، وميثاق من الوثوق؛ ولذا يُصَغَّر على (مُوَيْثيق) لأن التصغير يرد العين إلى أصلها. ويُجمع جمع التكسير على (مواثيق) على القياس. وما سمع عن العرب من تكسيره على (مَيَاثِق) كقول عياض بن درة الطائي[3]:

حِمىً لا يُحَلّ الدهر إلا بإذننَا ولا نسألُ الأقوامَ عقدَ المَيَاثِق

فهو سماع يحفظ ولا يقاس عليه؛ لأنه اعتد بالعارض هنا على غير القياس. وهذا معنى قوله: ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٦٩) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٢٧٣.

(٣) البيت في الخصائص (٣/ ١٥٧)، اللسان (مادة: وثق) (٣/ ٨٧٦).

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ يعني: لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهذا هو الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم الذي كنا نتحدث عنه الآن ونخبر بكثرته في القرآن العظيم لشدة عظم موعظته وزجره لمن كان له قلب. وهذا معنى قوله: ﴿ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال: الآيات ٧٣ ــ ٧٥].

يقول الله (جل وعلا): ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ ﴾. هذه الآية الكريمة من الآيات العظام التي يعتبر بها؛ لأن ما ذكره الله (جل وعلا) فيها وما حذّر منه من الفتنة والفساد الكبير إن لم يوالي المسلمون بعضهم بعضاً، ويقطعوا موالاة الكفار، ويتركوا الكفار بعضهم يوالي بعضاً، ما حذر به من أنهم إن لم يحافظوا على صدق الموالاة بينهم ومقاطعة أعدائهم تقع في الأرض الفتنة والفساد الكبير، فهو واقع منتشر الآن، يدل على عظم هذا القرآن العظيم وأنه كلام رب العالمين، وأن تحذيره حق، وترغيبه حق، والله في هذه الآيات من أخريات سورة الأنفال بيّن أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قال في المهاجرين والأنصار: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ﴾ وهم في ذلك الوقت سادات المسلمين جميعاً في أقطار الدنيا؛ لأنهم هم الأغلبية والكثرة التي فيها رسول الله ﷺ.

ثم أتبع ذلك بأن الكفار بعضهم أولياء بعض، ويُؤخذ من هذا ــ من قطع الولاية أولاً بين الكفار والمؤمنين ــ أنه لا يرث كافر مسلماً ولا مسلم كافراً؛ لأن الميراث لا بد له من ولاية بين الوارث والموروث، وقد قطع الله الولاية بينهما، وما دل عليه ظاهر هذه الآية الكريمة جاء مصرحاً به في الحديث الصحيح عنه (صلوات الله وسلامه عليه) حيث يقول: «**لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر**»[1] وهذا لا نزاع فيه بين المسلمين، دل عليه عموم هذه الآيات الكريمة، وصرح به النبي ﷺ. ومن هذه الموالاة قال بعض العلماء[2]: منها ولاية النكاح، فالمرأة المؤمنة لا يلي عقدها أبوها الكافر؛ لأن الله قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين، والله يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: الآية ١٤١] وقد قدمنا أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب[3].

وكذلك قال العلماء: لو كانت كافرة ذمية وأراد مسلم تزويجها ولها ولي ابن عم أو أب من المسلمين فإنه لا يتولى عقد نكاحها ولو للمسلم، لانقطاع الولاية بين الكفار والمسلمين، وإنما يزوجها أقرباؤها من أهل دينها أو أساقفتهم. وشذ في هذه المسألة أصبغ ــ أحد أصحاب مالك بن أنس رحمه الله ــ فقال: إن الكافرة إذا كان لها ولي مسلم يزوجها من مسلم، قال: فعقد المسلم لها خير للمسلم

---

(١) اخرجه البخاري في الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم، حديث رقم: (٦٧٦٤)، (١٢/ ٥٠)، ومسلم في الفرائض، في فاتحته، حديث رقم: (١٦١٤)، (٣/ ١٢٣٣).

(٢) انظر: القرطبي (٨/ ٥٧).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

من عقد الكافر[١]. وهذا القول ليس بصواب؛ لأنه لا ولاية بين مسلم وكافر البتة، والكفار بينهم ولاية الكفر، ولاية الشيطان والكفر، كما قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

وهذه الآية تدل على أن الكفار بعضهم ولي بعض، وظاهرها أن الكافر يرث الكافر ولو اختلفت مللهما من الكفر، وبهذا الظاهر تمسك من قال يرث النصراني اليهودي واليهودي النصراني، كما يتوارث غيرهم من أهل الملل. والصواب أنه لا يتوارث أهل ملتين للحديث الوارد في ذلك عن النبي ﷺ: «**لا يتوارث أهل ملتين**»[٢] وهو الأصوب، وهو أخص؛ لأنه يبين المراد بعموم هذه الآية الكريمة.

---

(١) انظر: القرطبي (٨/ ٥٧).

(٢) روى هذا الحديث غير واحد من الصحابة (رضي الله عنهم)، ومنهم:

١ ــ جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما)، عند الترمذي في الفرائض، باب لا يتوارث أهل ملتين، حديث رقم: (٢١٠٨)، (٤/ ٤٢٤)، وهو في صحيح الترمذي (١٧١٢)، الإرواء (٦/ ١٢١، ١٥٥).

٢ ــ عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما)، عند أحمد (٢/ ١٧٨، ١٩٥)، وأبي داود في الفرائض، باب هل يرث المسلم الكافر، حديث رقم: (٢٨٩٤)، (٨/ ١٢٢)، وابن ماجه في الفرائض، باب ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك، حديث رقم: (٢٧٢٩)، (٢/ ٩١٢)، والدارقطني (٤/ ٧٢، ٧٥)، وابن الجارود (٣/ ٢٣٢)، وانظر: صحيح أبي داود (٢٥٢٧)، وصحيح ابن ماجه (٢٢٠٧)، الإرواء (٦/ ١٢٠).

٣ ــ أسامة بن زيد (رضي الله عنهما)، عند الحاكم (٢/ ٢٤٠)، وانظر: الإرواء (٦/ ١٢٠).

٤ ــ عن الشعبي مرسلاً، عند الدارمي (٢/ ٢٦٧).

وساق الدارمي في هذا المعنىٰ جملة من الآثار عن بعض الصحابة (رضي الله تعالىٰ عنهم).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مبتدأ، و ﴿بَعْضُهُمْ﴾ مبتدأ آخر، و ﴿أَوْلِيَآءُ﴾ خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول كما هو واضح.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[١] أن مادة الكاف والفاء والراء (كَفَرَ) أن معناها في لغة العرب التي نزل بها القرآن: الستر والتغطية، فكل شيء غطيته وسترته فقد كفرته، وهذا معنى معروف في كلام العرب مشهور مبتذل في كلامهم جداً، ومنه سمت العرب الليل كافراً؛ لأنه يكفر الأجرام ويغطيها عن العيون بظلامه، ومنه قول لبيد بن ربيعة (رضي الله عنه) في معلقته[٢]:

حتى إذا أَلقَتْ يَداً في كَافرٍ وأَجنَّ عَورَاتِ الثّغُورِ ظَلاَمُهَا

ومن هذا المعنى قول لبيد أيضاً في معلقته هذه[٣]:

يعلُو طريقةَ متنُها متواترٌ في ليلةٍ كَفَرَ النجومَ غَمَامُهَا

يعني: ستر النجوم وغطاها غمامها. هذا أصل المادة، وتكفير السيئات من هذه المادة؛ لأن الله يغطيها ويسترها بحلمه حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها، وإنما قيل للكافر (كافر) لأنه يغطي أدلة التوحيد بجحوده مع وضوحها، ويغطي نعمة الله ويسترها كأنه ليس عليه إنعام من الله حيث يأكل رزقه ويتقلب في نعيمه ويعبد غيره.

وقوله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ هي (إن) الشرطية أُدغمت في (لا) النافية. والمقرر في علم العربية: أن

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(إن) الشرطية التي تجزم فعلين إن جاءت بعدها (لا) النافية لا تمنع عملها من الجزم، فهي (إن) الشرطية، وفعل الشرط هو قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ مجزوم بحذف النون، وجزاء الشرط هو قوله: ﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾ والتحقيق: أن (تكن) أنه هنا تام، وأن (فتنة) فاعله، وليس من الأفعال الناقصة الناسخة كما هو الصواب، والضمير في قوله: ﴿تَفْعَلُوهُ﴾ أما الضمير المرفوع الذي هو الواو فهو عائد إلى النبي ﷺ وأصحابه، وهو يتناول جميع المسلمين إلى يوم القيامة. وأما الضمير المنصوب فهو ضمير الواحد الغائب ــ أعني الهاء في قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ ــ فلعلماء التفسير في مرجع هذا الضمير أقوال معروفة[١] سنذكر طرفاً منها ونبيّن الصواب فيها ــ إن شاء الله ــ: قال بعض العلماء: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ راجع إلى الميراث المفهوم من قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ لأنه يدخل فيها ولاية الميراث، إلا تتركوا الكافر يرث الكافر، والمسلم يرث المسلم دون الكافر تكن فتنة. وهذا مروي عن ابن عباس[٢] وغيره، ومعه أقوال شبهه.

والتحقيق الذي لا شك فيه ــ إن شاء الله ــ أن الضمير ــ الهاء ــ في قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ عائد إلى ما ذكره الله (جل وعلا) من ولاية المسلمين بعضهم بعضاً ومقاطعتهم للكفار، وولاية الكفار بعضهم بعضاً، وقد جرت العادة في كلام العرب الذي نزل به القرآن، وفي القرآن العظيم، أنه يرجع الضمير أو ترجع الإشارة إلى أشياء متعددة ويرجع الضمير إليها بصيغة الإفراد[٣]، كأنه يعني بالضمير

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/ ٦٤١).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٤/ ٨٦) من طريق علي بن أبي طلحة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

أي: ما ذكر من الأشياء المتعددة من اثنين فصاعداً، وهذا موجود في الضمائر، وفي كلام العرب، ولما أنشد رؤبة بن العجاج في رجزه[١]:

فيها خُطوطٌ من سَوادٍ وَبَلَقْ كأنَّه في الجِلْدِ تَوْلِيعُ البَهَقْ

قال له رجل: لِمَ قلت: «كأنه» إذا كنت تعني الخطوط فالصواب أن تقول: «كأنها» وإذا كنت تعني السواد والبلق فهلا قلت: «كأنهما» فأي وجه لقولك: «كأنه»؟ قال: كأنه أي: ما ذُكر. ومن أصرح الأدلة القرآنية في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ﴾ (به) أي: بجميع ما ذُكر من سمعكم وأبصاركم وقلوبكم كما لا نزاع فيه. وهذا معنى معروف في كلام العرب، وقد قدمنا بعض شواهده في سورة البقرة في الكلام على قوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[٢] أي: بين ذلك المذكور من الفارض والبكر. ومن نظيره في الإشارة قول ابن الزبعرى السهمي[٣]:

إن للخيرِ وللشرِ مَدَى وكِلاَ ذلك وجْهٌ وقَبَل

أي: كلا ذلك المذكور.

والمعنى: إلا تفعلوا ذلك الذي ذكرنا من موالاة بعضكم لبعض موالاة صدق، ومقاطعتكم للكفار مقاطعة كاملة، وترك الكفار يوالي بعضهم بعضاً إلا تفعلوا هذا ﴿تَكُن﴾ أي: تقع ﴿فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) راجع الموضع السابق، وكذا ما ذكره عند تفسيره للآية (٦٩) من سورة البقرة.

(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ وهذا المشاهد الآن، فإن من يسمون بالمسلمين تولوا الكفار وقاطعوا المسلمين، وصار هذا الكافر وهذا المسلم يزعمان أنهما أَخَوَان، وأنهما تجمعهما العصبية الفلانية، أو القومية الفلانية، وأن هذه الدولة الكافرة صديقة، وأن هذين الشعبين شقيقان وما جرى مجرى ذلك.

فلم يفعلوا ما أمر الله بأن يفعلوه فكانت فتنة في الأرض وفساد كبير. ومن عِظَم هذه الفتنة اختلاط الحابل بالنابل؛ لأن المسلمين إذا صادقوا الكفار أعانوهم على أذية المسلمين وقتلهم وكل ما يريدونه بهم، وأطلعوهم على عوراتهم، إلى غير ذلك، فانتشر في الدنيا الفساد العريض العظيم، وانتشرت الفتنة، وهذا مشاهد يجب على المؤمنين أن يعتبروا بهذا فيقطعوا ولايتهم من جميع الكفار، ويصدقوا ولاية بعضهم لبعض لئلا تتمادى بهم هذه الفتنة والفساد الكبير.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[1] أن الفتنة جاءت في القرآن لمعاني معروفة، أشهر معاني الفتنة: أن أصل الفتنة هي وضع الذهب في النار ليُمتحن بسبكه في النار: أخالص هو أم زائف؟ تقول العرب: فتنت هذا الذهب. أي: جعلته في النار وأذبته فيها؛ لأنه إذا ذاب تبيّن أخالص هو أم زائف؟ ولذا صار يأتي في القرآن وفي كلام العرب إطلاق اسم الفتنة على مطلق الوضع في النار، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: الآية ١٣] أي: يوضعون فيها ويحرقون. ومنه على أحد التفسيرين قوله تعالى:

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: الآية ١٠] يعني: أحرقوهم بنار الأخدود. هذا معنى من معاني الفتنة.

ومعناها الثاني: أن الفتنة تطلق على الاختبار، وهذا أشهر معانيها، وهو في الحقيقة راجع إلى الأول؛ لأن وضع الذهب في النار ليختبر بالنار أخالص هو أم زائف؟ وإطلاق الفتنة على الاختبار إطلاق مشهور مستفيض في القرآن العظيم وفي كلام العرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: الآيتان ١٦، ١٧] ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: الآية ٣٥] أي: اختباراً وامتحاناً. إلى غير ذلك من الآيات.

وإطلاق الفتنة الثالث: تطلق الفتنة على نتيجة الاختبار بشرط كونها سيئة خاصة؛ لأن المختبر إذا كانت نتيجة اختباره سيئة كان ضالاً؛ ولذا تطلق الفتنة على الكفر والضلال، يقولون: فَتَنَه عن دينه. أي: أضله. وهذا مفتون. أي: ضال في دينه. ومنه بهذا المعنى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: الآية ٣٩] أي: لا يبقى في الدنيا شرك على أصح التفسيرين؛ لأن قوله ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ غاية غيَّا فيها القتال لئلا يكون في الدنيا شرك. وهذا بيّنه النبي ﷺ بياناً صريحاً صحيحاً في قوله: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**»[1] ﷺ.

قال بعض العلماء: جاء للفتنة إطلاق رابع في سورة الأنعام، وهو أنها أُطلقت على الحجة. قال: ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ وفي القراءة

(١) السابق.

الأخرى[١]: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٢٣] فهذه الفتنة هي في الحقيقة المعنى الثاني من هذه المعاني التي ذكرنا، وهي نتيجة الاختبار إذا كانت سيئة؛ لأنه إذا اتصل الكافر بالمسلم، والمسلم بالكافر صار الكافر صديق المسلم، وصار المسلم صديق الكافر، فكل هذا ضلال مخالف لما جاء من الله، تتسبب عنه المحن والبلايا كما هو معروف.

وقوله: ﴿وَفَسَادٌ﴾ الفساد في لغة العرب هو ضد الإصلاح، فكل أمر ليس على وجهه الصحيح الذي هو إصلاح تسمية العرب فاسداً. ووصف هذا الفساد بالكبير لأنه ضياع دين، وضعف إسلام، وقوة كفار، وإطلاعهم على عورات المسلمين بواسطة من يصادقهم ويواليهم من المسلمين، إلى غير ذلك من البلايا. وقد بيّن الله (جل وعلا) قبل هذا آيات تبيّن هذه الآية، فبيّن أن موالاة الكافر للمسلم لا يرخص منها في شيء إلا بقدر ما يدفع الضرورة عند الخوف، ويكون ذلك باللسان لتفادي الخوف فقط، كما تقدم في قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران: الآية ٢٨] أي: تخافوا منهم خوفاً كما قاله بعض العلماء. وقد قدمنا أنه (جل وعلا) بيّن أن الذي يتولى الكفار اختياراً رغبة فيهم وفي دينهم أنه منهم، كما تقدم في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: الآية ٥١] فهذه الآيات الكريمة في القرآن العظيم وبالأخص هذه الآية من أخريات سورة الأنفال تبين للمسلم أنه تجب عليه مقاطعة الكافر والمباعدة منه، واعتقاد أنه حرب عليه، وقد

(١) مضت عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

جاءت أحاديث كثيرة تؤيد هذا المعنى، ففي بعض الأحاديث في رجل أخذ النبيُ ﷺ عند إيمانه قال: «**وأن لا ترى نار مشركٍ إلا وأنت حرب عليه**»(١) وفي الحديث الآخر: «**لا تتراءى نار مسلم وكافر**»(٢) فالعداوة يلزم أن تكون بين المسلمين والكفار / [كما [١٠/أ] قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾](٣) ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: الآية ٤] هذا الذي ينبغي أن يسير عليه المسلمون ويتجنبوا هذه الفتن والفساد الكبير والبلايا التي طبَّقت الدنيا بسبب موالاة المسلم للكافر ومجافاة المسلم للمسلم؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧٣] والله ما فعلوه اليوم، والله إن في الدنيا اليوم لفتنة وفساداً كبيراً منتشراً.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١١/ ٣٣٠ ـ ٣٣١)، وابن جرير (١٤/ ٨٢ ـ ٨٣) عن الزهري مرسلاً.

(٢) لفظ الحديث: «**أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين**»، قالوا: يا رسول الله لم؟! قال: «**لا تراءى ناراهما**». أخرجه أبو داود في الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود، حديث رقم: (٢٦٢٨)، (٧/ ٣٠٣)، والترمذي في السير، باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، حديث رقم: (١٦٠٤، ١٦٠٥)، (٤/ ١٥٥)، والنسائي في القسامة، باب القود بغير حديدة، حديث رقم: (٤٧٨٠)، (٨/ ٣٦)، وانظر: الإرواء (٥/ ٢٩ ـ ٣٣)، السلسلة الصحيحة (٢/ ٢٣٠).

(٣) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

وقد تكون الفتنة والفساد الكبير بأسباب أُخر غير هذا، وقد تقرر في فن الأصول أن جزاء الشرط يجوز أن يكون أعم من شرطه، لا مانع من ذلك، فلا يلزم أنه لا تكون فتنة وفساد كبير إلا من هذا، فقد تكون فتنة وفساد كبير لأسباب أُخر، فإنك لو قلت مثلاً: إن بلت انتقض وضوؤك. لا يلزم من هذا أنه لا ينتقض وضوؤك إلا من البول، فقد تكون نواقض أُخر غير هذا؛ ولذا قد يوجد الفتنة والفساد الكبير لأسباب أُخر غير هذا المذكور؛ ولذا جاء في السنن وغيرهم من حديث أبي حاتم المزني (رضي الله عنه) وحديث أبي هريرة أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخُلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**» في بعض روايات الحديث: «**وفساد عريض**» وفي بعضها: «**وفساد كبير**». قالوا: يا رسول الله وإن كان فيه؟ قال ﷺ: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**» أو «**فساد كبير**»[(١)].

---

(١) حديث أبي حاتم المزني أخرجه الترمذي في النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، حديث رقم: (١٠٨٥)، (٣/ ٣٨٦)، والبيهقي (٧/ ٨٢)، والدولابي في الكنى (١/ ٢٥)، وانظر: السلسلة الصحيحة (١٠٢٢)، الإرواء (١٨٦٨).

وحديث أبي هريرة أخرجه الترمذي (الموضع السابق)، حديث رقم: (١٠٨٤)، (٣/ ٣٨٥)، وابن ماجه في النكاح، باب الأكفاء، حديث رقم: (١٩٦٧)، (١/ ٦٣٢)، والدوري في (جزء فيه قراءات النبي ﷺ) ص ١٠٣ ــ ١٠٤، والحاكم (٢/ ١٦٤، ١٦٥)، والخطيب (١١/ ٦١).

وانظر: الإرواء (٦/ ٢٦٦). =

وهذا أيضاً يدل علىٰ أن الفتنة والفساد الكبير تتعدد أسبابها وهو كذلك، فإن للافتتان والفساد الكبير المنتشر في الدنيا أسباباً كثيرة، ومن أعظم تلك الأسباب وأبرزها: مقاطعة المسلم للمسلم وموالاته للكافر، فهذا مما لا ينبغي، وهو من الأسباب العظيمة؛ لأن الله يقول لنبيه: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: الآية ٩] فاللين للكفار والمحبة والمؤاخاة لهم ليست من شأن المسلمين، ولا من خلق النبي وأصحابه، فالله (جل وعلا) أثنىٰ علىٰ محمد ﷺ وعلىٰ أصحابه بأنهم لا يضعون اللين إلا في موضع اللين، ولا يضعون القسوة إلا في موضع القسوة، قال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ ليسوا بأصدقاء لهم ولا محبين ولا أولياء ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: الآية ٢٩] هذه عادة المسلم أن يكون شديداً عظيماً علىٰ الكافر، رحيماً رفيقاً ذليلاً علىٰ المسلم، هذه عادة المسلمين وصفات المسلمين، وقد مدح الله بها قوماً في سورة المائدة حيث قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ــ يعني لا يهتم بهم المسلمون لعدم صعوبتهم وذلهم وتواضعهم للمسلمين ــ ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: الآية ٥٤] أشداء، وقد صدق من قال[1]:

فما حَمَلَت من ناقةٍ فوقَ رَحْلِها ... أشد على أعدائِهِ من محمدِ

(صلوات الله وسلامه عليه)، فهو لا يوالي الكفار، بل هو ولي المسلمين ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦]

= تنبيه: ورد في هذا المعنىٰ أيضاً حديث عن ابن عمر (رضي الله عنهما)، وهو في الكامل (٥/ ١٧٢٨)، والدولابي في الكنىٰ (٢/ ٢٧).

(١) مضى عند تفسير الآية (١٩٩) من سورة الأعراف.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية [المائدة: الآية ٥٥] إلى غير ذلك من الآيات، فيجب علينا الاقتداء بالنبي ﷺ فنوالي المؤمنين ونلين لهم، ونرفق بهم، ونعَادي الكفار ونكون أشداء عليهم؛ لأن الشدة في محل اللين خرق وحمق، واللين في محل الشدة خور وضعف، والصحيح أن يكون كل شيء في محله، وهذا في موضعه، وهذا في موضعه، كما لا يخفىٰ، وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧٣].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧٤] [شرع][1] الله (جل وعلا) وبيَّن للمؤمنين أن يكونوا أولياء للمؤمنين، والكفار بيَّن أنهم أولياء الكفار، وأثنىٰ على المهاجرين والأنصار؛ لأن بعضهم أولياء بعض، مدح المهاجرين والأنصار وزكاهم وهو المطلع على ضمائرهم وخبايا ما يضمرون، بيَّن أن إيمانهم أنه إيمان حق لا شك فيه لا نفاق ولا ضعف، فأثنىٰ عليهم ومدحهم مدحاً عظيماً من رب العالمين، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ــ بالله ورسوله وكل ما يجب به الإيمان ــ ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ ــ أوطانهم وأموالهم وديارهم ــ ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فسرناه بالأمس.

وهذه الصفات كله يُقصد بها المهاجرون الذين هاجروا إلى المدينة هذه، وهم النبي ﷺ وأصحابه الذين هاجروا معه رضي الله عنهم.

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ يعني: آووهم، قد قدمنا أن العرب تقول: «آواه يؤويه إيواء» إذا ضمه إليه وجعل له مأوىٰ يأوي إليه، والمأوىٰ: المسكن والمنزل؛ لأن الأنصار هيؤوا للمسلمين أمكنة ينزلون فيها وهيؤوا لهم كل ما يستعينون به، وآخىٰ النبي ﷺ بينهم، كان يقول: «**فلان أخو فلان**». فيتوارثان بذلك الإخاء، وكان الأنصار يشاطرونهم أموالهم، وقد آخىٰ ﷺ بين عبد الرحمٰن بن عوف الزهري (رضي الله عنه) وسعد بن الربيع الأنصاري (رضي الله عنه)، ذكر بعض أهل المغازي والأخبار أن النبي لما آخىٰ بينهما جاء سعد إلىٰ عبد الرحمٰن وقال: أرخص ما عندي نعلاي، فهذه إحداهما، وأعظم ما عندي زوجتاي أنزل لك عن إحداهما، فإن تمت عدتها تزوجتَها!! ــ وقد كان عبد الرحمٰن بن عوف (رضي الله عنه) وأغلب المهاجرين تعففوا واتجروا ــ فقال له عبد الرحمٰن بن عوف: أقرضني درهماً. فأقرضه درهماً فاتّجر به، فراح وعنده درهمان، ردّ إليه درهمه واتجر بالثاني، فراح عنده درهمان، ولم يزل يتَّجر حتىٰ انتشر عليه المال وكان من أغنياء الصحابة[1] (رضي الله عنهم). فهم آووهم حيث هيؤوا لهم المساكن والأموال، وشاطروهم أموالهم، وأحسنوا إليهم كل الإحسان، كما في قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب ما جاء في قول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ . . .﴾ رقم: (٢٠٤٨)، (٤/٢٨٨)، وطرفه في: (٣٧٨٠)، عن عبد الرحمٰن بن عوف (رضي الله عنه)، وأخرجه أيضاً عن أنس (رضي الله عنه) (الموضع السابق) برقم: (٢٠٤٩)، وأطرافه في: (٢٢٩٣، ٣٧٨١، ٣٩٣٧، ٥٠٧٢، ٥١٤٨، ٥١٥٣، ٥١٥٥، ٥١٦٧، ٦٣٨٦).

[الحشر: الآية ٩] هذا ثناء الله ومدحه للمهاجرين والأنصار، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ شاملة للمهاجرين والأنصار معاً، فالمهاجرون هم المعبّر عنهم بـ ﴿ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والأنصار هم المعبّر عنهم بقوله: ﴿ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ أي: آووا النبي وأصحابه ونصروهم على أعدائهم، هؤلاء جميعاً ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ حق إيمانهم حقاً؛ لأنهم صدقوا إيمانهم بهجرتهم وجهادهم في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وبإيمانهم، وأولئك حققوه بإيوائهم ونصرتهم لله؛ لأن الأنصار قامت موقفاً عظيماً حيث تحمّلت عداوة جميع أهل الدنيا في نصرة النبي ﷺ وأصحابه؛ ولذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ـ هؤلاء ـ ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ بمعنى الكلمة الإيمان التام الذي هو لا قيل فيه ولا قال، بل هو الإيمان كما ينبغي.

وهذه من الآيات الدالة على تزكية الصحابة لا سيما المهاجرين والأنصار، ووصفهم بالعدالة وصحة الإيمان، فإذا روى لنا مهاجري أو أنصاري حديثاً فلا نقول: هل هذا عدل أو غير عدل؟؟ لأنه لا مزكيّ أعظم تزكية من الله، ولا تزكية أعظم من قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤] والله (جل وعلا) نوّه بشأن المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم، ونوّه بشأن جميع الصحابة وزكاهم في غير ما آية، فمن الآيات التي أثنى بها على المهاجرين والأنصار قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: الآية ١٠٠] وفي

قراءة ابن كثير: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[1]. والمصحف الذي أرسله عثمان إلىٰ مكة فيه: ﴿مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بذكر لفظة (من) وقراءة الجمهور والمصاحف التي أُرسلت إلىٰ الشام وإلىٰ الكوفة والبصرة فيها: ﴿تحتها الأنهار﴾ بغير لفظة (من). فقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ ــ لم يشترط فيهم شيئاً بل قال: ــ ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: الآية ١٠٠] ــ وهذه أعظم تزكية، والذين اتبعوهم ــ اشترط فيهم شرطاً وهو الإحسان؛ لأن قوله: ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾ اشترطه في خصوص الذين اتبعوهم، ومن هذه الآيات قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ [الحديد: الآية ١٠] ثم قال: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ كُلاًّ من جميع الصحابة ممن أنفق وقاتل قبل الفتح وبعده وعد الله الحسنىٰ.

ومن هذه الآية الكريمة قال ابن حزم: يجب علىٰ كل مسلم أن يعتقد أن الصحابة كلهم في الجنة؛ لأن الله صرح بذلك ولا يخلف الله الميعاد حيث قال: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ ــ ثم صرح في الجميع بوعده الصادق الذي لا يخلفه قال ــ: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾[2]. وقال (جل وعلا) ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨﴾ [الحشر: الآية ٨] فزكاهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ ثم ذكر الأنصار قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٨.

(٢) الإحكام ص ٦٦٤.

﴿قَبْلِهِمْ﴾ الدار: هي المدينة ﴿تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ أي: وانتهجوا الإيمان، فهو مفعول فعل محذوف دل المقام عليه[١] ﴿مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ قال جماعة من أهل العلم: إن المهاجرين أفضل من الأنصار؛ ولذا كان الأنصار لا يكون في صدورهم شيء من فضل المهاجرين عليهم، هكذا قاله غير واحد[٢]. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩] ثم ذكر من يأتي بعدهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: الآية ١٠] ومن هذه الآيات أخذ مالك بن أنس (رحمه الله) إمام دار الهجرة أن الذين يسبون بعض أصحاب النبي ﷺ لا نصيب لهم في فيء المسلمين أبداً، وقال لبعضهم: هل أنتم من الفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله؟ قالوا: لا، لسنا من هؤلاء. قال: هل أنتم من الذين قال فيهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾؟ قالوا: لا، لسنا من هؤلاء. قال: وأنا أشهد أنكم لستم من الطائفة الثالثة التي قال الله فيها: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ فأنتم تسبّون الصحابة وتلعنوهم، فلستم من جملة من جعل الله لهم شيئاً من المسلمين فلا شيء لكم البتّة[٣].

وهذه الآيات وأمثالها في القرآن تدل علىٰ أن الذين يسبون

---

(١) انظر: القرطبي (١٨/ ٢٠).

(٢) انظر: ابن كثير (٤/ ٣٣٧).

(٣) تقدم عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

بعض أصحاب النبي ﷺ أنهم ضُلّال، منابذون لهدي الله، مخالفون لكتاب الله الذي هو آخر الكتب السماوية نزولاً من عند رب العالمين (جل وعلا) وهذا معنىٰ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: الآية ٧٤].

قال بعض العلماء: (حقاً) مصدر[١]، أي: حق ذلك حقاً، أي: لما حققوه به من الإيمان والهجرة والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله، إلىٰ غير ذلك من الصفات.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ المغفرة (مَفْعِلَة) من الغفران، وأصل مادة الغين والفاء والراء (غفر) أصلها معناها الستر والتغطية أيضاً كمادة (الكفر) لأن الله يستر بحلمه وفضله ذنوب التائبين إليه حتىٰ لا يظهر لها أثر يتضررون به[٢].

﴿وَرِزْقٌ﴾ هو ما يرزقهم الله في الجنة.

وقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ كل شيء حسن مبالغ في الحسن والجمال تسميه العرب كريماً، وإنما وصف رزقهم بأنه كريم لأن ما في الجنة من الأرزاق كله كريم ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: الآية ٢٥] وأرزاق الجنة مبيّنة في القرآن العظيم من مآكلها ومشاربها وغير ذلك. وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧٤].

---

(١) انظر: القرطبي (٨/٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥].

للعلماء أقوال في المراد بالظرف في قوله: ﴿ مِنۢ بَعۡدُ ﴾ فقوله: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ ﴾ ظرف منقطع من الإضافة مبني على الضم، وتقدير مضافه هذا ـ المحذوف ـ فيه للعلماء أقوال متقاربة[1]:

قال بعض المحققين: أظهر الأقوال فيه أن المراد به: من بعد صلح الحديبية. وهذا القول له اتجاه لمن عرف تاريخ النبي ﷺ وأصحابه وتاريخ الهجرة وأهميتها؛ وذلك لأن النبي ﷺ كان عنده التشديد العظيم في الهجرة، فلا بد لمن آمن أن يهاجر وإلا لم تكن له ولاية عند المسلمين كما قدمناه في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] لأن البلاد كلها كانت بلاد حرب، والإيمان في المدينة، والذي أسلم إما أن يبقى في دار حرب وإما أن يروح إلى النبي ﷺ والمسلمين، فلما كان صلح الحديبية ـ وقد كان صلح الحديبية وقع في ذي القعدة من عام ست من الهجرة بإجماع المؤرخين ـ خرج النبي ﷺ معتمراً، وساق معه بعض البُدن، وذلك في ذي القعدة من عام ست، فلما بلغ الحديبية سمع به المشركون فتعرضوا له، وقالوا: والله لا يقتل أبناءنا ببدر ويدخل علينا بلدنا ويطوف ببيتنا أبداً!! فوقع ما وقع مما هو مشهور. ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ [الفتح: الآية ٢٥]

(١) انظر: القرطبي (٨/ ٨).

أي: وصدوا ﴿ٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾، وقد نزلت في قفوله من الحديبية سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: الآية ١] نزلت في رجوعه من الحديبية كما قاله غير واحد، وقد وقع ما وقع، ولم يزالوا يراسلونه ليردوه عنهم، أرسلوا له عروة بن مسعود سيد ثقيف، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو وأضرابهم، حتىٰ انعقد بينه وبينهم الصلح علىٰ يد سهيل بن عمرو علىٰ المهادنة عشر سنين، وأغلظوا له في الصلح بأن من جاءه من قريش مسلماً رده إليهم، والذي جاء إلىٰ قريش مرتداً عن الإسلام لا يردونه، وهذا معروف.

وقد كان النبي ﷺ قَبِلَ لهم هذه الشروط، وكتب وثيقة الصلح بينه وبينهم، وعقدها معه سهيل بن عمرو العامري (رضي الله عنه) ــ من بني عامر بن فهر من قريش (رضي الله عنهم) ــ وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) اغتاظ من تغليظ هذه الشروط، وقال: يا رسول الله ألسنا علىٰ الحق؟ ألسنا نحن الذين علىٰ الحق؟ كيف نرضىٰ لهم بهذه الدنية؟! وأبو بكر يقول له: استمسك بغرز رسول الله ﷺ فهو أعلم منك. وكان هذا الصلح أول الفتح العظيم الذي فتح الله به علىٰ المسلمين؛ لأن النبي ﷺ يعلم ما فيه من المصلحة؛ لأنه لما وقعت الهجرة والمهادنة، وأمن الناس بعضهم بعضاً صار الصحابة يرجعون إلىٰ قبائلهم ويبثون فيهم الإسلام، فانتشر في الناس دين الإسلام، حتىٰ إن الكفار مكثوا سنتين لم ينقضوا العهد، وقد نقضوا العهد الذي أبرمه النبي ﷺ معهم في الحديبية؛ لأن بني بكر كانت بينهم وبين خزاعة دماء وحروب، ودخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ، وبنو بكر في عهد قريش،

فَعَدَت بنو بكر علىٰ خزاعة، فأعانهم قريش عليهم بالسلاح، ونقضوا العهد بعد سنتين، وكان ذلك سبب غزوة النبي ﷺ لهم غزوة الفتح، ولم يمكثوا إلا سنتين؛ لأن صلح الحديبية وقع من ذي القعدة عام ست، وغزو النبي ﷺ لهم في فتح مكة وقع في رمضان عام ثمان، وهذا كله لا خلاف فيه بين العلماء والمؤرخين، فأقاموا سنتين، ونقضوا العهود، إلا أن هذا الصلح كان فتحاً عظيماً علىٰ المسلمين؛ لأن الصحابة انتشروا في قبائلهم، ووجدت الدعوة إلىٰ الله طريقها، فاتصل المسلم بالكافر يدعوه إلىٰ الإسلام، فكثر الإسلام في أقطار الجزيرة العربية، ومما يوضح هذا أن أهل بيعة الرضوان التي وقعت في صلح الحديبية، الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية ــ لأن النبي ﷺ ذكر بعض أصحاب المغازي والمؤرخين أنه أراد أن يرسل بالهدايا إلىٰ مكة ــ، وقال لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «**اذهب بها إلىٰ مكة**». فقال له عمر: إن بني عدي بن كعب ــ يعني قبيلة عمر من قريش ــ لا يستطيعون أن يحموني من قريش، ولكني أدلك علىٰ رجل عزيز في مكة لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، وهو عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وهو عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. فأرسل عثمان بالهدايا لينحرها في الحرم، فتلقىٰ له بنو عمه من بني سعيد بن العاص، وقالوا له[1]:

أَقْبِلْ وأَدْبِرْ ولا تَخَفْ أحداً ... بَنُو سَعِيدٍ أَعِزَّةَ الحَرَمِ

وجاء، وقالوا له: إن شئت طُف بالبيت. فقال: والله لا أطوف

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة الأنعام.

ببيت مصدود عنه النبي ﷺ وهو محرم[١]، وكان هذا مما يدل علىٰ شرف عثمان (رضي الله عنه) لأنه امتنع أن يطوف لأن رسول الله ﷺ ممنوع من الطواف وهو محرم. ثم إن قائلاً قال: إن قريشاً قتلوا عثمان بن عفان ــ وهو كاذب ــ فسمع بها المسلمون فقالوا: قُتل عثمان!! قالوا: لما قتلوا عثمان ما هنالك إلا القتال والموت!! فبايعوه بيعة الرضوان تحت سمرة الحديبية، وهي الشجرة التي قال الله فيها: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: الآية ١٨] ومحل الشاهد من هذه القصة، وأن صلح الحديبية كان أول فتح علىٰ المسلمين، وأول انتشار للإسلام، أن أهل بيعة الرضوان ــ كانوا ألفاً وأربعمائة تقريباً، كما ثبت ذلك صحيحاً عن بعض أصحاب النبي ﷺ، ولما غزا فتح مكة غزاه بآلاف متعددة، غزاه بعشرة آلاف مقاتل، فدل هذا علىٰ أن هذه العشرة آلاف كانت من مزايا صلح الحديبية حيث وجدت الدعوة طريقها، واتصل المسلمون بالكفار فدعوهم إلىٰ الإسلام فانتشر الإسلام في المسلمين؛ ولذا كانت الهجرة بعد صلح الحديبية أقل عظماً وأخف وقعاً مما كانت قبل ذلك؛ لأنه في ذلك الوقت جازت مخالطة المسلم لقبيلته ليدعوهم إلىٰ الإسلام، فخف شأن الهجرة من ذلك الوقت؛ لأنها كاد الله أن يُغني عنها، فلما غزا النبي ﷺ مكة في رمضان من سنة ثمان، وفتح مكة، قال ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية**»[٢]. وهذه الهجرة انقطعت بالفتح وخفت بالحديبية؛ ولذا قال فيه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: بعد أن خف

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٧٢) من هذه السورة.

شأن الهجرة بصلح الحديبية، واتصل المسلمون بالكفار، وانتشر المسلمون في أقطار الجزيرة العربية، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥] ــ قبل فتح مكة وبعد صلح الحديبية، كما قاله بعض العلماء ــ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ معكم وينالهم الفضل العظيم، وإن كان شرف الأسبقية لا يناله من جاء بعدهم كما قال: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ [الحديد: الآية ١٠].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ أي: هم من جملتكم وإن كان بعضكم أفضل من بعض.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ (أولوا الأرحام) معناه: أصحاب الأرحام، وهم ذوو القرابات. و (أولوا) اسم جمع لا واحد له من لفظه، هو يُعرب إعراب الجمع المذكر السالم، يُرفع بالواو وينصب ويخفض بالياء، وهو من الأسماء الملازمة للإضافة. والأرحام: جمع رحم، والرحم مؤنثة، وشذ قوم هنا وقالوا: إن المراد بها أرحام العصبات خاصة، وممن نصر هذا القول: أبو عبد الله القرطبي في تفسيره[1]. وهو ليس بصواب، وما استدلوا به في ذلك لا ينهض حجة؛ لأنهم قالوا: إن العرب كثيراً ما تُطلق الرحم علىٰ قرابة العصبات دون قرابات غيرهم، قالوا: تقول العرب: وصلتك رحم. يعنون به رحم العصبات لا غيرها. وقالت قتيلة بنت الحارث، أو بنت النضر بن الحارث في رجزها المشهور لما قتل

(١) تفسير القرطبي (٨/ ٨).

النبي ﷺ النضر بن الحارث في رجوعه من بدر ـ كما أوضحنا قصته في أول هذه السورة الكريمة سورة الأنفال ـ قالت في شعرها، تقول(١):

ظَلَّتْ سُيوفُ بني أبيهِ تَنُوشُه   للَّـٰـهِ أرحامٌ هُناكَ تشقَّقُ

فصرحت بأن مرادها بالأرحام بنو الأب، يعني من بني عمه وعصبته. وهذا يجوز، ولكنه لا ينفي غيره من إطلاق ذوي الأرحام علىٰ جميع القرابات(٢). وهذه الآية ثبت في الصحيح وغيره ـ ولا يكاد يُختلف فيه بين العلماء ـ أنها نسخت للموارثة التي كانت تقع بالهجرة والمؤاخاة والحلف؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالهجرة والمؤاخاة ولا يرث القريب من قريبه شيئاً إذا كان لم يهاجر، كما تقدم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] وأن الله نسخ ذلك بالقرابات، وأن المراد: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: أصحاب القرابات من قرابة الأب والأم، بعضهم أولىٰ ببعض في الميراث. أي: من المهاجرين الذين آخىٰ النبي ﷺ بينهم وبين الأنصار كما هو معروف، فنسخ الله ذلك الميراث أولاً بميراث القريب قريبه، والولي وليه.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي: في الميراث.

﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ قال بعض العلماء: المراد بكتاب الله أي: في حكم الله وأمره الذي كلف به خلقه وألزمهم إياه، والعرب كل شيء

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

(٢) انظر: الأضواء (٢/ ٤١٨).

[١٠/ب] مكتوب مؤكد تسميه كتاب الله. / وقال بعض العلماء: كتاب الله: هو اللوح المحفوظ لأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ[١] كما قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦ . . .﴾ [الأحزاب: الآية ٦] فآية الأحزاب كأنها بيّنت آية الأنفال هذه، وقال بعض العلماء: المراد بكتاب الله: القرآن؛ لأن الله بيّن المواريث في كتاب الله في القرآن في سورة النساء بيّنها بآية الصيف وآية الشتاء، فآية الشتاء هي: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء: الآية ١١] إلىٰ آخر الآيات، وآية الصيف هي التي في آخر السورة: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ﴾ [النساء: الآية ١٧٦].

وقد قدمنا[٢] أن الكتاب بمعنىٰ المكتوب، وأن إتيان (الفِعَال) بمعنىٰ (المفْعُول) مسموع في كلام العرب موجود في أوزان معروفة، ككتاب بمعنىٰ مكتوب، ولباس بمعنىٰ ملبوس، وإله بمعنىٰ مألوه، أي: معبود، وإمام بمعنىٰ مُؤتم به. وقد قدمنا[٣] أن مادة الكاف والتاء والباء في لغة العرب (كَتَبَ) أن معنىٰ هذه المادة في اللغة التي نزل بها القرآن معنىٰ (كتب): ضم وجمع، فالكَتْب في لغة العرب معناه: الضم والجمع، وكل شيء ضممته وجمعت بعضه إلىٰ بعض فقد كتبته، ومنه سميت الكتيبة من الجيش؛ لأنها قطعة عظيمة ضم بعضها إلىٰ بعض، وجُمع بعضها مع بعض،

(١) انظر: ابن جرير (١٤/ ٩٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

حتىٰ صارت جملة عظيمة من الجيش، ومنه قول نابغة ذبيان[١]:

ولا عَيْبَ فيهم غَيرَ أن سُيُوفَهم بهنَّ فُلُولٌ من قِراعِ الكَتَائِبِ

ومن هذا المعنىٰ سميت الكتابة كتابة؛ لأنك تضم نقش حرف إلىٰ حرف إلىٰ حرف حتىٰ يتألف من مجموع هذا نقوش تُقرأ بها ألفاظ؛ ولأجل هذا قيل للخياطة (كَتْب) فالخياط يسمىٰ كاتباً؛ لأنه يضم أطراف الأديم بعضها إلىٰ بعض، وأطراف الثوب بعضها إلىٰ بعض فيخيطها، فالخياطون كُتّاب، وفي لُغَز الحريري[٢]:

وكَاتِبِينَ وما خَطَّتْ أَنَامِلُهم حرفاً ولا قرؤوا ما خُطَّ في الكُتبِ

يعني: الخياطين، ومنه قيل للسير الذي تُشد به الرقعة في السقاء: كُتْبة، وقيل لنفس الرقعة كُتبة؛ لأنها تضم في السقاء يُرقع بها، ومنه قول غيلان بن عقبة ذي الرمة[٣]:

ما بالُ عينيك منها الماءُ يَنْسَكِبُ كأنَّهُ من كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرَبُ
وفْرَاءُ غَرْفِيَّة أثأى خَوَارِزَهَا مُشَلْشَلٌ ضَيَّعَتْهُ بينها الكُتَبُ

يعني: ماء يسيل ضيعته الرقع والسيور المشدودة بها الرقع في السقاء يسيل منها، شبَّه دمعه به. ومن تسمية الخياطين (كتَّابين) قول ابن دارة يهجو فزارة[٤]:

---

(١) السابق.
(٢) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.
(٣) تقدم هذا الشاهد في الموضع السابق.
(٤) تقدم هذا الشاهد في الموضع السابق.

لا تـأْمَنَـنَّ فَـزَاريـاً خَلـوتَ بـه ... علىٰ قَلُـوصِـكَ واكْتُبهـا بـأسْيَـارِ

يعني: خِط فرجها بأسيار لئلا يزني بها. هذا أصل معنىٰ الكتابة.

وجمهور العلماء علىٰ أن معنىٰ: ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله الذي هو حكمه الذي استقر عليه أمره، أن الميراث بالرحم والقرابات لا بالهجرة والمؤاخاة، فهذا نسخ هذا كما هو الذي عليه جمهور العلماء ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧٥].

اختلف العلماء في المراد بـ ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ في هذه الآية[١]، فذهب جماعة من العلماء إلىٰ أن المراد بأولي الأرحام هم خصوص الذين أعطاهم الله مواريث من عصبات، أو أصحاب فروض، وأن هذه الآية بيّنتها آيات المواريث، وأن من لم يبيّن الله له نصيباً في كتابه لا شيء له ولا يدخل في هذا، وهذا قال به جماعة من العلماء، وممن ذهب إليه: مالك والشافعي (رحمهم الله)، قالوا: لا ميراث إلا لمن سمّىٰ الله له شيئاً، والمراد بـ (أولوا الأرحام) هذا مجمل بيّنته آيات المواريث، فلا ميراث لمن لم يجعل الله له سهماً. ومن أصرح أدلتهم في هذا حديث: «**إن الله أعطىٰ كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث**»[٢]

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/ ٩٠)، القرطبي (٨/٨)، المغني (٩/ ٨٢)، ابن كثير (٢/ ٣٣٠)، الأضواء (٢/ ٤١٨).

(٢) روىٰ هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، ومنهم:

١ ـ أبو أمامة (رضي الله عنه)، عند أحمد (٥/ ٢٦٧)، وأبي داود في الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث، حديث رقم: (٢٨٥٣)، (٨/ ٧٢)، =

. . . . . .

= والترمذي في الوصايا، باب ما جاء: «لا وصية لوارث»، حديث رقم: (٢١٢٠)، (٤/ ٤٣٣)، وابن ماجه في الوصايا، باب لا وصية لوارث، حديث رقم: (٢٧١٣)، (٢/ ٩٠٥)، والبيهقي (٦/ ٢٦٤)، والطيالسي (١١٢٧).

وانظر: التلخيص (٣/ ٩٢) وحسَّن الحافظ إسناده، ونصب الراية (٤/ ٤٠٣)، والإرواء، (٦/ ٨٨).

٢ ــ عمرو بن خارجة (رضي الله عنه)، عند أحمد (٤/ ١٨٦، ١٨٧، ٢٣٨ ــ ٢٣٩)، والدارمي (٢/ ٣٠٢)، والترمذي في الوصايا، باب ما جاء: «لا وصية لوارث»، حديث رقم: (٢١٢١)، (٤/ ٤٣٤)، وابن ماجه في الوصايا، باب لا وصية لوارث، حديث رقم: (٢٧١٢)، (٢/ ٩٠٥)، والبيهقي (٦/ ٢٦٤)، والطيالسي (١٢١٧)، والدارقطني (٤/ ١٥٢).

وانظر: التلخيص (٣/ ٩٢)، نصب الراية (٤/ ٤٠٣)، الإرواء (٦/ ٨٨).

٣ ــ أنس بن مالك (رضي الله عنه)، عند ابن ماجه في الوصايا، باب لا وصية لوارث، حديث رقم: (٢٧١٤)، (٢/ ٩٠٦)، والبيهقي (٦/ ٢٦٤)، وابن عدي في الكامل (٤/ ١٥٧٥).

وانظر: التلخيص (٣/ ٩٢)، نصب الراية (٤/ ٤٠٤)، الإرواء (٦/ ٨٩).

٤ ــ ابن عباس (رضي الله عنهما) (بلفظ مقارب) عند البيهقي (٦/ ٢٦٣)، الدارقطني (٤/ ٩٧، ٩٨، ١٥٢)، وابن عدي في الكامل (١/ ٣٠٧)، (٤/ ١٥٧٠).

وانظر: التلخيص (٣/ ٩٢) (وحسن إسناده)، ونصب الراية (٤/ ٤٠٤)، الإرواء (٦/ ٨٩، ٩٦).

٥ ــ جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما)، عند الدارقطني (٤/ ٩٧)، وقال: «الصواب: مرسل». اهـ، وابن عدي في الكامل (١/ ٢٠٢)، وانظر: التلخيص: (٣/ ٩٢)، نصب الراية (٤/ ٤٠٤)، الإرواء (٦/ ٩٢). =

قالوا: هذا الحديث فيه كلام معروف، والتحقيق أنه لا يقل عن درجة الاحتجاج، بيّن النبـي فيه أن الله أعطىٰ كل ذي حق حقه، قالوا: نص هذا الحديث علىٰ أنه ما بقي لصاحب حق حق أبداً إلا أعطاه الله إياه، فالذي لم يُسم له حق فليس له شيء، وهذا معروف، وممن ذهب إلىٰ هذا من الأئمة: مالك والشافعي.

وقالت جماعة آخرون: المراد بأولي الأرحام: من لا ميراث لهم بفرض ولا تعصيب، وأنهم يرثون من لا وارث له، واستدلوا بهذه الآية الكريمة وبأحاديث أُخر، منها ما هو ثابت في ميراث الخال، ومنها بعض جاء في ميراث العمة والخالة، والذين قالوا هذا قالوا: إن هؤلاء يصدق عليهم (أولوا الأرحام) بالوضع العربي، فلا

= ٦ ــ علي بن أبـي طالب (رضي الله عنه) (بلفظ مقارب) عند الدارقطني (٤/ ٩٧)، والبيهقي (٦/ ٢٦٧)، وابن عدي (٧/ ٢٥١١).

وانظر: التلخيص (وضعف إسناده) (٣/ ٩٢)، نصب الراية (٤/ ٤٠٥)، الإرواء (٦/ ٩٤).

٧ ــ عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) عند الدارقطني (٤/ ٩٨)، وابن عدي (٢/ ٨١٧)، وانظـر: التلخيـص (٢/ ٩٢)، نصـب الـرايـة (٤/ ٤٠٤)، الإرواء (٦/ ٩١، ٩٧).

٨ ــ معقل بن يسار (رضي الله عنه)، عند ابن عدي (٥/ ١٨٥٣)، وانظر: التلخيص (٣/ ٩٨).

٩ ــ زيد بن أرقم والبراء (رضي الله عنهما)، عند ابن عدي (٦/ ٢٣٤٩)، وانظر: نصب الراية (٤/ ٤٠٥).

١٠ــ مجـاهـد (مـرسـلاً) عـنـد البيهقـي (٦/ ٢٦٤)، وانظـر: التلخيـص (٣/ ٩٢).

١١ــ جعفر بن محمد عن أبيه (مرسلاً) عند الدارقطني (٤/ ١٥٢).

يجوز إخراجهم منه، قالوا: ولأنهم من جملة المسلمين، وهم يزيدون بقرابة، ولو فرضنا أنه لبيت المال كان لخصوص المسلمين، فمن أدلىٰ بسببين وهما الإسلام والقرابة أولىٰ ممن يُدلي بسبب واحد وهو الإسلام. والذين قالوا هذا قالوا: إن المراد بأولي الأرحام من لا فرض لهم في كتاب الله وليسوا بعصبة، وهم أحد عشر حيّزاً معروفة عند العلماء، وممن قال بتوريث أولي الأرحام بهذا المعنىٰ: الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ وأحمد بن حنبل ـ رحمهم الله ـ وجماعة كثيرة من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار.

والذين قالوا بتوريث أولي الأرحام معروف أنهم اختلفوا في كيفية توريثهم اختلافاً متشعباً يرجع إلىٰ أمرين[1]:

أحدهما: قول من يقال لهم: أصحاب التنزيل.

والثاني: قول من يُسمون بأصحاب القرابات.

وأصحاب التنزيل: هم الذين مشىٰ علىٰ مذهبهم أحمد بن حنبل وأصحابه. وأصحاب القرابات: هم الذين مشىٰ عليهم أبو حنيفة وأصحابه، والذين قالوا بالتنزيل قالوا: إن كل واحد من أولي الأرحام يُنَزَّل منزلة من يدلي به، فيُعطىٰ ميراث من يُدلي به، فإذا كان واحداً أخذ جميع المال، وإذا كانوا جماعة وكانوا نازلين قُرّبُوا درجة درجة ثم نُظر جميع من يُدلون به وعُرف ميراث كل واحد منهم فأُعطي كل واحد منهم نصيب من يدلي به، وهذا معروف، وهو مشهور مذهب الإمام أحمد.

---

(١) انظر: المغني (٩/ ٨٥)، الأضواء (٢/ ٤٢٤).

وأما أصحاب القرابات الذين ذهب إلىٰ مذهبهم أبو حنيفة (رحمه الله) فهم يعملون بالأقرب فالأقرب، قالوا: ما دام أبو الإنسان يوجد شيء من أولاده كأولاد بناته وأبناء بناتهم ونحو ذلك لا يُعطى شيء يُدلي بجده ويعطى بنو جد دِنْيَه قبل الجد الذي فوقه وهكذا، ولم يزل يُعطى من يدلي بمن هو أقرب ثم من هو أقرب حتىٰ ينتهي الأمر في ذلك. وتفاصيل مذاهبهم معروفة في فروعهم ــ رحم الله الجميع ــ .

* * *

obeikandl.com